ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

تأليف العلامة

أبو الحسن الندوي

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر

ماذا خسر العالم

بانحطاط المسلمين

(مؤلف 1945م)

تأليف العلامة

أبو الحسن الندوي

طبعة شرعية جديدة

منقّحة ومحقّقة ومزيّدة

مكتبة الإيمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

ت : ٣٥٧٨٨٢

كليمة كتذكرة

بقلم د. مصطفى أبو سليمان الندوى تلميذ المؤلف

على مدى ستين عاماً أو نحوها من الجهاد فى ميدان الدعوة والإصلاح والتعليم والتربية ، وعلى رأس العلماء والمجددين وبين صفوف الأسلاف الصالحين يقف سماحة الشيخ العلامة أبى الحسن على الحسنى الندوى ، أعلم يقيناً أنه غنى عن تعريف أمثالى به ، ولكننى من باب الوفاء بالنذر اليسير من الدَيْن ، ومن باب العرفان بالفضل الجميل لأصحابه أحببت أن أصدر هذه الطبعة الجديدة من الكتاب بعد أن سمح لى أستاذى ومربى عقلى المؤلف بطبعه ونشره فى بلادنا المحروسة مصر أرض الكنانة التى يذكرها سماحة أستاذنا بكل خير ويكن لعلمائها وأدبائها كل احترام لما لهم من سابقة فضل فى إثراء الدراسات العربية والإسلامية بجهود علمية عظيمة استفاد منها جهابذة علماء الديار الهندية .

أستاذنا العلامة الندوى ما ترك موضعًا فى شبه القارة الهندية إلا وله فيه بصمات دعوية علمية ، وما ترك دولة أو دويلة من المعمورة إلا وجابها ودعا فيها إلى الله تعالى ، وله فى كل ذلك صولات وجولات .

ولقد أثمر فى خلال دعوته آثاراً عظيمة أرجو أن أوفق لذكر شىء منها على سبيل المثال لا الحصر :

أولاً : جامعة ندوة العلماء أخذت صفة العالمية منذ أن صار رئيسًا عاماً لها ودخلت بل تفوقت على معظم جامعات العالم التى تهتم بشئون الدراسات الإسلامية والعربية لأنها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع .

ثانيًا : تخرج على يديه نوابغ العلم والفكر فى العصر الحديث وانتشروا فى بقاع الأرض يعلمون ويدعون الى الله تعالى على بصيرة .

ثالثاً : أسس سماحته معهداً عظيمًا عالياً للدعوة والفكر الإسلامى فى الجامعة وعلى غراره أنشأ معهداً فى جامعة اكسفورد بالمملكة المتحدة البريطانية ، ومعهداً آخر فى جزر دولة بروناى ، وهكذا تنتشر الأفكار الإسلامية الصحيحة فى الأمة المحمدية .

رابعًا : أقام دعوة للإسلام بين غير المسلمين فى داخل شبة القارة الهندية وخارجها بطريقة أطلق عليها اسم « الدعوة الإنسانية» تشتمل على الاجتماعات للترغيب فى الإسلام بطريقة فكرية سهلة القبول عندهم، وكذلك على رسائل وأبحاث بمختلف اللغات الحية والقديمة .

خامسًا : ترأس المجلس التعليمى لعموم الجامعات والمدارس الإسلامية فى شبه القارة الهندية .

سادسًا : ترأس مجلس الأحوال الشخصية للمسلمين للدفاع عن حقوقهم وحفظ كيانهم وتراثهم فى بلاد الهند .

سابعًا : اختير عضواً مؤسسا لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ، وعضواً للمجمع العربى بدمشق والقاهرة ، وعضواً مؤسسًا للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وغيرها من المجامع والجامعات فى مختلف البلاد الإسلامية وحاضر فى أكثرها خدمة للإسلام والمسلمين وحسبه لوجه الله الكريم .

ثامنًا : ألف ما يزيد على مائتى كتاب ورسالة باللغات العربية والأردية والهندية وترجمت أكثر مؤلفاته إلى اللغات الأوربية والتركية ولغة الملايو وغيرها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أيضاً :

١ – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

٢ – رجال الفكر والدعوة فى الإسلام – أربع مجلدات .

٣ – الأركان الأربعة فى ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى .

٤ – السيرة النبوية.

٥ – الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية .

٦ – النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن .

٧ – **روائع إقبال** .

٨ – الطريق إلى المدينة .

٩ – التربية الإسلامية الحرة .

١٠– إذا هبت ريح الإيمان .

١١– العقيدة والعبادة والسلوك .

١٢– روائع من أدب الدعوة فى القرآن والسنة .

١٣– حديث مع الغرب .

١٤– أحاديث صريحة فى أمريكا .

١٥– مذكرات سائح فى الشرق العربى .

١٦– من نهر كابول إلى نهر اليرموك .

١٧– أسبوعان فى المغرب الأقصى .

١٨– المسلمون وقضية فلسطين .

١٩– إلى الإسلام من جديد .

٢٠– المدخل إلى الدراسات القرآنية .

٢١– الصراع بين الإيمان والمادية .

٢٢– المسلمون فى الهند .

٢٣– التفسير السياسى للإسلام فى مرآة كتابات المودودى وسيد وقطب .

٢٤– القاديانى والقاديانية – دراسة وتحليل .

٢٥– العرب والإسلام .

٢٦– نفحات الإيمان .

٢٧– أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين .

٢٨– صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم الدعوية والتربوية وسيرة الجيل المثالى الأول عند أهل السنة والشيعة .

٢٩- شخصيات وكتب.

٣٠- الإسلام أثره فى الحضارة وفضله على الإسانية .

٣١- ربانية لا رهبانية .

٣٢- قصص النبيين للأطفال - خمسة أجزاء .

٣٣- فى مسيرة الحياة - مجلدان كبيران .

٣٤- المد والجزر فى تاريخ الإسلام .

٣٥- القرن الخامس عشر الهجرى فى ضوء التاريخ والواقع .

٣٦- دور الحديث الشريف فى تكوين المناخ الإسلامى .

٣٧- الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية .

٣٨- فضل البعثة المحمدية على الإنسانية .

٣٩- عاصفة يواجهها العالم الإسلامى .

٤٠- الإسلام والمستشرقون .

٤١- الدعوة الإسلامية فى الهند وتطوراتها .

٤٢- الإمام الذى لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف .

٤٣- مواساة أم مساواة .

٤٤- نظامان إلاهيان للغلبة والانتصار .

٤٥- الفتح للعرب المسلمين .

٤٦- كارثة العالم العربى .

٤٧- كيف دخل العرب التاريخ .

٤٨- العرب يكتشفون أنفسهم .

٤٩- نحو تكوين إسلامى جديد .

٥٠- خليج بين الإسلام والمسلمين .

٥١- وامعتصماه .

٥٢- حكمة الدعوة وصفة الدعاة .

٥٣- منهج أفضل فى الإصلاح للدعاة والعلماء .

٥٤- درس من الحوادث .

٥٥- بين نظرتين .

٥٦- بين الصورة والحقيقة .

٥٧- فى ظلال البعثة المحمدية .

٥٨- الإسلام والغرب .

٥٩- ردة ولا أبا بكر لها .

٦٠- الإسلام والغرب .

٦١- تضحية شباب العرب .

٦٢- الدعوة إلى الله .

٦٣- أهمية الحضارة .

٦٤- ملة إبراهيم وحضارة الإسلام .

٦٥- نظرة مؤمن واع إلى المدنيات المعاصرة الزائفة .

٦٦- ثورة فى التفكير .

٦٧- إلى الراية المحمدية .

٦٨- اسمعى يا مصر .

٦٩- اسمعى يا سورية .

٧٠- اسمعى يا إيران .

٧١- اسمعى يا زهرة الصحراء .

٧٢- اسمعوها منى صريحة أيها العرب .

٧٣- الإسلام والحكم .

٧٤- نحن الآن فى المغرب .

٧٥- تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا .

٧٦- قارنوا بين الربح والخسارة .

٧٧- إلى قمة القيادة العالمية .

٧٨- فاستخف قومه فأطاعوه .

٧٩- غارة التتار على العالم الإسلامى وظهور معجزة الإسلام .

٨٠- الإسلام فى عالم متغير .

٨١- كارثة التعصب اللغوى والثقافى .

٨٢- مصادر العلوم الإسلامية .

٨٣- مستقبل الأمة الاسلامية والعربية بعد حرب الخليج

والكثير من المؤلفات بالأردية أو الهندية ولم يترجم إلى اللغة العربية بعد ، ونود أن تقوم جامعة ندوة العلماء بدورها فى ترجمة مالم يكتب أصلاً بالعربية إلى العربية .

تاسعًا : كتب مقدمات فائقة لكثير من المؤلفات العلمية والشروح الحديثية والفقهية والأدبية لكبار العلماء من بلاد العجم والعرب كمقدماته لكتاب الشيخ العلامة المحدث محمد زكريا الكاندهلوى، تراجم أبواب البخارى وأوجز المسالك فى شرح موطأ مالك، وبذل المجهود فى شرح سنن أبى داود ، ومقدمته لكتاب حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوى الزائع الصيت والانتشار ، ومقدمته لمذكرات الدعوة والداعية للشيخ البنا وغيرها الكثير مما فاق الوصف والتعليق وجعل

لهذه الكتب مكانة عظمى بين المؤلفات الحديثة ، ولقد أوصانى سماحته بجمع مقدماته للكتب فأسأل الله العلى القدير أن يوفقنى لذلك فى القريب إن شاء الله .

ولقد أشاد بجهوده ومؤلفاته جم غفير من علماء العصر ونوابغ الفكر والأدب فى العالمين العربى والإسلامى كالأستاذ الدكتور / مصطفى السباعى فى مقدمته لكتاب رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ، والأستاذ الأديب / السيد قطب فى تقديمه لقصص النبيين، وماذا خسر العالم وهى بين يدى القارئ والباحث ، والأديب الكبير الأستاذ / على الطنطاوى فى مقدمته لكتاب مختارات من أدب العرب ، والمفكر الإسلامى الأستاذ / أنور الجندى فى كتابه أعلام القرن الرابع عشر ، والأستاذ محمد المجذوب والشيخ فاروق حمادة ، وغيرهم وغيرهم نفع الله المسلمين بهم جميعاً .

وإن أحد إخواننا الباحثين بالجامعة الأزهرية قد ألف رسالة للدكتوراة فى شخصية أستاذنا الندوى ونالت إعجاباً عظيماً من أساتذة قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بالجامعة .

هذا .. وان سماحة شيخنا متع الله الإسلام والمسلمين بأعماله وعلومه وجهوده لم ينل على ما أرى ولو جزءاً حقيقياً من حقه، وأرجو الله أن يوفق قادة الأمة الإسلامية وعلماءها ودعاتها وشبابها للانتفاع بالشيخ الندوى علماً وعملاً وفكراً وأدباً وخلقاً .

وإن من أبواب الخير الذى لا مرية فيه أن نقوم اليوم بإحياء عمل واحد عظيم من أعماله ليكون باكورة مكتبة إسلامية عظيمة للدعاة فى سلسلة مباركة من مؤلفاته ، ولهذا قبلت منا مكتبة الإيمان بالمنصورة مشكورة الإذن بطبع الكتاب ونشره طبعاً ونشراً يليقان بمقام المؤلف والمؤلف مع مراعاة حسنة لأحوال طلاب العلم والدعوة ومحبى الشيخ الندوى ومؤلفاته وكذلك للظروف المعيشية والاجتماعية فى مصر حتى يتيسر لكل أسرة اقتناء نسخة أو أكثر من هذا الكتاب فجزى الله المؤلف والناشر خيراً ، ولله الحمد والمنة وصلى الله على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم .

مقدمة
بقلم الباحث الاسلامي الأستاذ سيد قطب

ما أحوج المسلمين اليوم إلى من يرد عليهم إيمانهم بأنفسهم وثقتهم بماضيهم ورجاءهم في مستقبلهم .. وما أحوجهم لمن يرد عليهم إيمانهم بهذا الدين الذى يحملون اسمه ويجهلون كنهه ، ويأخذونه بالوراثة أكثر مما يتخذونه بالمعرفة .

وهذا الكتاب الذى بين يدى : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » لمؤلفه (السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى) من خير ما قرأت فى هذا الاتجاه ، فى القديم والحديث سواء .

إن الإسلام عقيدة استعلاء ، من أخص خصائصها أنها تبعث فى روح المؤمن بها احساس العزة من غير كبر ، وروح الثقة فى غير اغترار ، وشعور الاطمئنان فى غير تواكل . وأنها تشعر المسلمين بالتبعية الإنسانية الملقاة على كواهلهم ، تبعة الوصاية على هذه البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتبعة القيادة فى هذه الأرض للقطعان الضالة ، وهدايتها إلى الدين القيم ، والطريق السوى ، وإخراجها من الظلمات إلى النور بما آتاهم الله من نور الهدى والفرقان : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ .. ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾ .

وهذا الكتاب الذى بين يدى يثير فى نفس قارئه هذه المعانى كلها ، وينفث فى روعه تلك الخصائص جميعها ، ولكنه لا يعتمد فى هذا على مجرد الاستثارة الوجدانية أو العصبية الدينية ، بل يتخذ الحقائق الموضوعية أداته ، فيعرضها على النظر والحس والعقل والوجدان جميعاً ، ويعرض الوقائع التاريخية والملابسات الحاضرة عرضاً عادلاً مستنيراً ، ويتحاكم فى القضية التى يعرضها كاملة الى الحق والواقع والمنطق والضمير ، فتبدو كلها متساندة فى صفه وفى صف قضيته ، بلا تمحل ولا اعتساف فى مقدمة أو نتيجة . وتلك مزية الكتاب الأولى .

إنه يبدأ فيرسم صورة صغيرة سريعة – ولكنها واضحة – لهذا العالم قبل أن

تشرق عليه أنوار الإسلام الأولى . يرسم الصورة لهذا العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، من الهند والصين إلى فارس والروم ، صورة المجتمع وصورة الضمير فى هذه الدنيا العريضة ، فى الجماعات التى تظلها الديانات السماوية ، كاليهودية والمسيحية ، والتى تظلها الديانات الوثنية ، كالهندوكية والبوذية والزرادشتية .. وما إليها ..

إنها صورة جامعة تعرض رقعة العالم وتصفها وصفاً بيناً ، لا يعتسف المؤلف فيه ، ولا يستبد به ، إنما يشرك معه الباحثين والمؤرخين من القدامى والمحدثين ، ممن يدينون بغير الإسلام ، فلا شبهة فى أن يكونوا مغرضين له ، وللدور الذى أداه فى ذلك العالم القديم .

إنه يصف العالم تسيطر عليه روح الجاهلية ، ويتعفن ضميره ، وتأسن روحه ، وتختل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس ، وتغشاه غاشية من الكفر والضلال والظلام ، على الرغم من الديانات السماوية ، التى كانت قد أدركها التحريف ، وسرى فيها الضعف ، وفقدت سيطرتها على النفوس ، واستحالت جامدة ، لا حياة فيها ولا روح ، وبخاصة المسيحية .

... فإذا فرغ المؤلف من رسم صورة العالم بجاهليته هذه ، بدأ يعرض دور الإسلام فى حياة البشرية . دوره فى تخليص روح البشر من الوهم والخرافة ، ومن العبودية والرق ، ومن الفساد والتعفن ، ومن القذارة والانحلال ، ودوره فى تخليص المجتمع الإنسانى من الظلم والطغيان ، ومن التفكك والانهيار ، ومن فوارق الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان ، ودوره فى بناء العالم على أسس من العفة والنظافة والإيجابية والبناء ، والحرية والتجدد ، ومن المعرفة واليقين ، والثقة والإيمان . والعدالة والكرامة ، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة وترقية الحياة ، وإعطاء كل ذى حق حقه فى الحياة .

كل أولئك فى إبان الفترة التى كانت القيادة فيها للإسلام فى أى مكان ، والتى كان الإسلام فيها يعمل ، وهو لا يستطيع أن يعمل إلا أن تكون له القيادة ، لأنه بطبيعته عقيدة استعلاء ومنهج قيادة ، وشرعة ابتداع لا اتباع .

ثم تجيء الفترة التى فقد الإسلام فيها الزمام ، بسبب انحطاط المسلمين ، وتخليهم عن القيادة التى يفرضها عليهم هذا الدين ، والوصاية التى يكلفهم بها على البشرية ، والتبعات التى ينوطها بهم فى كل اتجاه .

وهنا يستعرض المؤلف أسباب هذا الانحطاط الروحية والمادية ، ويصف ما حل بالمسلمين أنفسهم عندما تخلوا عن مبادئ دينهم ، ونكصوا عن تبعاتهم ، وما نزل بالعالم كله من فقدانه لهذه القيادة الراشدة ، ومن انتكاسه إلى الجاهلية الأولى ، ويرسم خط الانحدار الرهيب الذى ترتكس فيه الإنسانية فى ذات الوقت الذى تفتح فيه آفاق العلم الباهرة . يرسم هذا الخط عن طريق التأمل الفاحص ، لا بالجمل النارية والتعبيرات المجنحة . فالحقائق الواقعة ، كما عرضها المؤلف غنية عن كل بهرج وكل تزويق .

ومن خلال هذا الاستعراض ، يحس القارئ ، بمدى الحاجة البشرية الملحة إلى تغيير القيادة الإنسانية ، وردها إلى الهدى الذى انبثق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى المعرفة ، ويشعر بالقيمة الكلية لوجود هذه القيادة فى الأرض ، وبمدى الخسارة التى حلت بالبشر جميعاً ، لا بالمسلمين وحدهم فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل القريب والبعيد .

كذلك يثور فى نفس المسلم بصفة خاصة روح الندم ، على ما فرط ، وروح الاعتزاز بما وُهب ، وروح الاستشراف إلى القيادة التى ضيع .

ولعله مما يلفت النظر تعبير المؤلف دائماً عن النكسة التى حاقت بالبشرية كلها منذ أن عجز المسلمون عن القيادة بكلمة « الجاهلية » .

وهو تعبير دقيق الدلالة على فهم المؤلف للفارق الأصيل بين روح الإسلام ، والروح المادى الذى سيطر على العالم قبله ، ويسيطر عليه اليوم بعد تخلى الإسلام عن القيادة .. إنها (الجاهلية) فى طبيعتها الأصيلة ، فالجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة ، ولكنها طابع روحى وعقلى معين ، طابع يبرز بمجرد أن تسقط القيم الأساسية للحياة البشرية ، كما أرادها الله ، وتحل محلها قيم مصطنعة تستند الى

الشهوات الطارئة، وهذا ما تعانية البشرية اليوم فى حالة الارتقاء الأولى ، كما كانت تعانيه من قبل فى أيام البربرية الأولى .

فرسالة العالم الإسلامى هى الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر . وجائزته هى الخروج من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . وقد ظهر فضل هذه الرسالة ، وسهل فهمها فى هذا العصر أكثر من كل عصر ، فقد افتضحت الجاهلية ، وبدت سوأتها للناس ، واشتد تذمر الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام ، لو نهض العالم الإسلامى ، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماس وعزيمة ، ودان بها « كالرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال » ، كما يقول المؤلف الفاضل قرب نهاية الكتاب .

وأخيراً ، فإن الخصيصة البارزة فى هذا الكتاب كله هى الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية فى محيطها الشامل ، وهو لهذا لا يعد نموذجاً للبحث الدينى والاجتماعى فحسب ، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغى أن يكتب من الزاوية الإسلامية .

لقد مضى الأوربيون يؤرخون للعالم كله من زاوية النظر الغربية ، متأثرين بثقافاتهم المادية ، وفلسفتهم المادية ، ومتأثرين كذلك بالعصبية الغربية والعصبية الدينية – شعروا بذلك أم لم يشعروا – ومن ثم وقعت فى تاريخهم أخطاء وانحرافات ، نتيجة إغفالهم لقيم كثيرة فى هذه الحياة ، لا يستقيم تاريخ الحياة ولا يصح تفسير الحوادث والنتائج بدونها ، ونتيجة عصبيتهم التى تجعل أوربا فى نظرهم هى محور العالم ومركزه دائماً ، ولإغفالهم العوامل الأخرى التى أثرت فى تاريخ البشرية ، أو التهوين من شأنها إذا لم يكن مصدرها هو أوربا .

ولقد درجنا نحن على أن نتلقف التاريخ من أيدى أوربا كما نتلقف كل شىء آخر نتلقفه بأخطائه تلك ، وهى أخطاء فى المنهج بإغفال قيم كثيرة وعوامل كثيرة ، وأخطاء فى التصوير نتيجة النظر من زاوية واحدة للحياة البشرية ، وأخطاء فى النتائج

تبعاً للأخطاء المنهجية والتصويرية .

وهذا الكتـاب الذى بين يدى نموذج للتـاريخ الذى ينظـر للأمـور كلهـا ، وللعـوامل جميعهـا ، وللقيم على اختلافهـا . ولعل القـارئ لم يكن ينتظر من رجل مسلم ، واثق بقـوة الروح الإسلامى ، متحمس لرد القيادة العالمية إليه ، أن يتحدث عن مؤهلات القيادة ، فلا ينسى بجوار (الاستعداد الروحى) أن يلح فى (ا لاستعداد الصناعى والحـربى) و (التنظيم العلمى الجـديد) وأن يتحـدث عن (الاستقـلال التجارى والمالى) .

إنه الإحساس المتناسق بكل مقومات الحياة البشرية ، وبهذا الإحساس المتناسق سار في استعراضه التاريخى ، وفى توجيـهه للأمة الإسلامية سواء ، ومن هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتاريخ ، كما يجب أن يتناوله المسلمـون مستقلين عن التأثر بالطريقة الأوربية ، التى ينقصها هذا التناسق وهذه العدالة وهذا التحقيق .

وإنه ليسعـدنى أن أتحدث عن هذا الكتاب بذلك الإحساس ذاته ، وأن أسجل هذه الظاهرة ، وأنا مـغتبط بهـذه الفرصة الـتى أتاحت لى أن أطلع عليه فى العـربية .. اللغة التى آثر صاحبه أن يكتبه بها ، وأن ينشره فى مصر للمرة الثانية : ﴿ **إنَّ فى ذلكَ لذكرى لمن كان لهُ قلبٌ أو ألقى السَّمع وهو شهيد** ﴾ .

«سيد قطب»

صورة وصفية :

أخي أبو الحسن ! ....

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي

لقيت أخي أبا الحسن أول مرة فى شتاء سنة ١٩٥١م ، بدار(الشبان المسلمين) فى القاهرة ، عقب محاضرة لى من « محاضرات الثلاثاء » وقد أقبل على يطلب فى أدب جم وتواضع ظاهر ليلة من ليالى الثلاثاء ، ليلقى فيها محاضرة عن «العالم فى مفترق الطرق » .. فرأيت رجلاً نحيف البدن ، نحيل العود ، له لحية سمراء ، وملابسه قليلة خفيفة الوزن والثمن ، ونظراته عميقة نفاذة ، ونبراته دقيقة أخاذة فيها بحة ، عرفت فيما بعد أنها ملازمة له من جهد وإجهاد ، وبعد اللقاء الأول العاجل توثقت بينى وبينه أسباب الأخوة والمحبة ، وعن خبر به أكتب هذه السطور .

هو العالم المؤمن الداعية المحتسب السيد أبو الحسن على الحسنى الهندى الندوى ، من المنتسبين إلى عترة الحسن بن على رضوان الله عليهما ، ووالده هو الشريف العلامة عبدالحى بن فخر الدين بن عبدالعلى ، ينتهى نسبه الى عبدالله الأشتر بن محمد ذى النفس الزكية بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب ، ولوالده كتب كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط أشهرها « نزهة الخواطر » فى ثمانية مجلدات [(١)] وقد توفى سنة ١٣٤١ هجرية .

وقد ولد السيد أبو الحسن فى مديرية بالهند تسمى « راى بريلى » ، وهى تبعد عن « لكهنؤ » سبعين كيلو متراً تقريباً ، مد الله فى عمره وأدام به نفع الإسلام والمسلمين .

وأسرة أخى أبى الحسن من أصل عربى ، لا تزال تحافظ على أنسابها الى هذا اليوم وهى تحافظ على صلاتها بأصلها وإن كانت تتكلم الهندية وتعيش فى الهند منذ

(١) ظهرت سبعة مجلدات من هذا الكتاب من دائرة المعارف فى حيدر اباد الهند ، والكتاب يشتمل على خمسة آلاف ترجمة لأعيان الهند ، وظهر للمؤلف كتاب « الثقافة الإسلامية فى الهند » طبعه المجمع العلمى العربى فى دمشق .

قرون ، وتمتاز بالمحافظة على التوحيد والسنة والبعد عن البدع والدعوة الى الله والجهاد فى سبيله ، وللسيد أبى الحسن أخ أكبر منه هو السيد الدكتور عبدالعلى عبدالحى [1] وهو طبيب ، وقد تخرج فى ندوة العلماء ومعهد ديوبند ، كما تخرج فى جامعة لكهنؤ بتفوق وامتياز ، فهو بذلك يجمع بين الثقافتين الدينية والعصرية ، وله فضل كبير فى تربية السيد أبى الحسن وثقافته ، ويدير ندوة العلماء خلفاً لأبيه الراحل .. وقد تزوج السيد أبو الحسن منذ عشر سنوات من الأسرة نفسها ، لأن هذا تقليد محترم يعاقب من يخرج عليه .

بدأ السيد أبو الحسن تعلمه القرآن الكريم فى البيت تعاونه أمه ، وأمه من فضليات النساء والسيدات الفاضلات الصالحات ، تحفظ القرآن ، وتكتب ، وتؤلف ثم تعلم اللغتين الأوردية والفارسية ، ثم بدأ وهو فى الثانية عشرة من عمره يتعلم الإنجليزية والعربية معاً ، وبدأ تعلم العربية على الشيخ خليل بن محمد اليمنى ، وتوفر سنتين كاملتين على دراسة الأدب العربى وحده ، وقرأ كثيراً من كتب الأدب ، وشغف بها على خلاف العادة يومئذ فى الهند ، لأنهم يزهدون فى الأدب العربى ، وعنى عناية خاصة بالعكوف على كتب ثلاثة هى : نهج البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، والحماسة ، ثم التحق بجامعة لكهنؤ ، وهى جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية ، وفيها قسم لآداب اللغة العربية التحق به السيد أبو الحسن ، وكان يومئذ أصغر طلاب الجامعة سناً ، وضاق بدروس القواعد أولاً فأخره ذلك قليلاً ، ثم سار فى تعلمه ممتازاً فائقاً سابقاً ، ثم أتم دراسته الأدبية على الدكتور الشيخ تقى الدين الهلالى المراكشى رئيس تدريس الأدب العربى فى ندوة العلماء – وهى جمعية تشرف على دار العلوم هناك – ثم دخل الندوة ، ومكث بها سنتين يدرس علوم الحديث ، واستفاد كثيراً من شيخ الحديث الشيخ حيدر حسن خان ، ومكث فى دار العلوم ديوبند مدة شهور ، وحضر دروس العالم الكبير المجاهد الشيخ حسين أحمد المدنى فى الحديث .

---

(١) توفى إلى رحمة الله فى ٢١ ذى القعدة ١٣٨٠هـ الموافق ٧ مايو ١٩٦١م

وسافر إلى لاهور ، وقرأ التفسير على الشيخ أحمد على المفسر المشهور ، ولم تكن دراسته فى أغلب أدوارها دراسة نظامية بشهادات ، بل كانت دراسة حرة لوجه العلم والمعرفة ، ولما أتم دراسته رجع إلى لكهنؤ ، وعين مدرساً فى دار العلوم هناك ومكث فيها عشر سنوات يدرس علوماً مختلفة ، واشتغل بجوار ذلك بالكتابة فى مجلة « الضياء » العربية التى تصدرها ندوة العلماء ، ورئيس تحريرها الأستاذ مسعود الندوى ، واشتغل كذلك بالتأليف فى الأوردية ، وأظهر كتابه « سيرة السيد أحمد الشهيد » ، فكان الإقبال عليه عظيماً حتى طبع ثلاث مرات .

ثم انتقل إلى دلهى ، والتقى بالداعية المجدد العظيم الشيخ محمد إلياس ، وكان هذا اللقاء نقطة تحول فى حياة أبى الحسن ، لأن الشيخ محمد إلياس كان مرشداً شعبياً ، له صلة عميقة وثيقة بالجماهير عن طريق الدعوة إلى الله . وأبو الحسن لم يكن متصلاً بالشعب قبل ذلك ، بل كان مقتصراً على الدراسة والتأليف . فأخذ يتصل بأهل القرى والدساكر ، ويقوم برحلات إسلامية قد تستغرق الواحدة منها شهراً . لنشر الدعوة فى قرى الهند ومدنها . وكان الشيخ إلياس – ولا يزال – هو مثل أبي الحسن الأعلى فى الحكمة الدينية العميقة وفى قوة الإيمان لأن الشيخ إلياس – كما يقول أخونا – كان صورة من السلف الصالح ، وكان مخلصاً غيوراً ، يتألم لحال المسلمين ، ويعمل من أجلهم ، ويسير فى شئونهم ، ويحترق بروحه القوية الوثابة فى سبيلهم [(١)]

وتلقى التربية الروحية من العارف الجليل المربى الكبير الشيخ عبدالقادر الرأى يورى واستفاد من صحبته ومجالسته .

---

(١) توفى إلى رحمة الله تعالى عام ١٣٦٣هـ – وللسيد أبى الحسن تأليف فى سيرته فى أردو وحديث عنه فى محاضرته « الدعوة الإسلامية فى الهند وتطوراتها » .

ورأس أبو الحسن تحرير مجلة « الندوة » العلمية التى كانت تصدر بالأوردية ، وكانت لسان حال الندوة ، وكلفته الجامعة الإسلامية فى (عليكره) بوضع منهاج لطلبة (البكالوريا) فى التعليم الدينى ، فألف فى ذلك كتاباً أسماه « إسلاميات » وقبلت الجامعة هذا الكتاب وأخذت به ، وكافأت صاحبه عليه ، ودعى لإلقاء محاضرات فى الجامعة الملية الإسلامية بدلهى ، فألقى محاضرة فى موضوع : (الدين والمدنية) كانت موضع الاستحسان ، ونشرت فكان لها تأثير واسع النطاق .

وألف فى هذه الفترة كتباً لطلبة المدارس العربية فى الهند ، منها كتاب «مختارات فى الأدب العربى » وقد قررت دار العلوم فى الهند وبعض الجامعات تدريسه . ومنها كتاب « قصص النبيين » فى ثلاثة أجزاء ، وغير ذلك من الكتب ، وأصدرمجلة (التعمير) التى كانت تصدر بالأوردية مرتين فى الشهر ، وأسس جمعية للتبشير بالإسلام بين الهندوس ، وأصدرت هذه الجمعية التبشيرية الإسلامية عدة رسائل وبحوث عن الملة الغراء باللغة الإنجليزية المنتشرة هناك . وأسس (المجمع الإسلامى العلمى) فى لكهنؤ سنة ١٩٦٠ وله نشاط وإنتاج فى اللغات الإنجليزية والهندية والأوردية والعربية ، ومطبوعات قيمة .

وأخى المفضال أبو الحسن له غرام أصيل عميق باقتناء الكتب ومسامرتها والحديث عنها ، وأعز ما يحرص عليه من عرض الحياة هو كتبه ، وأغلى ما يهدى إليه كتاب يرضيه ويغذيه ، ولا يقتنى أبو الحسن الكتب ليزين بها داره . بل ليهضمها قراءة وبحثاً ونقداً . وكتاباته المختلفة فيها دلائل واضحة على ذلك . وقد أفادته هذه المطالعات والمسامرات – بجوار الهبة والتجربة – قدرة على الارتجال بالعربية . فهو يتدفق كالسيل بلغة بليغة فيها الصور البيانية والتعبير الجميل . وأغلب محاضراته يستعد لها . وكثيراً ما يكتبها . وأسلوبه يغلب عليه العنصر العاطفى الملتهب . ومع ذلك إذا طرق باب البحث أجاد وأفاد وأمتع أيضًا . وهو كما عرفت عنه وكما حدثنى مراراً لا يحب أن يهجم على الحديث فى موضوع ذى بال إلا إذا احتفل به وتهيأ له . وليس ذلك عن قلة بضاعة ولكنه احتراس العالم الذى يريد أن يستيقن ويتثبت ! .. وقد غلب النثر على أبى الحسن فلم تطاوعه قريحته يوماً على نظم الشعر....

وقد ظل الأستاذ أبو الحسن يمارس ألواناً من الألعاب الرياضية ككرة القدم والسباحة والصيد والهوكى والتنس ثم انقطع عنها أخيراً ، وعلى الرغم من هذا أصابته أمراض استمرت مدة طويلة ، وخاصة فى الصدر ، ثم عافاه الله منها ، وبقى له سعال يعاوده من حين لآخر .

وهو يكره التصوير بجميع أنواعه ، ويحرمه على نفسه فى تشديد ملحوظ ، ولقد زرت معه إحدى دور الطبع والنشر الكبرى بالقاهرة ، ورغب مصور الدار أن يلتقط لنا صوراً تذكارية ، فرفض أبو الحسن ، وأصر على الرغم من طول المحاولة والرجاء ، وذكر أن المسلمين فى الهند (متفقون) على حرمة التصوير !!

ولقد سألته ذات مرة عن السابقين الذين تأثر بهم ، فأجابنى بأنهم الإمام أحمد ابن حنبل صاحب الموقف المعروف فى المحنة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والشيخ أحمد السرهندى (من سرهند ، بلد فى البنجاب) المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ صاحب الرسائل الخالدة فى الشريعة والحقيقة ومحاربة البدع ، والمجدد للملة ، والشيخ ولى الله الدهلوى المتوفى سنة ١١٧٦ هـ الباحث الإسلامى العظيم صاحب (حجة الله البالغة) والسيد أحمد الشهيد مؤسس أول دولة شرعية فى الهند فى القرن الثالث عشر الهجرى [١] وقد استمرت هذه الدولة عدة شهور ، ثم ثار عليها الإنجليز بمؤامراتهم فأخذوا عليها الطريق .

وأعظم آمال أبى الحسن أن يرى الإسلام سائداً على الأرض ، وأن يرى الدول الباغية معذبة مقهورة حتى يسلى نفسه ويستبشر ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلام وأذلوا المسلمين ، وهو يعتقد ويرى أن بقاء القلة المسلمة فى الهند من الخير ، وفيه فائدة ترجى للهند ، فلعل للإسلام مستقبلاً ذا بال هناك .

ولقد رحل أبو الحسن إلى الحجاز فى سنتى ١٩٤٧ – ١٩٥٠م . وقدم الى

---

(١) هو من نفس أسرة السيد أبى الحسن ومن أشهر رجالها ورجال الهند . ولد سنة ١٢٠١ هـ فى راى بريلى (الهند) واستشهد فى سبيل الله فى بالاكوت (باكستان الآن) سنة ١٢٤٦ هـ .

مصر سنة ١٩٥١ ، وطوف بأغلب العالم الإسلامى ، فرأى شواهد [١] ودرس وكتب. وحاضر وخطب . وكان له فى كل أرض نزل بها مجهود وجهود وعهود.

وقد اختير عضواً مراسلاً فى المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٥٧ م ودعى لإلقاء محاضرات كأستاذ زائر فى جامعة دمشق سنة ١٩٥٦ م [٢]

وقد سألته وهو بيننا فى مصر عن حسنات مصر، فقال موجزاً : الإيمان بالله والدين ، والمحبة للمسلم خاصة إذا كان غريباً ، ورقة القلب ، وسلامة الصدر ، وكثرة الأعمال المُنْتجَة ....

ثم سألته عن السيئات فتحرج ثم أجاب : السفور ، وعدم التستر ، والصور الخليعة فى الصحف والمجلات ، واستهانة بعض العلماء ببعض الحرمات ، وعدم المحافظة على الجماعات فى المساجد برغم كثرتها ، والاندفاع فى تقليد الحضارة الغربية بلا تبصر .

وأخي أبو الحسن بعد هذا كله عدو للمظاهر الكاذبة ، يتخفف فى ثيابه وطعامه وشرابه ، ويكره التكلف والمجاملة الزائدة ، ولا يقيم للمال وزناً فى حياته ، وثقته بربه فوق كل شيء ، ومثابرته على النضال فى سبيل ما يؤمن به مضرب الأمثال ، وإخلاصه العميق سر نجاحه بينما يفشل الآخرون .

لقد طال الكلام ، ومع ذلك لم أقل كل شيء عن أخى أبى الحسن !..

أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

---

(١) طبعت مذكراته فى القاهرة بعنوان « سائح فى الشرق العربى »

(٢) ظهر مجموع هذه المحاضرات التى ألقاها الأستاذ أبو الحسن فى مدرج الجامعة الكبير فى دمشق وهى اثنتا عشرة محاضرة باسم « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » من طبعة جامعة دمشق سنة ١٩٦٠ م .

مقدمة الطبعة الثالثة عشرة القانونية

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة كتاب
يحكيها مؤلفه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فلعل كثيراً من القراء الفضلاء لا يعلمون أن هذا الكتاب(١) كان باكورة مؤلفاتى ، وكان بداية تاريخ التأليف ، وقد ألفت هذا الكتاب وأنا قد جاوزت الثلاثين من عمرى قريبًا(٢) وكان أضخم من أن يتناوله مثلى فى مثل هذه السن المبكرة ، وفى بلد بعيد عن مركز اللغة العربية وآدابها وثقافتها ، وقد ولدت فى الهند ونشأت وتعلمت فيها ، ولم يقدر لى أى سفر خارج الهند ، وكانت الرحلة الأولى المباركة التى وفقنى الله لها هى الرحلة التى قمت بها لأداء فريضة الحج سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧م) ، يعنى بعد تأليف هذا الكتاب بثلاث سنوات فكانت فى الحقيقة مغامرة علمية لم أكن متهيئاً ولا مرشحًا لها ، وكان من الجسارة أن أتناول هذا الموضوع الذى كان جديراً بقلم أكبر من قلمى ، وبعقل أوسع من عقلى ، وبتجربة أطول وأوسع من تجربتى كمؤلف ، ولكن الله يفعل ما يشاء .

لقد كنت أشعر برغبة غامضة ملحة لم أستطع أن أغالبها ، كأن سائقا يسوقنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع ولو استشرت العقل واعتمدت على تجارب المؤلفين ، وعلى مقاديرهم ومكانتهم العلمية ، لأحجمت ، ولعدلت عن هذ الفكرة ، ولو ذكرت ذلك لأحد من العقلاء العلماء والكتاب الفضلاء ، لأشاروا على بالعدول عن خوض هذه المعركة العلمية العقلية ، ولكنه كان من الخير أننى لم استشر أحداً ، كما

---

(١) يعنى به المؤلف كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

(٢) كان تأليفه بين سنة ١٣٦٣ هـ - ١٣٦٤ هـ (١٩٤٤ م - ١٩٤٥) .

يقول الدكتور محمد إقبال : « ليس من الخير أن تستشير عقلك دائماً ، فنح عقلك جانباً فى بعض الأمور ، فإن العقل يصور لك الخوف فى معارك خطيرة ، ويشير عليك الابتعاد عن مثل هذه التجارب المريرة » .

وكانت المراجع العربية التى كان لابد من أن أستشيرها فى هذا الموضوع قليلة، لأن ذلك العهد كان قريباً بالحرب العالمية الثانية ، وكانت الصلات تكاد تكون منقطعة بين الهند والبلاد العربية ، فكانت الهند تستورد قليلاً من البضاعة العلمية والمراجع التاريخية والثقافية باللغة العربية ، التى كانت تزخر بها البلاد العربية بصفة عامة ، ومصر بصفة خاصة ، أما المراجع العلمية باللغة الإنجليزية والأردية فكانت متوفرة ، وكانت فى لكهنؤ . مدينة العلم والثقافة – مكتبات غنية فيها أحدث المطبوعات الإنجليزية والموسوعات العلمية وكنت على اتصال بها ، أستعير منها الكتب وأطالعها وأستفيد من بعض المكتبات الشخصية ، وكان من تيسيرالله تعالى والإرهاص لتأليف هذا الكتاب ، أنى كنت طالعت قريباً تاريخ أوربا سياسة واجتماعاً وديانة وخلقاً ، وحضارة وثقافة ، بنهامة وفى توسع وعمق ، وعنيت بموضوع الصراع بين الديانة والعلم ، والبلاط والكنيسة ، دراسة اختصاصية وتاريخ الأخلاق فى أوربا وتطورها ، والعوامل التى صاغتها صياغة خاصة ، انتهت بها إلى هذا المصير المادى ، الذى أثر فى مسيرة الشعوب الغربية والشرقية واتجاهاتها ، تأثيراً عاماً وحاسماً .

هذا عدا تاريخ الأقطار الشرقية الإسلامية ، وديانتها وحركاتها وفلسفاتها ، وتاريخ الإسلام والمسلمين ، وتاريخ العرب فى الجاهلية والإسلام ، من خلال الكتب المختصة بهذا الموضوع ، ومن خلال الشعر والأدب فكان أيسر لى نسبيا بفضل ثقافتى الدينية والأدبية والتاريخية ولأن موادها كانت متوفرة فى مكتبة ندوة العلماء الكبيرة ، ومكتبات شخصية ، وبفضل الاتصال الدائم بحركة الترجمة والنشر فى شبه القارة الهندية ومطالعة المجلات والصحف العلمية الراقية ، وما تنشره من بحوث ودراسات علمية .

زد الى ذلك التكوين العقلى والنفسى الممتاز ، المؤمن بخلود رسالة الإسلام ، وقيادة محمد عليه الصلاة والسلام وإمامته للأجيال البشرية عبر العصور ، وبالنقص الواقع فى طبيعة الحضارة الغربية ، ومزاج الأمم الغربية ، الذى لا يفارقها فى حال من

الأحوال ، وظهوره - فى شكل مجسم فى قيادتها ، وذلك نتيجة تربية أخى الأكبر الدكتور السيد عبدالعلى الحسنى أمين ندوة العلماء العام ، الذى كان مثالاً فريداً فى الجمع بين الثقافتين الإسلامية والغربية العصرية ، وعمق فهمه للإسلام ، واتزانه الفكرى البعيد عن كل غلو وتطرف ، وقد جعلنى كل ذلك أنتفع من دراساتى المتنوعة - المتناقضة أحياناً المشوشة لكثير من القراء الذين لا يزالون فى سن المراهقة الفكرية - وأستخرج منها نتائج إيجابية معينة ، و « من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغًا للشاربين » وتزداد بها ثقتى بصلاح الإسلام للقيادة والسيادة فى كل عصر ، وإيمانى بأن محمداً ﷺ هو « خاتم الرسل ، وإمام الكل ، و منير السبل » وكنت أشعر بخطر الموضوع وأهميته ، وبقلة بضاعتى وحداثة سنى ، وقلة أعوانى ، وجدة موضوع الكتاب وطرافته ، ولكن لم أكن فى الحقيقة مخيراً ، بل كنت مسيراً ، كأن هاجساً يهجس فى ضميرى ، ويقول لى : لابد من وضع كتاب فى هذا الموضوع.

كان من أسباب استرعاء هذا الكتاب انتباه كثير من الناس وإثارته لدهشة الكثير منهم ، أن الموضوع كان طريفاً مبتكراً « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» أو ماذا سيربح العالم ويجنيه من الفوائد ، بتقدم المسلمين وتسلمهم لقيادة البشرية ؟

كان الناس قد اعتادوا فى ذلك العصر ، وقبل العصر الذى ألف فيه هذا الكتاب ، أن ينظروا إلى المسلمين من خلال التاريخ العالمى ، أو ينظروا إلى المسلمين كشعب عادى وكأمة من أمم كثيرة ، ولكن تشجع مؤلف هذا الكتاب وتخطى هذه الحدود المرسومة ، وخرج من الإطار التقليدى الذى فرض على المؤلفين والكتاب فى العرب والعجم ، وأراد أن ينظر إلى العالم من خلال المسلمين ، وشتان بين النظرتين نظرة ينظر بها إلى المسلمين من خلال العالم ومن خلال الحوادث التى جرت فى العالم ، ومن خلال التطورات التي حدثت في التاريخ ، المسلمون شعب من الشعوب يخضعون لما يجرى فى العالم فى إطار عالمى واسع ، فكان المنهج الفكرى العام وأسلوب البحث الدائم ، ماذا خسر المسلمون بسبب الحادث الفلانى ؟ ، وبسبب انقراض الحكومة الفلانية ، ماذا خسر المسلمون بسبب نهضة الغرب الحديثة؟ ماذا خسر المسلمون بسبب الثورة الصناعية الكبرى التى حدثت فى الغرب؟

ماذا خسر المسلمون بانقراض الخلافة العثمانية ؟ ماذا خسر المسلمون بفتح الغرب لكثير من قلاع الإسلام والمسلمين ؟ وماذا خسر المسلمون بفقرهم فى الاقتصاد ، وفى السياسة ، وفى القوة الحربية ؟

كان ذلك الطريق المرسوم التقليدى الذى اعتاده الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمنى وشرح صدرى لأن أكتب فى موضوع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ كأن المسلمين هم العامل العالمى المؤثر فى مجارى الأمور فى العالم كله ، ليس فى بقعة جغرافية محدودة ، أو منطقة سياسية خاصة ، هل المسلمون حقاً فى وضع يمكن أن يقال : إن العالم يخسر شيئاً بانحطاطهم ، هل المسلمون على مستوى يجوز أن يقال :إن العالم قد خسر شيئاً بتقهقرهم وبتخلفهم عن مجال القيادة العالمية ، إننى أخاف وأخشى أن كثيراً من الكتاب الإسلاميين الذين كانت لهم مواقف جليلة وكانت لهم سوابق عديدة ، لم يفكروا هذا التفكير ، إن تشويه التاريخ الإسلامى والنظر إليه من زاوية ضيقة ، ومركب النقص الذى أصيب به الجيل الجديد المثقف ، كان يعوق كثيراً من الباحثين عن أن يربطوا قضية المسلمين بقضية العالم وبقضية الإنسانية ، أين المسلمون من القيادة العالمية ؟ المسلمون فقراء ، المسلمون ضعفاء ، المسلمون محكومون من الغرب ، المسلمون خاضعون للثورات الحديثة، فهل يصح أن يربط مصير العالم أو مصير الإنسانية بمصير المسلمين وواقعهم ؟ ، لا! إن كثيراً من الناس لم يكونوا يصدقون فى ذلك الحين أن المسلمين لهم من الأهمية والخطر والتأثير ومن المكانة ، ما يؤهلهم لهذا البحث ، ويسوغ لمؤلف أن يؤلف كتاباً فيبحث عن مدى خسارة العالم الإنسانى والعالم المعاصر بانحطاط المسلمين ، إن الموضوع كان خطيراً ، وكان البحث فيه شبه مجازفة ومغامرة علمية ، ولكن الله سبحانه وتعالى أعان على ذلك .

ألفت هذا الكتاب على تردد وتخوف ، لأننى كنت جديداً فى مجال التأليف خصوصاً فى اللغة العربية [1] فقد كانت صلتى بها صلة دارس يولد بعيداً ويعيش

[1] سبق للمؤلف تأليف سلسلة « قصص النبيين للأطفال » ، (١ — ٢) و « القراءة الرشيدة » (١—٢—٣) و«مختارات من أدب العرب » وكلها كتب دراسية ألفت لأبناء المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية فى المعاهد الدينية فى الهند .

بعيداً عن مركز الثقافة العربيـة وعن مركز العلوم الإسلامية الأصيل ، وكان يساورنى شك ، هل ينال هذا الكتاب تقديراً فى البيئات العربية والإسلامية البعيدة ، فأرسلت قائمة محتوياته إلى الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر فى مصر ، ورئيس الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، وقد نالت كتبه خصوصاً سلسلة « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » ، إعجاب القراء الباحثين، وكان لها دوى فى الأوساط العلمية ، وكنت معجباً بها ، وقد درستها دراسة عميقة ، وعلقت على آرائه بالموافقة فى الغالب ، وبالنقد والاختلاف فى بعض الأمكنة ، وأعجبت بأسلوبه المركز الذى يجرى مع الطبع ، وآثرت أن يصدر هذا الكتاب من هذه المؤسسة العلمية التى كانت لها ولما يصدر منها قيمة علمية كبيرة فى الشرق العربى ، فيقبل على قراءته الشباب المثقف والمعنيون بالأبحاث العلمية والدراسات الموضوعية ، وأنا لا أعلم مصير هذه الأوراق التى تعطى فكرة إجمالية عن الكتاب ، ومؤلفه مجهول ليس له أثر علمى ولا شافع ولا مزك .

وفوجئت بكتاب تلقيته منه يطلب منى فيه نموذجاً من هذا الكتاب ، فأرسلت إليه قطعة من الكتاب .

وقعت موضوعات الكتاب ، والعناوين الجانبية التى كانت تدل على محتويات الكتاب ، وما حوته من مادة وبحوث ، من الدكتور موقعاً حسناً ولكنه تخوف أن يكون هذا الكتاب الذى صدر من قبل عالم دينى نشأ وتثقف بعيداً عن العالم الغربى يغلب عليه الطابع الدينى واللغوى – شأن علماء الأزهر والمعاهد الدينية القديمة – فسأل هل استفاد المؤلف من المراجع الأجنبية ؟ فلما كان الجواب بالإيجاب وأرسل المؤلف ثبت المراجع الإنجليزية ، اطمأن الدكتور وأخبر بأن اللجنة قررت طبع هذا الكتاب ، وأبدى إعجابه بالكتاب سواءً من الناحية الأدبية أو الناحية المعنوية ، وكان اليوم الذى تلقى فيه المؤلف هذه الرسالة من الدكتور ، من أعظم أيام العمر فرحاً وسروراً ، لا ينساه المؤلف حتى هذا اليوم .

ومضت على ذلك شهور وأنا لا أعلم مصير هذا الكتاب ، وقد سافرت فى أثناء هذه المدة إلى الحجاز للمرة الثانية ، وذلك فى سنة ١٢٢٩ هـ (١٩٥٠ م)

وفوجئت بنسخة مطبوعة عند سفير سوريا الأستاذ جواد المرابط عضو المجمع العلمى بدمشق ، كان قد استصحبها من القاهرة ، وكان يبدى إعجابه بعمق فكر علماء الهند وأصالته ، مستشهداً بهذا الكتاب ، الذى وقع إلى يده فى زيارته القريبة لمصر ، وهو لا يعرف أنه يتحدث إلى مؤلفه .

ومن السهل الميسور تقدير فرح المؤلف الشاب المغمور الذى يفاجأ بأثره العلمى التأليفى الأول الصادر من أكبر دور النشر ، فاستعاره من سعادة السفير ليرده إليه بعد مطالعته ، ولكنه فوجىء كذلك بأن المقدمة الصغيرة التى قدم بها الدكتور أحمد أمين هذا الكتاب ، لم تكن فيها تلك القوة التى كان يتوقعها المؤلف من كاتب إسلامى كبير كالدكتور أحمد أمين ، وكان متحفظاً شديد التحفظ فى إبداء انطباعاته عن الكتاب ومؤلفه .

ولم يكن الأمر غريباً – وإن كان ثقيلاً على المؤلف – فليس كل من يقدم كتاباً يتحمس للموضوع الذى كتب فيه ، فلا يكون ذلك إلا إذا كان المقدم يتجاوب مع فكرة المؤلف ويؤمن بها إيمانا عميقاً ، وليس كل باحث علمى وكاتب كبير – وإن كان فى درجة الدكتور أحمد أمين بك – يرى أن العالم قد خسر حقا ، والإنسانية قد نكبت نكبة كبيرة بانحطاط المسلمين ، وانسحابهم عن ميدان القيادة والتوجيه العالمى ، فذلك نمط خاص للتفكير والتفسير للتاريخ ، ليس من اللازم أن يقتنع به كل مؤلف ودارس . وليست التبعة على الدكتور أحمد أمين – وفضله لا ينكر فى نشر هذا الكتاب من لجنة التأليف والترجمة والنشر الموقرة – ولكن التبعة على مؤلف الكتاب الذى أمل فيه الآمال البعيدة ، وحمله ما لم يتهيأ له فكرياً وعلمياً ولم تساعد ظروفه التربوية والدراسية الخاصة على انتهاج هذا المنهج ، ثم لعل الدكتور أحمد أمين الذى كان يعتبر من أساتذة الجيل الجديد ومن كبار المؤلفين والأدباء ، خاف – وله الحق – أن يعطى المؤلف الذى لا يعرفه معرفة شخصية ولم يتحقق مستواه العلمى والنظرة التى ينظر بها إليه مواطنوه وعلماء بلاده ، أكثر مما يستحق ، فيقال إنه كساه ثوباً سابغاً فضفاضاً أكبر من قامته وقيمته ، وسامحه الله وجزاه عن المؤلف والقراء أحسن الجزاء ،فقد كان السبب فى وصول هذا الكتاب إلى الأوساط العلمية المتنورة التى لا تعير كتاباً يصدر عن مؤسسة دينية ، شيئاً من العناية والاهتمام .

واتفقت رحلة المؤلف إلى مصر فى يناير سنة ١٩٥١م بعد ما مضى على صدور هذا الكتاب شهران أو أكثر ،فوجد أن الكتاب قد شق طريقه إلى الأوساط العلمية والدينية وحل منها محلاً لم يكن يتوقعه المؤلف بل يحلم به ، وقد قرئ فى نطاق واسع من المثقفين والمعنيين بقضية الإسلام وانتفاضته ، وصحوة المسلمين ، وكان نشاط « الإخوان المسلمون » قد بدأ يدب ، وخفف الخناق عليهم بعض التخفيف ، وكأن هذا الكتاب قد جاء فى أوانه ومكانه وتناغم مع شعورهم وما يدعو إليه ، وكان الجرح عميقاً ودامياً شهادة الإمام الشهيد وحل حركة الإخوان ، فجاء هذا الكتاب مسلياً معزياً ، بل كسلاح علمي يدافعون به عن فكرتهم ، وشحنة جديدة وزاداً ومدداً « لبطاريتهم » فقرأوه فى المعتقلات ، وقرروه فى منهج الدراسة والمطالعة ، واستشهدوا ببعض عباراته فى المحاكم ، واستقبلوا – بطبيعة الحال – مؤلفه بحماس وحب ، وكان الكتاب خير معرف للمؤلف الزائر الجديد ، وممهداً للثقة به والحديث معه .

وكان الكاتب الإسلامى الكبير الأستاذ سيد قطب فى مقدمة من رحب بهذا الكتاب ، وعني به ، وشجع تلاميذه وإخوانه على مطالعته ، وفى يوم من الأيام [١] تلقى المؤلف دعوة من الأستاذ سيد قطب لحضوره ندوة تجتمع فى منزله بحلوان كل جمعة ، تبحث فى موضوع إسلامى ،أو تستمع إلى تلخيص كتاب بقلم أحد الحاضرين وتتناول البحث فيه ، وكان الموضوع ذلك اليوم كتاب « ماذا خسر العالم» وقد لخصه أحد تلاميذه من خريجي جامعة فؤاد الأول ، فلبى المؤلف هذه الدعوة الكريمة الحبيبة التى هى رمز لتقدير مجهوده العلمى الكتابى المتواضع وتشريف له ، فحضر هذه الندوة وساهم فى البحث ، وأجاب عن بعض الأسئلة الموجهة إليه كمؤلف .

وهناك بدت له فكرة الطلب من الأستاذ سيد قطب ليقدم هذا الكتاب بقلمه المؤمن القوى ، وأسلوبه العلمى الهادف ، وقبل الأستاذ سيد قطب هذه الدعوة بسرور وحماس ، وكتب تلك المقدمة القوية التى زادت فى قيمة الكتاب وقوته [٢]

---

(١) كان ذلك فى ١٩ / ٨ / ١٣٧٠ هـ (٢٥ / من نيسان ١٩٥١م (مذكرات سائح فى الشرق العربى) .

(٢) وإلى القارىء مقتطف صغير من تقديم الأستاذ سيد قطب :

وصادف ذلك طلب الأستاذ الفاضل والعالم المؤمن الدكتور محمد يوسف موسى ، أستاذ كلية أصول الدين فى الأزهر ، ورئيس جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر – الذى كان من كبار المعجبين بهذا الكتاب المنوهين به ، والحافزين على قراءته – إصدار الطبعة الثانية المنقحة من جماعة الأزهر [1] فسمح له المؤلف شاكراً مسروراً ، أخذ الدكتور التصريح والموافقة من الدكتور أحمد أمين ، وكتب مقدمة يتجلى فيها إخلاصه وحبه ، واستجابته للفكرة ، حلى بها جيد الكتاب [2] وفاجأ المؤلف صديقه الدكتور أحمد الشرباصى أحد علماء الأزهر وأساتذته ، فى إحدى زياراته ، فاختلس منه معلومات عن أسرته وبيئته ونشأته ودراسته وحياته ، لا يعلم المؤلف ماذا سيصنع بها ، فكون بها مقالاً عن المؤلف عنونه بـ « أخى أبو الحسن» (صورة وصفية) وضمه إلى الكتاب ولم يعلم به المؤلف إلا حين صدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٥٣م وتلت هذه الطبعة طبعات ، وترجمات فى لغات الشرق والغرب وها هى ذى الطبعة الثالثة عشرة القانونية .

وهذه قصة الكتاب فى إيجاز وصدق وصراحة ولله المن والفضل أولاً وآخراً .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

٢٠ رجب ١٤٠١ هـ

٢٥ مايو ١٩٨١ م

=« إن الخصيصة البارزة فى هذا الكتاب كله هى الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية فى محيطها الشامل ، وهو لهذا لا يعد نموذجا للبحث الدينى والإجتماعى فحسب ، بل نموذجًا كذلك للتاريخ كما ينبغى أن يكتب من الزاوية الإسلامية » .

ويقول :

« من هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتاريخ ، كما يجب أن يتناوله المسلمون مستقلين عن التأثير بالطريقة الأوربية ، التى ينقصها هذا التناسق وهذه العدالة وهذا التحقيق » .

(١) وذلك فى ٣ / من حزيران ١٩٥١ م .

(٢) ومما جاء فى هذه المقدمة قوله :

« وأشهد لقد قرأت الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى فى أقل من يوم ، وأغرمت به غراماً شديداً ، حتى لقد كتبت فى آخر نسختى وقد فرغت منه « إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام».

الباب الأول

العصر الجاهلى

الفصل الأول

الإنسانية في الاحتضار

كان القرن السادس والسابع (لميلاد المسيح) من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف ، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون ، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردى ، فقد زادتها الأيام سرعة فى هبوطها وشدة فى إسفافها ، وكأن الإنسان فى هذا القرن قد نسى خالقه ، فنسى نفسه ومصيره ، وفقد رشده ، وقوة التمييز بين الخير والشر ، والحسن والقبيح ، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن ، والمصابيح التى أوقدوها قد انطفأت من العواصف التى هبت بعدهم أو بقيت ، ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلاً عن البيوت فضلاً عن البلاد ، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات ، فراراً بدينهم من الفتن وضناً بأنفسهم ، أو رغبة إلى الدعة والسكون ، وفراراً من تكاليف الحياة وجدها ، أو فشلاً فى كفاح الدين والسياسة والروح والمادة، ومن بقى منهم فى تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا ، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم ، وأكل أموال الناس بالباطل .. على حساب الضعفاء والمحكومين ، وإن الإنسانية لا تشقى بتحول الحكم والسلطان والرفاهية والنعيم من فرد إلى فرد آخر من جنسه ، أو من جماعة إلى جماعة أخرى مثلها فى الجور والإستبداد وحكم الإنسان للإنسان ، وإن هذا الكون لا يتفجع ولا يتألم فقط بانحطاط أمة أدركها الهرم وسرى فيها الوهن ، وسقوط دولة تآكلت جذورها وتفككت أوصالها ، بل بالعكس تقتضى ذلك سنة الكون ، وإن دموع الإنسان لأعز من أن تفيض كل يوم على ملك راحل وسلطان زائل ، وإنه لفى غنى ، وإنه لفى شغل عن أن يندب من لم يعمل يوماً لإسعاده ، ولم يكدح ساعة لصالحه ، وإن السماء والأرض لتقسوان كثيراً على هذه الحوادث التى تقع ووقعت كل يوم ووقعت ألوف المرات ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون* وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين* فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا**

منظرين﴾(الدخان: ٢٥-٢٩) .

بل إن كثيراً من هؤلاء السلاطين والأمم كانوا كلا على ظهر الأرض ، وويلاً للنوع الإنسانى ، وعذابا للأمم الصغيرة والضعيفة ، ومنبع الفساد والمرض فى جسم المجتمع البشرى يسرى منه السم فى أعصابه وعروقه، ويتعدى المرض إلى الجسم السليم ، فكان لابد من عملية جراحية ، وكان قطع هذا الجزء السقيم وإبعاده من الجسم السليم مظهراً كبيراً لربوبية رب العالمين ورحمته ، يستوجب الحمد والامتنان من جميع أعضاء الأسرة الإنسانية ، بل من جميع أفراد الكون **﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾** ، ولكن لم يكن انحطاط المسلمين وزوال دولتهم وركود ريحهم – وهم حملة رسالة الأنبياء ، وهم للعالم البشرى كالعافية للجسم الإنسانى – انحطاط شعب أو عنصر أو قومية ، فما أهون خطبه وما أخف وقعه ، ولكنه انحطاط رسالة هى للمجتمع البشرى كالروح ، وانهيار دعامة قام عليها نظام الدين والدنيا .

فهل كان انحطاط المسلمين واعتزالهم فى الواقع مما يأسف له الإنسان فى شرق الأرض وغربها ، وبعد قرون مضت على الحادث ؟

وهل خسر العالم حقاً – وهو غنى بالأمم والشعوب – بانحطاط هذه الأمة شيئاً ؟ وفيم كانت خسارته ورزيته ؟

وماذا آل إليه أمر الدنيا ، وماذا صارت إليه الأمم بعدما تولت قيادها الأمم الأوروبية حتى خلفت المسلمين فى النفوذ العالمى ، وأسست دولة واسعة على أنقاض الدولة الإسلامية ؟ وماذا أثر هذا التحول العظيم فى قيادة الأمم وزعامة العالم فى الدين والأخلاق والسياسة والحياة العامة وفى مصير الإنسانية ؟

وكيف يكون الحال لو نهض العالم الإسلامى من كبوته وصحا من غفوته ، وتملك زمام الحياة ؟

ذلك كله ما نحاول الإجابة عنه فى الصفحات الآتية ! ....

أبو الحسن على الحسنى

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

لم يكن انحطاط المسلمين أولاً ، وفشلهم وانعزالهم عن قيادة الأمم بعد ، وانسحابهم من ميدان الحياة والعمل أخيراً ، حادثاً من نوع ما وقع وتكرر فى التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم ، وانقراض الحكومات والدول ، وانكسار الملوك والفاتحين ، وانهزام الغزاة المنتصرين ، وتقلص ظل المدنيات . والجزر السياسى بعد المد فما أكثر ما وقع مثل هذا فى تاريخ كل أمة . وما أكثر أمثاله فى تاريخ الإنسان العام! ولكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له فى التاريخ . مع أن فى التاريخ مثلاً وأمثلة لكل حادث غريب .

لم يكن هذا الحادث يخص العرب وحدهم ، ولا يخص الشعوب والأمم التى دانت بالإسلام ، فضلاً عن الأسر والبيوتات التى خسرت دولتها وبلادها . بل هى مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس منها ولا أعم منها . فلو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة ، ولو عرف مقدار خسارته ورزيته ، وانكشف عنه غطاء العصبية، لاتخذ هذا اليوم النحس – الذى وقعت فيه – يوم عزاء ورثاء ، ونياحة وبكاء . ولتبادلت شعوب العالم وأممه التعازى . ولبست الدنيا ثوب الحداد ، ولكن ذلك لم يتم فى يوم . وإنما وقع تدريجياً فى عقود من السنين . والعالم لم يحسب إلى الآن الحساب الصحيح لهذا الحادث . ولم يقدره قدره وليس عنده المقياس الصحيح لشقائه وحرمانه .

إن العالم لا يخسر شيئاً بانقراض دولة ملكت حيناً من الدهر . وفتحت مجموعاً من البلاد والأقاليم . واستعبدت طوائف من البشر . ونعمت وترفهت .

نظرة فى الأديان والأمم :

أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست فى معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوى ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشرى .

***المسيحية فى القرن السادس المسيحى :**

لم تكن المسيحية فى يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة مسائل الإنسان ، بحيث تقوم عليه حضارة ، أو تسير فى ضوئه دولة ، ولكن كان فيها أثارة من تعليم المسيح ، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط ، فجاء بولس فطمس نورها ، وطعمها بخرافات الجاهلية التى انتقل منها ، والوثنية التى نشأ عليها ، وقضى قسطنطين على البقية الباقية ، حتى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية اضمحلت فى جنبها تعاليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة فى اليم ، وعادت نسيجاً خشبياً من معتقدات وتقاليد لا تغذى الروح ، ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة ، ولا تحل معضلات الحياة ، ولا تنير السبيل ، بل أصبحت بزيادات المحرفين ، وتأويل الجاهلين ، تحول بين الإنسان والعلم والفكر ، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية ، يقول (زيخإ) مترجم القرآن إلى الإنكليزية عن نصارى القرن السادس الميلادى : « وأسرف المسيحيون فى عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا فى ذلك الكاثوليك فى هذا العصر »(١)

*** الحرب الأهلية فى الدول الرومية :**

ثم ثارت حول الديانة وفى صميمها مجادلات كلامية ، وسفسطة من الجدل العقيم شغلت فكر الأمة ، واستهلكت ذكاءها ، وابتلعت قدرتها العملية ،وتحولت فى كثير من الأحيان حروباً دامية ، وقتلاً وتدميراً وتعذيباً ، وإغارة وانتهاباً واغتيالاً ، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية متنافسة وأقحمت البلاد فى حرب أهلية ، وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الدينى ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ، وبين نصارى مصر ، أو بين (الملكانية) و (المنوفيسية) بلفظ أصح فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان المنوفيسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة ، وهى الإلهية التى تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية ،

---

(١) Sale's Translation, P.62 (1896)

كقطرة من الخل تقع فى بحر عميق لا قرار له ، وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين فى القرنين السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى ، كل طائفة تقول للأخرى : إنها ليست على شيء يقول الدكتور ألفرد . ج . بتلر :

« إن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين ، نضال يذكيه اختلاف فى الجنس واختلاف فى الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس ،إذ كانت علة العلل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسية ، وكانت الطائفة الأولى – كما يدل عليها اسمها – حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة ، وهى ازدواج طبيعة المسيح ، على حين أن الطائفة الأخرى وهى حزب القبط المنوفيسيين – أهل مصر – كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها ، وتحاربها حرباً عنيفة فى حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون ، بله يؤمنون بالإنجيل » (١) .

وحاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ – ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس سنة ٦٣٨ جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض فى الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد . وفى صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك وصار المذهب المنوثيلى مذهباً رسمياً للدولة ، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية ، وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المختلفة له متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل ، ولكن القبط نابذوه العداء وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف ، وصمدوا له واستماتوا فى سبيل عقيدتهم القديمة ، وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف ، فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة ، وأما المسألة الأخرى

(١) فتح العرب لمصر ، تعريب محمد فريد أبو حديد ، ص ٣٧ – ٣٨

وهى نفاذ تلك الإرادة بالفعل ، فأرجأ القول فيه ، ومنع الناس أن يخوضوا فى مناظراتها ، وجعل ذلك رسالة رسمية ، وبعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقى ، ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة فى مصر ووقع اضطهاد فظيع على يد قيرس فى مصر استمر عشر سنين ، وقع خلالها ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون إغراقاً ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ، ويوضع السجين فى كيس مملوء من الرمل ويرمى به فى البحر ، إلى غير ذلك من الفظائع .

*** الانحلال الاجتماعى والقلق الاقتصادى :**

بلغ الانحلال الاجتماعى غايته فى الدولة الرومية والشرقية وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات ، وتضاعفت الضرائب . حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات ، ويمقتونها مقتاً شديداً . ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية ، وكانت الإيجارات والمصادرات ضغثاً على إبالة ، وقد حدثت لذلك اضطرابات عظيمة وثورات . وقد هلك عام ٥٣٢ فى الاضطراب ثلاثون ألف شخص فى العاصمة [(١)] ، وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد فى الحياة أسرف الناس فيه، ووصلوا فى التبذل إلى أحط الدركات ، وأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من اى وجه ، ثم إنفاقه فى التظرف والترف وإرضاء الشهوات .

ذابت أسس الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق . حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم فى حرية [(٢)] ، وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع . وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع [(٣)] .

يقول (جيبون) : « وفى آخر القرن السادس وصلت الدولة فى ترديها

---

(١) Encyclopeadia Britanica. See Justin

(٢) The History of Decline and Fall of the Roman Empire by Edward Gippon V . 3 . P.

(٣) Sale's Translation p. 72 " 1896 "

وهبوطها الى آخر نقطة [1] وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم فى حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف . ولم يبق منها إلا الجذع الذى لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً [2] » ويقول مؤلفو (تاريخ العالم والمؤرخين) : « إن المدن العظيمة التى أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً ، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية فى هذا العهد من الانحطاط الهائل الذى كانت نتيجته المغالاة فى المكوس والضرائب والانحطاط فى التجارة ، وإهمال الزراعة ، وتناقص العمران فى البلدان [3] » .

*** مصر فى عصر الدولة الرومية ديانة واقتصاداً :**

أما مصر ذات النيل السعيد ، والخصب المزيد ، فكانت فى القرن السابع من أشقى بلاد الله بالنصرانية ، وبالدولة الرومية معاً ، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومناظرات فى طبيعة المسيح ، وفى فلسفة ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية . وقد ظهرت فى القرن السابع فى شر مظاهرها ، وأنهكت قوى الأمة العقلية وأضعفت قواها العملية ، وأما الأخرى فلم تلق منها إلا اضطهاداً دينياً فظيعاً واستبداداً سياسياً شنيعاً تجرعت فى سبيلهما من المرائر فى عشر سنين ما ذاقته أوربا فى عهد التفتيش الدينى فى عقود من السنين ، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطار الحياة ، وعن كل مهمة شريفة من مهمات الدين والروح ، فلا هى تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومية ، ولا هى تتمتع بالحرية الدينية والعقلية رغم كونها نصرانية .

يقول الدكتور غوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) :

(١، ٢) The History of Decline and Fall of the Roman Empire V . Y.p. 13

(٣) Historian's History of the World V. VII p. 175

« ولقد أكرهت مصر على انتحال النصرانية ، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذى لم ينتشلها منه سوى الفتح العربى ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التى كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة فى ذلك الزمن وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات وكانت مصر التى أكلتها الانقسامات الدينية ، وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم ، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين [1] »

ويقول الدكتور الفرد . ج . بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) :

« فالحق أن أمور الدين فى القرن السابع كانت فى مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة ، فلم تكن أمور الحكم هى التى قامت عليها الأحزاب ، واختلف بعضها عن بعض فيها ، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانات ، ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين يستمد منه الناس ما يعينهم على العمل الصالح ، بل كان الدين فى نظرهم هو الاعتقاد المجرد فى أصول معينة .

« فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات ، وكانوا يخاطرون بحياتهم فى سبيل أمور لا قيمة لها ، وفى سبيل فروق فى أصل الدين وفى فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها ، ويشق إدراكها [2]» .

هذا ، وقد اتخذها الروم شاة حلوباً يريدون أن يستنزفوا مواردها ، ويمتصوا دمها ، يقول ألفرد :

« إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد .. مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة ، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل [3]» .

---

(١) حضارة العرب ، تعريب عادل زعيتر ، الفصل الرابع « العرب فى مصر » صفحة ٣٣٦ .

(٢) فتح العرب لمصر ، ص ٤٧ .

(٣) المصدر السابق .

ويقول مؤلفو (تاريخ العالم للمؤرخين) :

« إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية مجموعاً كبيراً من حاصلها ومنتجاتها ، وكانت طبقات الفلاحة المصرية – مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ – مرغمة على أداء الخراج للدولة الرومية ككراء الأرض فضلا عن الضرائب ، وكانت ثروة مصر فى هذا العهد إلى الانتقاص والانحطاط [1] ».

وهكذا اجتمع لمصر من الاضطهاد الدينى ، والاستبداد السياسى والاستغلال الاقتصادى ما شغلها بنفسها ، وكدر عليها صفو حياتها ، وألهاها عن كل مكرمة .

*** الحبشة :**

أما جارتها الحبشة فكانت على المذهب (المونوفيسى) كذلك ، وكانت مع ذلك تعبد أوثاناً كثيرة استعارت بعضها من الهمجية ، ولم يكن التوحيد إلا ضرباً راقياً من الوثنية خلعت عليها لباساً من علم ومصطلحات نصرانية ، ولم تكن فى الدين بذات روح ، ولا فى الدنيا بذات طموح ، وقد قضى مجمع (نيقية) أن ليس لها استقلال بأمورها الدينية ، وإنما هى تابعة للكرسى الإسكندرى .

*** الأمم الأوروبية الشمالية الغربية :**

أما الأمم الأوربية المتوغلة فى الشمال والغرب فكانت تتسكع فى ظلام الجهل المطبق ، والأمم الفاشية ، والحروب الدامية ، لم ينبثق فيها فجر الحضارة والعلم بعد ، ولم تظهر على مسرحها الأندلس لتؤدى رسالتها فى العلم والمدنية ، ولم تصهرها الحوادث ، وكانت بمعزل عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية بعيدة عنها ، لا تعرف عن العالم ولا يعرف العالم المتمدن عنها إلا قليلاً ، ولم تكن – مما يجرى فى الشرق والغرب مما يغير وجه التاريخ – فى عير ولا نفير ، وكانت بين نصرانية وليدة ، ووثنية شائبة ، ولم تكن بذات رسالة فى الدين ، ولا بذات راية فى السياسة .

---

(١) Historian's History of the World, V. VII p. 173

يقول هـ . ج . ويلز :

« ولم تكن فى أوربا الغربية فى ذلك العهد أمارات الوحدة والنظام [١] »

ويقول (Robert Briffault) :

(لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً . قد كانت همجية ذلك العهد هولاً وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت اشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال ، وقد كانت الأقطار الكبيرة التى ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها فى الماضى ، كإيطاليا وفرنسا ، فريسة الدمار والفوضى والخراب [٢] »

*** اليهود :**

وكانت فى أوربا وآسيا وإفريقيا أمة هى أغنى أمم الأرض مادة فى الدين ، وأقربها فهماً لمصطلحاته ومعانيه ، أولئك هم اليهود ، ولكن لم يكونوا عاملاً من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين يؤثر فى غيرهم ، بل قضى عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم ، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد ، والنفى والجلاء والعذاب والبلاء ، وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء القومية ، والاذلال بالنسب ، والجشع وشهوة المال وتعاطى الربا ، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد فى أمة، وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقب الأعصار والأجيال ، منها الخنوع عند الضعف ، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة ، والختل والنفاق فى عامة الأحوال،

(١) A Short History of the World. H. G. Wels

(٢) The Making of Humanity, Robert Briffault p. 164

والقسـوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله ، وقد وصـفهم القرآن الكريم وصفاً دقيقاً عميقاً يصور ما كانوا عليه فى القرنين السادس والسابع من تدهور خلقى ، وانحطاط نـفسى ، وفـساد اجتمـاعى ، عـزلوا بذلك عن إمامـة الأمم وقيادة العالم .

*** بين اليهود والمسيحيين :**

وقد تجـدد فى أوائل القرن السـابع من الحوادث مـا بغضـهم إلى المسيـحيين ، وبغض المسـيحـيين إليهم وشـوه سمعتـهم ، فـفى السنة الأخيـرة من حكم فوكـاس (٦١٠م) أوقع اليهود بالمسيحين فى أنطاكيـة ، فأرسل الامبراطور قائده « أبنوسوس » ليقـضى على ثورتهم ، فذهب وأنفذ عمله بقـسوة نادرة ، فقتـل الناس جميعـاً ، قتلاً بالسيف ، وشنقاً وإغراقاً وتعذيباً ، ورمياً للوحوش الكاسرة .

وكـان ذلك بين اليـهود والنصـارى مـرة بعد مـرة . قـال المقـريزى فى كتـاب الخطط : « وفى أيام فـوقـا ملك الروم ، بعث كـسرى ملك فـارس جـيوشـه إلى بلاد الشام ومـصر فخـربوا كنائس القدس وفلسطين وعـامة بلاد الشام ، وقـتلوا النصارى بأجمعـهم وأتوا إلى مصر فى طلبـهم ، وقتلوا منهم أمة كبـيرة ، وسبوا منهم سـبياً لا يدخل تحت حـصر وسـاعدهم الـيهـود فى محـاربة النصـارى وتخريب كنائسـهم . وأقبلوا نحو الفـرس من طبرية وجبل الجليل ، وقرية الناصـرية صور ، وبلاد القدس ، فنالوا من الـنصـارى كل منال ، وأعظـمـوا النكاية فيـهم ، وخـربوا لهم كنيـسـتين بالقدس، وأحرقوا أماكنهم ، وأخـذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه (١) ».

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح الفرس لمصر :

« فثـارت اليـهـود فى أثناء ذلك بمدينـة صـور وأرسلوا بقـيـتـهم فى بلادهم وتواعـدوا على الإيقـاع بالنصارى وقـتلهم ، فكانـت بينهم حـرب اجتمـع فيهـا من

(١) كتاب الخطط المقريزية ، ج ٤ ص ٣٩٢ .

اليهود نحو عشرين ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور فقوى النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود هزيمة قبيحة وقتل منهم كثير ، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية ، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ما خربه الفرس ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا له الهدايا الجميلة وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم وحلف لهم ، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خراباً ، فساءه ذلك وتوجع له ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالنصارى وتخريب الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس وقاموا قياماً كبيراً فى قتلهم من آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسنوا له ذلك فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه فى قتلهم ، فإنهم عملوا حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه على مر الزمان والدهور ، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى إلخ » .

وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان ، اليهود والنصارى ، من القسوة والضراوة بالدم الإنسانى وتحين الفرص للنكاية فى العدو ، وعدم مراعاة الحدود فى ذلك ، وبهذه الأخلاق المنحطة والاستهانة بحياة الإنسان لا يمكن لطائفة أو أمة أن تؤدى رسالة الحق والعدل والسلام ، وتسعد البشرية فى ظلها وتحت حكمها .

*** إيران والحركات الهدامة فيها :**

أما فارس التى شاطرت الروم فى حكم العالم المتمدن فكانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذى عرفهم العالم ،كان أساس الأخلاق متزعزعاً مضطرباً منذ عهد عريق فى القدم ، ولم تزل المحرمات النسبية التى تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف ونقاش ، حتى إن يزدجرد الثانى الذى

حكم فى أواسط القرن الخامس الميلادى تزوج بنته ثم قتلها [(١)] ، وأن بهرام جوبين الذى تملك فى القرن السادس كان متزوجاً بأخته [(٢)] .

يقول البروفسور « أرتهر كرستن سين » أستاذ الألسنة الشرقية فى جامعة كوبنهاجن بالدنمارك المتخصص فى تاريخ إيران فى كتابه (إيران فى عهد الساسانيين) :

« إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساسانى مثل (جاتهياس) وغيره يصدقون بوجود عادة زواج الإيرانيين بالمحرمات ، ويوجد فى تاريخ العهد الساسانى أمثلة لهذا الزواج ، فقد تزوج بهرام جوبين وتزوج جشتسب قبل أن يتنصر بالمحرمات (٣) ، ولم يكن يعد هذا الزواج معصية عند الإيرانيين ، بل كان عملاً صالحاً يتقربون به إلى الله ، ولعل الرحالة الصينى (هوئن سوئنج) أشار إلى هذا الزواج بقوله : إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء [(٤)] » .

ظهر « مانى » فى القرن الثالث المسيحى ، وكان ظهوره رد فعل عنيف غير طبعى ضد النزعة الشهوية السائدة فى البلاد ، ونتيجة منافسة النور والظلمة الوهمية فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم ، وأعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب الخلاص منه ، فحرم النكاح استعجالاً للفناء وانتصاراً للنور على الظلمة بقطع النسل ، وقتله بهرام سنة ٢٧٦ م قائلاً إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شىء من مراده ، ولكن تعاليمه لم تمت بموته بل عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامى .

ثم ثارت روح الطبيعة الفارسية على تعاليم مانى المجحفة ، وتقمصت دعوة مزدك الذى ولد ٤٨٧م فأعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم ،فينبغى أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم ، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه

---

(١) Historian's History of the World V.8.P. 84.

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٨ .

(٣) ايران فى عهد الساسانيين . ترجمة الدكتور محمد إقبال من الفرنسية إلى الأردية ص ٤٣٩ .

(٤) « إيران فى عهد الساسانيين » ص ٤٣٠ .

وحراسته كان ذلك عند مزدك أهم ما تجب فيه المساواة والاشتراك .

قال الشهرستاني [1] : « أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ » وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين وصادفت من قلوبهم هوى ، وسعدت كذلك بحماية البلاط فأخذ قباذ يناصرها ونشط في نشرها وتأييدها حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات ، قال الطبري : « افترص السفلة ذلك واغتنموا وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباذ على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك شيئاً مما يتسع به [2] » إلى أن قال : « ولم يزل قباذ من خيار ملوكهم حتى حمله مزدك على ما حمله عليه فانتشرت الأطراف وفسدت الثغور [3] » .

* **تقديس الأكاسرة :**

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجرى في عروقهم دم إلهى ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً فكانوا يكفرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر ، لا يجرى اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد في مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم ،وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق ، وليس للناس قِبلهم إلا السمع والطاعة ، وخصصوا بيتاً معيناً – وهو البيت الكياني

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٨٦ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٨٨ .

(٣) المصدر السابق .

فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج ، وهذا الحق ينتقل فيهم كابراً عن كابر وأباً عن جد لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ولا ينافسهم إلا دعى نذل ، فكانوا يدينون بالملك وبالوراثة فى البيت المالك لا يبغون به بدلاً ولا يريدون عنه محيصاً ، فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً ، وإذا لم يجدوا رجلاً ملكوا عليهم امرأة فقد ملكوا بعد شيرويه ولده أزدشير وهو ابن سبع سنين وملك فرُّخ زاد خسرو ابن كسرى أبرويز وهو طفل و ملكوا بوران بنت كسرى ، وملكت كذلكاإبنة كسرى ثانية يقال لها أزرمى دخت [1] ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائداً كبيراً أو رئيساً من رؤسائهم مثل رستم وجابان وغيرهما لأنهم ليسوا من البيت الملكى .

*** التفاوت بين الطبقات :**

وكذلك اعتقادهم فى البيوتات الروحية والأشراف من قومهم ، فيرونهم فوق العامة فى طينتهم ، وفوق مستوى الناس فى عقولهم ونفوسهم . ويعطونهم سلطة لا حد لها ، ويخضعون لهم خضوعاً كاملاً – يقول البروفسور أرتهرسين مؤلف تاريخ (إيران فى عهد الساسانيين) :

« كان المجتمع الإيرانى مؤسساً على اعتبار النسب والحرف ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة [2] ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشترى أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير [3] ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذى منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه [4] ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة [5] غير الحرفة التى خلقه الله لها [6] ،

---

(١) راجع تاريخ الطبرى ج ٢ ، وتاريخ إيران لمكاريوس .

(٢) « إيران فى عهد الساسانيين » ص ٥٩٠ .

(٣) أيضا ص ٤٢٠ . (٤) أيضا ٤١٨ .

(٥) أيضا ص ٤١٨ . (٦) أيضا ص ٤٢٢ .

وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم [١] ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد فى المجتمع [٢] ».

وكان فى هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية يظهر لك جلياً فى مجالس الأمراء والأشراف ، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ويجلسون مزجر الكلب ، وقد أكبر ذلك رسول المسلمين وأنكره ، ويتبين مما روى الطبرى ما وصل اليه الفرس من الاستكانة والخضوع لسادتهم جرياً على عاداتهم ، قال :

« عن أبى عثمان النهدى قال : لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم فى إجازته ، ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية لتهاونهم ، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم فى زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة ، ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوما أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتمونى . اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول [٣] » .

---

(١) أيضا ص ٤٢٢ .

(٢) إيران فى عهد الساسانيين ص ٤٢١ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ١٠٨ .

*** تمجيد القومية الفارسية :**

ثم يبالغون فى تمجيد القومية الفارسية ويرون أن لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم ، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحداً ، وكانوا ينظرون إلى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان ، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية .

*** عبادة النار وتأثيرها فى الحياة :**

كانوا فى الزمن القديم يعبدون الله ويسجدون له ، ثم جعلوا يمجدون الشمس والقمر والنجوم وأجرام السماء مثل غيرهم من الأوائل ، وجاء زرادشت صاحب الديانة الفارسية فيقال : إنه دعا إلى التوحيد وأبطل الأصنام ، وقال : إن نور الله يسطع فى كل ما يشرق ويلتهب فى الكون ، وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار ساعة الصلاة لأن النور رمز إلى الإله وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهى : النار والهواء والتراب والماء ، وجاء بعده علماء سنوا للزرادشتيين شرائع مختلفة فحرموا عليهم الاشتغال بالأشياء التى تستلزم النار فاقتصروا فى أعمالهم على الفلاحة والتجارة ، ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة فى العبادات تدرج الناس الى عبادتها حتى صاروا يعبدونها عيناً ويبنون لها هياكل ومعابد ، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وجهلت الحقيقة ونسى التاريخ (١) .

ولما كانت النار لا توحى الى عبادها بشريعة ولا ترسل رسولاً ، ولا تتدخل فى شئون حياتهم ، ولا تعاقب العصاة والمجرمين أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها فى أمكنة خاصة فى ساعات خاصة . أما فى خارج المعابد ، وفى دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم ، وفى السياسة والاجتماع ، فكانوا أحراراً يسيرون على هواهم وما تملى عليهم نفوسهم . أو ما يؤدى إليه تفكيرهم ، أو ما توحى به مصالحهم ومنافعهم ، شأن المشركين فى كل عصر ومصر .

---

(١) انظر تاريخ ايران تأليف شاهين مكاريوس ص ٢٢١ – ٢٢٤ .

وهكذا حرمت الأمة الفارسية فى حياتها ديناً عميقاً جامعاً يكون تربية للنفس وتهذيباً للخلق ، وقامعاً للشهوات ، وحافزاً على التقوى وفعل الخيرات ، ويكون نظاماً للأسرة وتدبيراً للمنزل ، وسياسة للدولة ، ودستوراً للأمة ، ويحول بين الناس وطغيان الملوك ، وعسف الحكام ، ويأخذ على يد الظالم ، وينتصف للمظلوم وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين فى الأخلاق والأعمال .

*** الصين : ديانتها ونظمها :**

وكانت تسود الصين فى هذا القرن ثلاث ديانات . ديانة « لاوتسو » وديانة « كونفوشيوس » والبوذية ، أما الأولى ففضلاً عن أنها تحولت وثنية فى عهد قريب فهى تعنى بالنظريات أكثر منها بالعمليات ، وكان أتباعها متقشفين زاهدين ، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة ولا يتصلون بها اتصالاً ، فلم يكن لها أن تكون أساً لحياة سديدة أو حكومة رشيدة ، حتى التجأ الذين جاءوا بعد مؤسسها إلى مخالفته والعدول عنه إلى غيره .

وأما « كونفوشيوس » فقد كان يعنى بالعمليات أكثر من النظريات ، ولكن انحصرت تعاليمه فى شؤون هذه الدنيا وتدبير الأمور المادية والسياسية والإدارية ، وقد كان أتباعه لا يعتقدون - فى بعض الأزمنة - بعبادة إله معين ، فيعبدون ما يشاءون من الأشجار والأنهار ، وليس فيها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوى ، وإنما هو حكمة حكيم وتجارب خبير ، يستفيد بها الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء .

*** البوذية - تطوراتها وانحطاطها :**

أما البوذية فقد فقدت بساطتها وحماستها ، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبنى الهياكل . وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت . وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التى

ظهرت في عهد ازدهار البوذية [١] . يقول الأستاذ « إيشوراتوبا» استاذ تاريخ الحضارة الهندية في إحدى جامعات الهند : « لقد قامت في ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل وتغير محيط الرابطات الأخوية البوذية ، وظهرت فيها البدع [٢] . ولاحظ ذلك أيضاً أحد الكتاب العصريين ، وكبار السياسيين في الهند فقال :

« جعلت البرهمية بوذا مظهراً للآلهة ، وقلدتها في ذلك البوذية نفسها ، وأصبحت الرابطة الأخوية البوذية تملك ثروة هائلة ، وأصبحت مركزاً لمصالح جماعات خاصة ، وفقدت النظام ، وتسرب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام ، وبدأت الديانة تتقهقر وتنحط بعدما سادت في الهند وازدهرت ألف سنة ، وقد ذكرت لخنرضىخطنٌصوننخنلد ما أصيبت به الديانة البوذية في هذا العهد من الوهن والاعتلال فقالت كما نقل عنها « سير رادها كرشنن » في كتابه «الفلسفة الهندية » :

« لقد أظلت الأفكار العليلة تعليم بوذا الخلقي حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة ، لقد نشأ مذهب جديد في الديانة وازدهر ، وملك على الناس القلوب ، ثم اضمحل وخلفه مذهب آخر ، وهلم جرا ، حتى تراكمت هذه الأوهام الخلابة ، وحجبت الجو وساد الظلام ، وقد اضمحلت دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات [٣] » .

لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فيها العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التمييز بينهما ، لقد اندمجت البوذية في البرهمية وذابت فيها [٤]

---

(١) الزائر لمتحف تكسلا في غربي بنجاب « باكستان » يندهش من رؤية كثرة التماثيل البوذية التي استخرجت من حفائر المدن البوذية المطمورة ويعرف أن هذه الديانة والمدنية اصبحتا وثنيتين تماماً .

(٢)الهند القديمة « أردو » للأستاذ ايشور اتوبا

(٣) Jawahar Dal Nehru: The Discovery of India P. 201 202

(٤) أيضاً .

ولم يزل وجود الإله والإيمان به فى البوذية موضع خلاف وشك عند مؤرخى هذه الديانة ومترجمى مؤسسها ، حتى يحار بعضهم ويتساءل : كيف قامت هذه الديانة العظيمة على أساس رقيق من الآداب التى ليس فيها الإيمان بالله [1] . فلم تكن البوذية الا طرقاً لرياضة النفس وقمع الشهوات ، والتحلى بالفضائل ، والنجاة من الألم ، والحصول على العلم .

إذن فلم تكن عند الصينيين رسالة دينية للعالم يحلون بها مشاكله ، وكانوا فى أقصى شرق العالم المتمدن محتفظين بتراثهم الدينى والعلمي ، لا يزيدون فى ثروتهم ولا فى ثروة غيرهم .

*** أمم آسيا الوسطى :**

أما الأمم الأخرى فى آسيا الوسطى وفى الشرق ، كالمغول والترك واليابانيين ، فقد كانت بين بوذية فاسدة ، ووثنية همجية ، لا تملك ثروة علمية ، ولا نظاماً سياسياً راقياً ، إنما كانت فى طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة ومنها شعوب لا تزال فى طور البداوة والطفولة العقلية .

*** الهند : ديانة ،واجتماعاً ، وأخلاقاً :**

أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤلفين فى تاريخها على أن أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً ذلك العهد الذى يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادى ، قد ساهمت الهند جاراتها وشقيقاتها فى التدهور الخلقى والاجتماعى ، الذى شمل الكرة الأرضية فى هذه الحقبة من الزمن ، وأخذت نصيباً غير منقوص من هذا الظلام الذى مد رواقه على المعمورة ، وامتازت عنها فى ظواهر وخلال يمكن أن نلخصها فى ثلاث : (١) كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة . (٢) الشهوة الجنسية الجامحة (٣) التفاوت الطبقى والمجحف والامتياز الاجتماعى الجائر .

(١،٢،٣) اقرأ مقالة « بوذا » فى دائرة المعارف البريطانية .

*** الوثنية المتطرفة :**

قد بلغت الوثنيـة أوجها فى القرن السـادس ، فقد كان عـدد الآلهة فى « ويد » ثلاثة وثلاثين ، وقد أصبحت فى هذا القـرن ٣٣٠ مليون ، وقد أصبح كل شىء رائع وكل شىء جذاب وكل مـرفق من مرافق الحياة إلها يعبـد ، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهـة و الإلاهات الحصر ، وأربت على العد ، فمنها أشـخاص تاريخية ، وأبطال تمثل فيـهم الله - زعموا - فى عـهود وحوادث معـروفة ، ومنها جـبال تجلى عليـها بعض آلهتـهم ، ومنها مـعادن كـالذهب والفضـة تجلى فيـها الإله ، ومنهـا نهر الكنج الذى خـرج من رأس « مـهـاديو » الإله ، ومنهـا آلات الحـرب وآلات الكتـابة وآلات التناسل وحيـوانات أعظمها البـقرة والأجرام الفلكيـة وغير ذلك ، وأصـبحت الديانة نسيـجاً من خرافـات وأساطير وأناشـيد وعقـائد وعبادات مـا أنزل الله بها من سلطان ، ولم يستسغها العقل السليم فى زمن من الأزمان .

وقد ارتـقت صناعة نحت التـماثيل في هذا العـهد ، وبلغـت أوجها فى الـقرن السـادس والسابع ، حـتى فاق هذا العـصر فى ذلك العـصور الماضـية ، وقـد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملـك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام ، حتى لم تجـد الديانة البـوذية والجينيـة منهـا بدًا ، وتذرعت هاتان الديانتـان بهـذه الوسيلة للاحـتفـاظ بحيـاتهمـا وانتشـارهما فى البـلاد ، ويدل على مـا وصلت إليـه الوثنيـة والتماثيل في هذا العصر ما حكاه الرحالـة الصينى الشهير « هوئن سوئنج » الذى قام برحلته بين عـام ٦٣٠ وعام ٦٤٤ عن الاحتفال العظيم الذى أقـامه الملك هرش الذى حكـم الهند من عام ٦٠٦ إلى ٦٤٧ : « وأقام الملك احتـفالاً عظيماً في قنوج اشترك فيـه عدد كـبيـر جداً من علمـاء الديانات السـائدة فى الهند ، وقد نصب الملك تمـثالاً ذهبياً لبـوذا على منارة تعلو خمـسين ذراعاً وقـد خرج بتـمثـال آخر لبـوذا أصغـرمن التمثال الأول في موكـب حافل قام بجنبه الملك « هرش » بمظلة وقام الملك الحليف « كامروب » يذب عنه الذباب [١] .

---

(١) رحلة هوئن سوئنج « فوكوي كي » الدولة الغربية .

ويقول هذا الرحالة عن أسرة الملك ورجال بلاطه : « إن بعضهم كان من عباد « شو » وبعضهم من أتباع الديانة البوذية ، وكان بعضهم يعبد الشمس وبعضهم يعبد « وشنو » وكان لكل واحد أن يخص من الآلهة أحداً بعبادته أو يعبدهم جميعا [1] »

* **الشهوة الجنسية الجامحة :**

وأما الشهوة فقد امتازت بها ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم ، فلعل المواد الجنسية والمهيجات الشهوية لم تدخل فى صميم ديانة بلاد مثل ما دخلت فى صميم الديانة فى البلاد الهندية ، وقد تناقلت الكتب الهندية وتحدثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسين من الآلهة وغارة بعضها على البيوتات الشريفة تستك منها المسامع ويتندى لها الجبين حياء ، وتأثير هذه الحكايات فى عقول المتدينين المخلصين المرددين لهذه الحكايات فى إيمان وحماسة دينية وفعلها فى عواطفهم وأعصابهم واضح ، زد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر «مهاديو » ، وتصويرها فى صورة بشعة ، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات ، زد إليه كذلك ما يحدث به بعض المؤرخين أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدون الرجال العراة[2] وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزءون الراهبات والزائرات فى أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته ، وينال فيها الفاجر بغيته ، وإذا كان هذا شأن البيوت التى رفعت للعبادة والدين فما ظن القارئ ببلاط الملوك وقصور الأغنياء ؟! فقد تنافس فيها رجالها فى إتيان كل منكر وركوب كل فاحشة ، وكان فيها مجالس مختلطة من سادة وسيدات ، فاذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء والشرف وطرحوا الحشمة فتوارى الأدب وتبرقع الحياء ... هكذا أخذت البلاد موجة طاغية من الشهوات الجنسية والخلاعة ، وأسفّت أخلاق الجنسين إسفافاً كبيراً .

(١) أيضاً . (٢) ستيارته بركاش لدينالد سرسرتى الهندكى ص ٣٤٤ .

*** نظام الطبقات الجائر :**

أمـا نظام الطبقـات فلم يعـرف فى تاريخ أمة من الأمم نـظام طبقى أشـد قسـوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذى اعترفت به الهند دينيًا ومـدنيًا ، وخـضـعت له آلافـاً من السنـين ولا تزال ، وقـد بدت طلائع التفـاوت الطبقى فى آخـر العهد الويدى بتـأثير الحرف والصنائع وتـوارثها ، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتـها ، وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيـها مرسوم جديد للمجتمع الهندى ، وألف فيه قـانون مدنى وسياسى اتفق عليـه البلاد وأصبح قانوناً رسـمياً ومرجـعاً دينياً فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر » .

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات ممتازة وهى (١) البراهمة ، طبقة الكهنة ورجال الدين (٢) شترى رجال الحرب (٣) ويش رجال الزراعـة والتجارة (٤) شودر رجال الخدمة ، ويقول « منو » مؤلف هذا القانون :

« إن القـادر المطلق قد خـلق لمصلحة العـالم البـراهمة مـن فمـه ، وشتـرى من سواعـده ، وويش من أفخـاذه ، والشودر من أرجلـه ، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم . فعلى البراهمة تعليـم ويد أو تقديم النذور للآلهة وتعاطى الصدقات ، وعلى الشترى حراسة الناس والتـصدق وتقديم النذور ودراسة « ويد » والعزوف عن الشهوات ، وعلى ويش رعى السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة ويد والتجارة والزراعة وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث [١] » .

*** امتيازات طبقة البراهمة :**

وقدمنح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة فقد قال: إن البراهمة هم صفوة الله وهـم ملوك الخلق ، وأن ما فى العالم هو ملك لهم ،فإنهم

(١) منوشاستر : الباب الأول .

فضل الخلائق وسادة الأرض [١] ولهم أن يأخذوا من مـال عبيـدهم شودر– من غير جريرة – ما شاؤوا ، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده [٢] .

وإن البرهمي الذي يحفظ زك ويد « الكتاب المقدس » هو رجل مغفور له ولو أباد العوالـم الثلاثة بذنوبه وأعـماله [٣] ، ولا يجـوز للملك حـتى فى أشـد سـاعـات الاضطرار والفاقة أن يجبى من البراهمة جباية أو يأخذ منهم إتاوة ، ولا يصح لبرهمى فى بلاده أن يموت جوعاً [٤] وإن استحق برهمى القـتل لم يجز للحاكم إلا إن يحلق رأسه ، أما غيره فيقتل [٥] .

أما الشـترى فإن كانوا فـوق الطبقتين « ويش وشودر » ولكنهم دون البـراهمة بكثيـر فيـقول « منو » : إن البـرهمى الذى هو فى العاشـرة من عمـره يفوق الشـترى الذى ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده [٦] .

*** المنبوذون الأشقياء :**

أما شـودر « المنبوذون» فكانوا فى المجتمع الهندى – بنص هذا القـانون المدنى الدينى – أحط من البهائم وأذل من الكلاب ، فيصرح القانون بأن « من سعادة شودر أن يقومـوا بخدمة البـراهمة وليس لهم أجر وثواب بغـير ذلك [٧] . وليـس لهـم أن يقتنوا مالاً أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يؤذى البراهمة [٨] ، وإذا مد أحد من المنبوذين

---

(١) أيضاً . (٢) الباب الثامن .
(٣) الباب التاسع . (٤) الباب التاسع .
(٥) الباب الثانى . (٦) منوشاستر الباب الحادى عشر .
(٧) أيضاً . (٨) الباب العاشر .

إلى برهمى يداً أو عصاً ليبطش به قطعت يده ، وإذا رفسه فى غضب فدعت رجله[١] ، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً فعلى الملك أن يكوى إسته وينفيه من البلاد [٢] ، وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه ، وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتاً فائراً [٣] ، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء [٤] » .

*** مركز المرأة فى المجتمع الهندى :**

وقد نزلت النساء فى هذا المجتمع منزلة الإماء (٥)، وكان الرجل قد يخسر امرأته فى القمار ، وكان فى بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج [٦] فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج ، وتكون هدف الإهانات والتجريح ، وكانت أمة بيت زوجها المتوفى وخادم الأحماء ، وقد تحرق نفسها على إثر زوجها تفادياً من عذاب وشقاء الدنيا ، وهكذا صارت هذه البلاد المخصبة أرضاً وعقولاً ، وهذه الأمة – التى وصفها بعض مؤرخى العرب بكونها معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة وأهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة [٧] لبعد عهدها عن الدين الصحيح وضياع مصادره وتحريف رجال الدين وإمعان الناس فى القياس والتخمين واتباع هوى النفوس ونزعات الشهوات .. أصبحت هذه البلاد مسرحاً للجهل الفاضح والوثنية الوضيعة والقسوة الهمجية والجور الاجتماعى الذى ليس له مثيل فى الأمم ولا نظير فى التاريخ.

*** العرب : خصائصهم ومواهبهم :**

أما العرب فقد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه فى العصر الجاهلى بأخلاق

(١) أيضا . (٢) الباب الثامن .
(٣) منوشاستر . (٤) R.C.Dutt 342-343
(٥) اقرأ استهلال قصة مها بهارات (الملحمة الهندية الكبرى) .
(٦) R.C. Dutt 331 (٧) صاعد الأندلسى م ٤٦٢ ، طبقات الأمم ص ١١ .

ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقِدْح المعلَّى ، كالفصاحة وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة فى سبيل العقيدة والصراحة فى القول وجودة الحفظ وقوة الذاكرة وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة .

ولكن ابتلوا فى العصر الأخير – لبعد عهدهم من النبوة والأنبياء وانحصارهم فى شبه جزيرتهم وشدة تمسكهم بدين الآباء وتقاليد أمتهم بانحطاط دينى شديد ووثنية سخيفة قلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة ، وأدواء خلقية واجتماعية جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق فاسدة المجتمع متضعضعة الكيان حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية وبعيدة عن محاسن الأديان .

*** وثنية الجاهلية :**

كان الشرك هو دين العرب العام والعقيدة السائدة ، كانوا يعتقدون فى الله أنه إله أعظم ،خالق الأكوان ومدبر السماوات والأرض ، بيده ملكوت كل شيء فلئن سئلوا : من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾(1) ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلى تسع توحيد الأنبياء فى خلوصه وصفائه وسموه ، وما كانت أذهانهم البعيدة العهد بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية تسيغ أن دعاء أحد من البشر يتطرق إلى السموات العلى ويحظى عند الله بالقبول مباشرة بغير واسطة وشفاعة ، قياساً على هذا العالم القاصر وعاداته وأوضاع الملوكية الفاسدة ، ومجارى الأمور فيها ، فبحثوا لهم عن وسطاء توسلوا بهم إلى الله وأشركوهم فى الدعاء ، وقاموا نحوهم ببعض العبادات ورسخت فى أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحولت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر ، ثم ترقوا فى الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة ، واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة فى تدبير الكون ، وقدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والإعطاء والمنع ، فإذا كان الأولون يعترفون لله بالألوهية والربوبية الكبرى، ويكتفون بالشفعاء والأولياء كان الآخرون يشركون آلهتهم مع الله ويعتقدون فيهم قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضر والإيجاد والإفناء مع معنى غير واضح عن الله كإله أعظم ورب الأرباب (2)

---

(1) الزخرف :87 .

(2) راجع كتاب « بيئة النبى ﷺ من القرآن » – للأستاذ محمد عزت دروزة .

*** أصنام العرب فى الجاهلية :**

ولم يزل هذا الفريق الثانى يقوى أمره ويستفحل مع إمعان القوم فى الجاهلية وقرب هذه النزعة الوثنية إلى الحواس والمحسوسات ، واتفاقه مع ضعف التفكير حتى أصبحت هذه العقيدة السائدة ، وأصبح الذين يميزون بين الآلهة والوسطاء شواذ فى الأمة ، ومن رجال الطبقة المثقفة ، وهكذا انغمست الأمة فى الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل كان لكل بيت صنم خصوصى : قال الكلبى : كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا [١] . واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم ، وأمام غيره ، مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب [٢] ، وكان فى جوف الكعبة – البيت الذى بنى لعبادة الله وحده – وفى فنائها ثلاثمئة وستون صنماً [٣] ، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة .

روى البخارى عن أبى رجاء العطاردى قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ،فإذا لم نجد حجراً ، جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به [٤] .

وقال الكلبى : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً ، وجعل ثلاث أثافى لقدره ، وإذا ارتحل تركه [٥] .

(١) كتاب الأصنام ص ٣٣ .
(٢) كتاب الأصنام ص ٣٣ .
(٣) الجامع الصحيح للبخارى كتاب المغازى باب فتح مكة (٤٢٨٧) .
(٤) الجامع الصحيح للبخارى كتاب المغازى باب وفد بنى حنيفة (٤٣٧٦) .
(٥) كتاب الأصنام .

*** الآلهة عند العرب :**

وكان للعرب – شأن كل أمة مشركة في كل زمان ومكان – آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب ، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ،و يتوسلون بهم عند الله . واتخذوا كذلك من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم [١] .

قال الكلبي : كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن [٢] .

وقال صاعد : كانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر وتميم الدبران ، ولخم وجذام المشترى ، وطيىء سهيلاً ، وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطاردا [٣] .

*** اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب :**

وانتشرت اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب .و لم تستفد منها العرب كثيراً من المعانى الدينية ، و كانتا نسختين من اليهودية فى الشام ، والنصرانية فى بلاد الروم والشام قد طرأ عليها من التحريف والزيغ والوهن ما شرحناه من قبل .

*** الرسالة والايمان بالبعث :**

أما الرسالة فقد تصور العرب للنبى صورة خيالية ، وتمثلوه فى ذات قدسية ، لا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يلد ولا يمشى فى الأسواق . وكانت عقولهم الضيقة لا تهضم أن هنالك بعثًا بعد الموت ، وحياة بعد هذه الحياة ، فيها الحساب ، والثواب والعقاب ، وقالوا : ﴿ **ما هي إلا حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلا الدهر**﴾[٤] وقالوا : ﴿ **أئذا كنّا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً** ﴾ [٥].

---

(١) كتاب الأصنام ص ٤٤ .

(٢) أيضا ص ٣٤ .

(٣) طبقات الأمم لصاعد ص ٤٣٠ .

(٤) من آية ٢٤ الجاثية.

(٥) من آية ٤٩ من الإسراء .

قال صاعد : كان جمهورهم ينكر ذلك « الميعاد » لا يصدق بالمعاد ولا يقول بالجزاء ، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبيد ، وإن كان مخلوقاً مبتدعاً ، وكان فيهم من يقر بالمعاد ، ويعتقد إن نحرت ناقته على قبره يحشر راكباً ومن لم يفعل ذلك يحشر ماشياً [1] .

*** الأدواء الخلقية والاجتماعية :**

أما من جهة الأخلاق ، فكانت فيهم أدواء وأمراض متأصلة ، وأسبابها فاشية ، فكان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم ، تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء ، وشغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم ، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب [2] وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً ،يرفرف عليها علم يسمى غاية.

قال لبيد [3] :

قد بت سامرها وغاية تاجر

وافيت إذ رفعت وعز مدامها

وكان من شيوع تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفاً لبيع الخمر ، كما قال لبيد : وغاية تاجر ، وقال عمرو بن قميئة [4] :

إذا سحب الريط والمروط إلى

أدنى تجاري وأنقض اللمما

وكان القمار من مفاخر الحياة الجاهلية ، قال الجاهلي [5] :

---

(١) أيضا ص ٤٤ .

(٢) اقرأ كتاب المخصص لابن سيده ج ١١ ص ٨٢ - ١٠١

(٣) السبع المعلقات ، معلقة لبيد .

(٤) ديوان الحماسة .

(٥) ديوان الحماسة .

أعيرتنا ألبانها ولحومها
وذلك عار يابن ريطة ظاهر
نحابي بها أكفاءنا ونهينا
ونشرب في أثمانها ونقامر

وكان عدم المشاركة في مجالس القمار عاراً ، يقول الشاعر [(1)] :

وإذا هلكت فلا تريدي عاجزاً
غساً ولا برماً ولا معزالا

قال قتادة : كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزيناً سليباً ينظر الى ماله في يد غيره ، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً [(2)] .

وكان أهل الحجاز ، العرب واليهود ، يتعاطون الربا وكان فاشياً فيهم ، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة ، قال الطبري : كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السنين ، يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : تقضيني أو تزيدني ؟ فإن كان عنده شيء يقضيه قضى وإلا حوله إلى السن التي فوق ذلك إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ، ثم حقة ثم جذعة ثم رباعياً هكذا إلى فوق . وفي العين يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل وإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً فتكون مائة فيجعلها إلى القابل مائتين ، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه [(3)]

وقد رسخ الربا فيهم وجرى منهم مجرى الأمور الطبيعية التي صاروا لا يفرقون بينه وبين التجارة الطبيعية وقالوا إنما البيع مثل الربا ، وقال الطبري إن الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية كان إذا حل مال أحدهم على غريمه يقول الغريم

---

(1) ديوان الحماسة .

(2) تفسير الطبري : تفسير آية « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » الآية .

(3) تفسير الطبري « ج ٤ ص ٥٩ » .

لغريم الحق : « زدنى فـى الأجل وأزيدك فى مالك » فكان يقال لـهما إذا فعلا ذلك : هذا ربا لا يحل ، فإذا قيل لهما ذلك قالا : سواء علينا زدنا فى أول البيع أو عند محل المال [١] .

ولم يكن الزنى نادراً وكان غير مستنكر استنكاراً شـديداً ، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات ويتخذ النسـاء أخلاء بدون عقد ، وكانوا قد يكرهون بعض النسـاء على الزنى ، قال ابن عـباس : كـانوا فى الجاهـلية يكرهون إمـاءهم على الزنى يأخذون أجورهن [٢] .

قالت عـائشة : « إن النكاح فى الجـاهلية كـان على أربعة أنحاء ، فنـكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخـطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنتـه فيصـدقها ثم ينكحـها ، والنكاح الآخـر كان الرجل يقـول لامرأته إذا طهـرت من طمثـها : أرسلى إلـى فلان فاستـبضعى منه ، ويعتزلها زوجـها ولا يمسها أبداً حتى يتـبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصـابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضـاع ، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيـدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضـعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عـرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فـهو ابنك يا فلان ، تسـمى من أحـبت باسـمـه فيلحق به ولدها ولا يسـتطـيع ان يمتنع مما جـاءها ، وهن البغـايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علمـًا ، فـمن أرادهن دخل عليـهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطه ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك [٣] .

---

(١) تفسير الطبرى ، ص ٦٩ .

(٢) تفسير الطبرى ج ١٨ ص ٤٠١ .

(٣) الجامع الصحيح للبخارى كتاب النكاح باب من قال : لا نكاح إلا بولى (٥١٢٧) .

* **المرأة فى المجتمع الجاهلى :**

وكانت المرأة فى المجتمع الجاهلى عرضة غبن وحيف، وتؤكل حقوقها وتبتز أموالها وتحرم إرثها وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه وتورث كما يورث المتاع أو الدابة ، عن ابن عباس قال : « كان الرجل إذا مات أبوه أو حميه فهو أحق بامرأته ، إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدى بصداقها أو تموت فيذهب بمالها ! » وقال عطاء بن أبى رباح : إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل فترك امرأة حبسها أهله على الصبى يكون فيهم ، وقال السدى : إن الرجل فى الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها ، وإن سبقته فذهبتإلى أهلها فهى أحق بنفسها (1) وكانت المرأة فى الجاهلية يطفف معها الكيل ، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هى بحقوقها ، يؤخذ مما تؤتى من مهر وتمسك ضراراً للاعتداء (2) ، وتلاقى من بعلها نشوزاً أو إعراضاً وتترك فى بعض الأحيان كالمعلقة (3) ، ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث ، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد (4) .

وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد ، ذكر الهيثم بن عدى – على ما حكاه عنه الميدانى – أن الوأد كان مستعملاً فى قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام ، وكانت مذاهب العرب مختلفة فى وأد الأولاد فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن ،

---

(1) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٣٠٨ .
(2) سورة البقرة آية ٢٣١ .
(3) النساء آية ١٣٩ .
(4) الأنعام ١٤٠ .

ومنهم من كــان يئـد من البنات من كـانت زرقـاء أو شـيمـاء (سـوداء) أو برشـاء (برصاء) أو كسـحاء (عرجاء) تشـاؤماً منهم بهذه الصفات ، ومنهـم من كان يقتل أولاده خشـية الإنفـاق وخوف الفـقر ، وهـم الفـقراء من بعض قـبائل العـرب فكان االعرب يشـتريهم بعض سراة العرب وأشـرافهم [١] . قال صـعصعـة بن ناجيـة : جاء الإسلام وقد فديت ثلاثمئة موءودة [٢] ومنهم من كـان ينذر – إذا بلغ بنوه عشـرة – نحـر واحداً مـنهم كمـا فـعل عـبدالمطلب ، ومـنهم من يقـول : الملائكة بنات الله – سبحانه عما يقولون – فألحقوا البنات به تعالى ، فهو عزوجل أحق بهن [٣] .

وكانوا يقـتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة فى بـعض الأحيان ، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفر الوالد وشغله فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل ، وقد حكوا فى ذلك عن أنفسهم مبكيات ، وقد كان بعضهم يلقى الأنثى من شاهق [٤] .

*** العصبية القبلية والدموية فى العرب :**

وكانت العصبيـة القبلية والدموية شديدة جامحة ، وكان أسـاسها جاهلياً تمثله الجملة المأثـورة عن العرب : « انصر أخـاك ظالماً أو مظلوماً » فكانوا يتـناصرون ظالمين أو مظلومين .

وكانت فى المجتمع العربى طـبقات وبيـوت ترى لنفسهـا فضلاً على غـيرها ، وامتيـازاً ، فتترفع على الناس ولا تشـاركهم فى عادات كثيـرة حتى فى بعض مناسك الحج ، فـلا تقف بعـرفـات وتتقـدم على الـناس فى الإفاضـة والإجـازة (٥) ، وتنسـأ الأشهـر الحرم ، وكـان النفوذ والمنـاصب العليا والنسىء مـتوارثًا ، يتـوارثه الأبناء عن الآباء ، وكانت طبقات مـسخرة، وطبقات سوقة وعـوام ، فكان التفاوت الطبقى من مسلمات المجتمع العربى .

---

(١) اقرأ بلوغ الأرب فى أحوال العرب للآلوسى .

(٢) كتاب الأغانى . (٣) بلوغ الأرب .

(٤) أيضاً . (٥) سورة البقرة آية ١٩٩ .

وكان الحرب والغزو مما طبعت عليه طبيعتهم العربية ، وألهمتهم إياه معيشتهم البدوية ، حتى صارت الحرب مسلاة لهم وملهى فقال قائلهم [1] :

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر ، فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابنى وائل ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة ، وما ذاك إلا لأن كليباً – رئيس معد – رمى ضرع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلط دمها بلبنها وقتل جساس بن مرة كليباً ، واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب ، وكان كما قال المهلهل أخو كليب : « قد فنى الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد ،دموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن [2] » .

كذلك حرب داحس والغبراء فما كان سببها إلا أن داحساً فرس قيس بن زهير كان سابقاً فى رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر فعارضه أسدى بإيعاز من حذيفة فلطم وجهه وشغله ، ففاتته الخيل ، وتلا ذلك قتل ثم أخذ بالثأر ونصر القبائل لأبنائها ، وأسر ونزح للقبائل ، وقتل فى ذلك ألوف من الناس [3] .

وكانت الحياة كلها شبكة محبوكة من ترات وثارات فشت حبائلها فى القبائل وأوصى بها الآباء الأبناء ، وحملت العيشة البدوية وقلة أسباب الحياة ، والطمع والجشع ، والأحقاد والاستهانة بحياة الإنسان على الفتك والسلب والنهب ، حتى كانت أرض الجزيرة كفة حابل لا يدرى الإنسان متى يغتال وأين ينهب . وكان الناس يتخطفون من بين عشيرتهم فى القوافل ، حتى احتاجت الدول القوية إلى الخفارة الساهرة ، والبذرقة القوية [4] ، فكانت عير كسرى تبذرق من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة ، والنعمان يبذرقها بخفراء من بنى ربيعة حتى

---

(١) ديوان الحماسة .

(٢ ، ٣) انظر أيام العرب .

(٤) البذرقة : الخفارة والحراسة .

تدفع إلى هوذة بن على الحنفى باليمامة فيبذرقها حتى تخرج من أرض بنى حنيفة ، ثم تدفع إلى تميم وتجعل لهم جعالة فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن وتسلم إلى عمال كسرى باليمن (١) .

*** ظهر الفساد فى البر والبحر :**

وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء .

*** لمعات فى الظلام :**

وكان النور الضعيف الذى يتراءى فى هذا الظلام المطبق من بعض الأديرة والكنائس أشبه بالحباحب الذى يضىء فى ليلة شديدة الظلام فلا يخترق الظلام ، ولا ينير السبيل ، وكان الذى يخرج فى ارتياد العلم الصحيح ، وانتجاع الدين الحق يهيم على وجهه فى البلاد ، ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، حتى يأوى إلى رجال شواذ فى الأمم والبلاد ، فيلجأ إليهم كما يلجأ الغريق إلى ألواح سفينة مكسرة ، هشمها الطوفان ، يدل على ندرتهم خبر سلمان الفارسى أكبر الرواد الدينيين فى القرن السادس الذى شرق وغرب فى الفحص عنهم ، ولم يزل يتنقل من الشام إلى الموصل ، ومن الموصل إلى نصيبين ، ومن نصيبين إلى عمورية ، ويوصى به بعضهم إلى بعض ، حتى أتى على آخرهم فلم يجد لهم خامساً ، وأدركه الإسلام فى هذا الظلام ، قال سلمان :

« لما قدمت الشام ، قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف فى الكنيسة ! قال فجئته ، فقلت : إنى قد رغبت فى هذا الدين ، وأحببت أن أكون

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٣٣ .

معك أخدمك في كنيستك ، وأتعلم منك و أصلي معك ، قال : فادخل ، فدخلت معه ، قال فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه منها أشياء كتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ، قال: وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً ، قالوا : وما علمك بذلك ؟ قال قلت : أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا عليه ، قال : فأريتهم موضعه ، قال : فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً ، قال : فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه ابداً ، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ، ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه ، قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه ، قال : فأحببته حباً لم أحبه من قبل وأقمت معه زماناً ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له يا فلان : إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه من قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله ، فإلى من توصي بي ، وما تأمرني ؟ قال : يا بني والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان ، فهو على ما كنت عليه فالحق به ، قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره ، قال : فقال لي : أقم عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من الله عزوجل ما ترى ، فالي من توصي بي وما تأمرني ؟ قال : يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به ، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي ، قال : فأقم عندي فأقمت عنده فوجدته على امر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي الي فلان ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلي من توصي بي وما تأمرني ؟ قال : أي بني

والله ما نعلم أحداً بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه بمثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته ، قال : فإنه على أمرنا ، قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبرى ، فقال : أقم عندى ، فأقمت مع رجل على هدى أصحابه وأمرهم ، قال : واكتسبت كان لى بقرات وغنيمة ، قال : ثم نزل به أمر الله فلما حُضر قلت له : يا فلان ، إنى كنت مع فلان ، فأوصى بى فلان إلى فلان ، وأوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى وما تأمرنى ؟ قال : أى بنى ، والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظلك زمان نبى هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل » إلخ [1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس عن سلمان ورواه الحاكم فى مستدركه ، والرواية لاتصال سندها وعدالة رواتها من أصح الوثائق التاريخية عن الجاهلية وحالتها الدينية .

الفصل الثانى
النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي

* **الملكية المطلقة :**

كان العصر الجاهلى مسرحاً للحكم الجائر المستبد ، فقد كانت السياسة فى هذا العصر ملكية مطلقة ، قد تقوم على تقديس البيوتات الخاصة ، كما كان فى فارس ، فقد كان آل ساسان يعتقدون أن حقهم فى الملك مستمد من الله ، وقد عملوا كل ما فى استطاعتهم للتأثير فى رعاياهم حتى أذعنوا لهذا الحق الملكى المقدس وصارت لهم عقيدة يدينون بها ، وقد تقوم على تقديس الملوك مطلقاً ، فكان الصينيون يسمون ملكهم الإمبراطور ابن السماء ، ويعتقدون أن السماء ذكر ، والأرض أنثى ، وقد ولد الكائنات ، وكان الإمبراطور ختا الأول هو بكر هذين الزوجين [1] ، وكان الإمبراطور يعتبر كالأب الوحيد للأمة ، له أن يفعل ما يشاء ، وكانوا يقولون له : « أنت أبو الأمة وأمها » . ولما مات الإمبراطور « لى يان » أو «تاى تسونغ » لبست الصين ثوب الحداد ، وحزنت الأمة حزناً شديداً ، فمنها من أثخن وجهه بالإبر ، ومن قطع شعره ، ومن ضرب أذنيه بجانب النعش ، وقد تقوم على تقديس بعض الشعوب والأوطان كما كان فى المملكة الرومية ، فكان المبدأ هو تقديس الوطن الرومى ، والشعب الرومى و لم تكن الأمم والبلاد إلا خادمة لمصلحتها وعروقاً يجرى منها الدم إلى مركزها ، فكانت الدولة تستهين فى ذلك بكل حق ومبدأ ، وتدوس كل شرف وكرامة ، وتستحل كل ظلم وشنيعة ، ولا يمنع بلاداً من هذا الحيف والظلم اشتراك فى دين وعقيدة ولا إخلاص ووفاء للمملكة ، ولا يعترف لها فى زمن من الأزمان بحق حكمها نفسها بنفسها والتمتع بحقوقها فى أرضها إنما هى ناقة ركوب فى بعض الأحيان ، حلوب فى بعضها، لا يقدم لها العلف إلا ما يقيم صلبها ويدر ضرعها .

---

(١) تاريخ الصين لجميز كاركرن .

يقول (Robert Briffault) عن الدولة الرومية :

« لم يكن سبب انقراض الدولة الرومية وسقوطها الأساسي الفساد الزائد (كالرشوة وغيرها) بل كان الفساد والشر وعدم المطابقة بالواقع مما صحب نشوء هذه الدولة من أول يومها وتغلغل فى أحشائها . إن كل مؤسسة بشرية تقوم على أساس زائف منها ولا تستطيع أن تنقذ نفسها بذكاء أو نشاط ،ولما كان الفساد مما قامت عليه هذه الدولة فكان لابد أن تبيد يوماً وتنهار ، لقد رأينا أن الدولة الرومية إنما كانت وسيلة لرفاهية طبقة صغيرة على حساب الجماهير الذين كانت هذه الطبقة تستغلهم وتمتص دماءهم ، لقد كانت التجارة تسير فى رومة بأمانة وعدل وقد كان ذلك مما طبعت عليه هذه الدولة ، وقد كانت فائقة فى قوة الحكم والقضاء ، وفى الكفاءة ، ولكن هذه المحاسن كلها لم تكن لتحفظ الدولة من عواقب الزيف الأساسي والخطأ (١) .

*** الحكم الرومانى فى مصر والشام :**

يقول الدكتور الفرد . ج . بتلر عن الحكم الرومانى فى مصر :

«إن حكومة مصر(الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد ، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم فى الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم ، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم (٢) ».

ويقول مؤرخ عربى شامى عن الحكم الروماني في الشام :

« كانت معاملة الرومانى للشاميين بادئ بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم فى داخليتها من المشاغب والمتاعب . ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس

---

(١) The Making of Humanity, by Robert Briffault p 159.

(٢) فتح العرب لمصر للدكتور الفرد . ج . بتلر ، تعريب محمد فريد أبو حديد .

ما كانت عليـه من الرق والعبودية ، ولم تضف رومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانهـا وطنيين رومـانيين ، ولا أرضـهم أرضاً رومـانيـة ، بل ظلوا غـرباء ورعـايا ، وكثيراً مـا كانوا يبيعون أبناءهم ليـوفوا مـا عليهم من الأمـوال ، وقد كثـرت المظالم والسخرات والرقيق ، وبهذه الأيدى عمر الرومـان ما عمروا من المعاهد والمصانع فى الشام (١) » .

« حكم الرومـان الشـام سبعـمـائة سنة بدأ مـعهم فـى البلاد النزاع والـشقـاق والاستـبـداد والأنانيـة وقتل الأنفس ، وحكـم اليـونان الشـام ٣٦٩ سنة سـادت فى عهـدهم الحروب الطاحنـة والمظالم وظهرت المطامع اليـونانية بأعظم مظاهـرها وكان حكمهم من أشد الويلات وأشأم النكبات على الأمة الشامية (٢) » .

وبالاختصار كانت الولايات الرومية والفارسية غير مرتاحة فى حكم الأجانب وكانت الأحوال السياسية والاقتصادية مضطربة حتى فى مراكز الدولة وعواصمها .

*** نظام الجباية والخراج فى إيران :**

ولم يكن النظام المالى والسياسة المالية فى إيران عادلـة مستقرة بل كانت جائرة مضطربـة فى كثيـر من الأحوال ، تابعـة لأخلاق الجـباة العاملين وأهـوائهم والأحوال السياسية والحربية .

يقول مؤلف « إيران فى عهد الساسانيين » :

« كان الجـباة لا يتحرزون مـن الخيانة واغتـصاب الأموال فى تقـدير الضرائب وجباية الأموال ، ولما كـانت الضرائب تختلف كل سنة وتزيد وتنقص لم يكن دخل الدولة وخرجـها مقـدرين مضبوطين ، وقد كـانت الحرب تنشب فى بعض الأحـيان وليـست عند الدولة أمـوال تنفقـها عـلى الحرب ، فكان يلجئـها ذلك إلى ضـرائب

(١) خطط الشام للأستاذ كرد على ج ١ ص١٠١ .
(٢) أيضا ج ١ ص ١٠٣ .

جديدة ، وكانت المقاطعات الغربية الغنية – وخاصة بابل – هدف هذه الضرائب دائماً [1] » .

*** كنوز الملوك ومدخراتهم :**

ولم يكن ما ينفق على أهل البلاد فى إيران من مالية الدولة شيئاً كثيراً ، وقد اعتاد ملوك إيران من القديم أن يكتنزوا النقود ويدخروا الطرف والأشياء الغالية [2] ، ولما نقل خسرو الثانى فى المدائن أمواله إلى بناية أحدثها سنة ٦٠٧ – ٦٠٨ م وكان ما نقله ٤٦٠ مليون وثمانية ملايين مثقال ذهب وذلك ما يساوى ٣٧٠ مليون وخمسة ملايين فرنك ذهبى ، وفى العام الثالث عشر من جلوسه على العرش كان فى خزانته ٨٠٠ مليون مثقال ذهب [3] .

*** الفصل الشاسع بين طبقات المجتمع :**

كان الغنى لأفراد معدودين والفقر لمعظم الأهلين ، يقول مؤلف « إيران فى عهد الساسانيين » عن أخصب عهد من عهود إيران وعن أعدل ملك من ملوكها وهو كسرى أنوشروان :

« إن ما قام به كسرى من إصلاح النظام المالى كان فى مصلحة مالية المملكة أكبر منه فى مصلحة الرعية ، فلم تزل العامة يعيشون فى الجهل والضنك كما كانوا فى السابق ، وما شاهد الفلاسفة البيزنطيون من فوارق نسبية بين طبقات المجتمع والفصل الشاسع بينها والبؤس الذى كان يعيش فيه رجال الطبقات المنحطة أقلق خاطرهم وانتقدوا المجتمع الفارسى بقولهم : إن الأقوياء فيه يقهرون الضعفاء ويعاملونهم بظلم وبقسوة شديدة [4] » .

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ص ١٦١ .

(٢) إيران فى عهد الساسانيين ص ١٦٢ .

(٣) إيران فى عهد الساسانيين ص ٦١١ .

(٤) إيران فى عهد الساسانيين ص ٥٩٠ .

وكانت المناصب وقفاً على بعض البيوتات والسلائل ذات الثروة والجاه والنفوذ عند الحكام .

ويقول (Robert Briffault) عن النظام الطبقى فى الدولة الرومية :

« مما جرت العادة أنه إذا أصيبت مؤسسة اجتماعية بالزوال والانحطاط لا يرى القائمون عليها حيلة إلا أن يمنعوها من الحركة والتطور ، لذلك كان المجتمع الرومى (فى عهد الانحطاط) خاضعاً لنظام طبقى جائر يرزح تحته ، وما كان لأحد فى هذا المجتمع أن يغير حرفته ، وكان لابد للابن أن يتخذ حرفة أبيه [١] » .

* **الفلاحون فى إيران :**

أثقلت الضرائب المتنوعة المتجددة كاهل الجمهور حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية لأمة لا يحبونها أو لغرض لا يتحمسون له ، وفشت فى الناس البطالة والجنايات وطرق غير مشروعة للكسب .

يقول مؤلف « إيران فى عهد الساسانيين » :

« كان الفلاحون في شقاء وبؤس عظيم وكانوا مرتبطين بأراضيهم ، وكانوا يُستخدمون مجاناً ويكلفون كل عمل ، يقول المؤرخ « إميان مارسيلينوس » إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم ، ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجرة [٢] وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضى كعلاقة العبيد بالسادة [٣] » .

---

(١) The Making of Humanity p 160

(٢) أيضاً ص ٤٢٤ .

(٣) أيضاً ص ٤٢٤ .

*** الاضطهاد والاستبداد :**

واضطهد اليهود فى الشام والعراق واليعقوبيون فى مصر اضطهاداً كبيراً واستبد الحكام استبداداً شديداً وعاثوا فى البلاد والدماء والأموال والأعراض ، وتصام أهل الحل والعقد عن شكواهم حتى صار الناس يعدون هذه الأوضاع الفاسدة ضربة لازم وقضاء محتوماً ، وصاروا فى بعض الأيام يفضلون الموت على الحياة .

*** المدنية المصطنعة والحياة المترفة :**

استحوذت على الناس فى الدولتين – الفارسية والرومية – حياة الترف والبذخ وطغى عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة المزورة، وغرقوا فيه إلى أذقانهم . فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين فى غفلتهم لا هم لهم إلا اللذة والتهام الحياة ، وبذخوا بذخاً عظيماً تخطى القياس ، ودققوا فى مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشى الحياة تدقيقاً عظيماً جداً ، فكان لكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة وخمسون ألف جواد وشيء لا يحصي من أدوات الترف والقصور الباذخة ومظاهر الثروة والنعمة ، وقصره مثال فى الأبهة والغنى (١) ، يقول مكاريوس :

« لم يرو فى التاريخ أن مليكاً بذخ وتنعم مثل الأكاسرة الذين كانت تأتيهم الهدايا والجرايات من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى (٢) ولما خرجوا من العراق فى الفتح الإسلامى تركوا فى الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان ما لا يدرى ما قيمته » .

وقد وجد العرب قباباً تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص ، قال العرب : فما حسبناها إلا طعاماً فإذا هى آنية الذهب والفضة (٣) » .

---

(١) تاريخ إيران لشاهين مكاريوس طبع ١٨٩٨ ص ٩٠ .

(٢) ايضا ص ٢١١ .

(٣) تاريخ الطبرى .

ووصف المؤرخون العرب بهار كسرى الذى أصابه المسلمون يوم المدائن فقالوا :

« هو ستون ذراعاً فى ستين ذراعا ، بساط واحد مقدار جريب ، أرضه بذهب ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء الذهب فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار ، وخلال ذلك كالدير وفى حافاته كالأرض المزروعة ، والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب ، ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك ، وكانوا يعدونه للشتاء ، إذا ذهبت الرياحين ، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم فى رياض [1] » ، وهذا يدل على ما وصل إليه البذخ والترفه فى المدنية الفارسية .

كذلك كان الشام فى الدولة الرومية وحواضرها ، وكانت الدولتان والمدنيتان الفارسية والرمية .. كفرسى رهان فى البذخ والترفه فى دقائق المدنية ، وقد بذخ الأباطرة ونوابهم وأمراؤهم فى الشام بذخاً عظيماً وحوى بلاطهم وقصورهم ومجالس شربهم ولهوهم من آلات الترف وأسباب الرفاهية شيئاً كثيراً ، وبلغت من الترف والأناقة شأوا بعيداً ، وقد وصف حسان بن ثابت الشاعر المخضرم مجلس جبلة ابن الأيهم الغسانى فقال : لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن إليه إياس بين قبيصة وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب وأتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن صائفاً بطن بالثلج، وأتى هو وأصحابه بكسى صيفية يتفضل هو وأصحابه بها فى الصيف ، وفى الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه [2] .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٧٨ .

(٢) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ج ١٤ ، ص ٢ .

وكان الأمراء والأقيال والأغنياء ورجال البيوتات الشريفة وأفراد الطبقة الوسطى على آثار الملوك يحاولون أن يقلدوهم فى لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم وكانوا يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم ، وارتفع مستوى الحياة ارتفاعاً عظيماً ،وتعقدت المدنية تعقداً عظيماً ، وصار الواحد ينفق على نفسه وعلى جزء من لباسه ما يشبع قرية أو يكسو قبيلة ، وكان لابد منه لكل شريف أو وجيه ، حتى إذا أخل به وأغفله أشير إليه بالبنان وتفادته العيون ، حتى صار ذلك واجباً من واجبات الحياة وشريعة من شرائع المجتمع التى لا يحل العدول عنها . عن الشعبى قال: كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائرهم ، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف ، وكان هرمز ممن تم شرفه فكانت قيمتها مائة ألف وكانت مفصصة بالجوهر (١) ، وتمام شرف أحدهم أن يكون من بيوتات السبعة ومن الأزاديه،كان مرزبان الحيرة أزمان كسرى ، وكان قد بلغ نصف الشرف ، وكانت قيمة قلنسوته خمسين ألفا (٢) وبيع ما على رستم بسبعين ألفاً وكانت قيمة قلنسوته مائة ألف (٣) .

درج الناس على هذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة ورضعوا بلبانها ونشأوا عليها حتى أصبحت لهم الطبيعة الثانية ، وعز عليهم الفصال وشق عليهم أن يتنازلوا إلى الحياة الطبيعية البسيطة حتى فى ساعة عصيبة وفى فاقة واضطرار ، ذكروا ان يزدجرد آخر ملوك فارس لما فر من المدائن أخذ معه ألف طاه وألف مغن وألف قيم للنمور وألف قيم للبزاة وآخرين وكان يستقل هذا العدد (٤) ، واستسقى الهرمزان ملك الأهواز أمام عمر فأتى به فى قدح غليظ ، فقال : لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا . فأتى به فى إناء يرضاه (٥) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٦ .
(٢) أيضاً ص ١١ . (٣) أيضاً ص ١٣٤ .
(٤) « إيران فى عهد الساسانيين » لأرتهر كرستن : ص ٦٨١ .
(٥) تايخ الطبرى ج ٤ ص ١٦١ .

*** الزيادة الباهظة فى الضرائب :**

كانت نتيجة هذا البذخ والترف الطبيعية الزيادة الباهظة في الضرائب وسن القوانين الجديدة لابتزاز الأموال من طبقات الفلاحين والصناع والتجار وأهل الحرف حتى وصلت إلى حد الإرهاق وأثقلت كاهل الأهلين وأنقضت ظهرهم .

يقول مؤلف « إيران فى عهد الساسانيين » :

وقد جرت عادة ملوك إيران بقبول الهدايا والتقديمات من الرعية وكانوا يسمون ذلك « آيين » وكان ذلك علاوة على الضرائب الرسمية ، وكانوا يأخذون من الناس الهدايا جبراً يوم نوروز والمهرجان وكانت مناجم الذهب فى أرمينيا ملكاً للملك ولنفقاته الخاصة (١) » .

ويقول المؤرخ العربى الشامى :

« كان يقضى على الشعب الشامى أن يؤدى الجزية وعشر غلاته وأتاوة من المال ورسماً على كل رأس ، وللشعب الرومانى موارد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزرع الحنطة والمراعى يؤجرونها من شركات المتعهدين يسمونهم العشارين ، يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج ، وفى كل ولاية عدة شركات من العشارين ، ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرون فى مظهر السادة ، ويتناولون أكثر مما يجب لهم أخذه ، ويسلبون نعمة الأهلين ، وكثيراً ما يبيعونهم كما يباع الرقيق (٢) » .

« أوجز أحدهم السياسة الإمبراطورية فى الرومان بقوله :

« الراعى الصالح يجز صوف غنمه ولا ينتفه » فمضى القرنان وأباطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيراً من الأموال ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجى (٣) » .

---

(١) « إيران في عهد الساسانيين » لأرتهر كرستن : ص ١٦١ .

(٢) خطط الشام للأستاذ كرد على ج ٥ ص ٤٧ .

(٣) خطط الشام للاستاذ كرد على ج ٥ ص ٤٧ .

*** شقاء الجمهور :**

وهكذا أصبح أهل البلاد فى كلتا المملكتين طبقتين متميزتين تمام التمييز : طبقة الملوك والأمراء ورجال البلاط الملكى وأسرهم وعشائرهم والمتصلون بهم والأغنياء ، فكانوا يعيشون بين الأزهار والرياحين ويتقلبون فى أعطاف النعيم ، وينعلون أفراسهم عسجداً ، ويكسون بيوتهم حريراً وسندساً .

وطبقة الفلاحين والصناع والتجار الصغار وأهل الحرف والأشغال ، كانوا فى جهد من العيش : يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب والإتاوات ويرسفون فى القيود والأغلال ويعيشون عيشة البهائم ، لا حظ لهم فى الحياة إلا العمل لغيرهم والشقاء لنعيمهم ولا هم لهم إلا الأكل والعلف ، فإذا سئموا هذا العيش المر تعللوا بالمسكرات والملهيات ، واذا تنفسوا من هذا العناء رتعوا فى المحرمات ، ورغم هذا الجهد فى المعيشة يجهدون أنفسهم فى تقليد رجال الطبقة العليا فى كثير من أساليب حياتهم ، فكان ذلك أشد من الجهد فى سبيل الكفاف من الرزق والبلغة من العيش ، فتنغص حياتهم ، ويتكدر صفوهم ويشتغل بالهم .

*** بين غنى مطغ وفقر منس :**

وهكذا ضاعت رسالة الأنبياء ، والأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية فى العالم المتمدن المعمور بين غنى مطغ وفقر منس ، وأصبح الغنى فى شغل عن الدين والاهتمام بالآخرة والتفكير فى الموت وما بعده بنعيمه وترفه ، وأصبح الفلاح أو العامل فى شغل عن الدين كذلك لهمومه وأحزانه وتكاليف حياته ،وأصبحت الحياة ومطالبها هم الغنى والفقير وشغلهما الشغل ، وكانت رحى الحياة تدور حول الناس فى قوة لا يرفعون فيها إلى الدين والآخرة رأساً ، ولا يتفرغون لما يتصل بالروح والقلب والمعانى السامية ساعة .

*** تصوير الجاهلية :**

وقد صور أحد كبار علماء الإسلام [(١)] هذه الحال فأجاد التصوير ، قال :

---

(١) وهو شيخ الاسلام ولى الله بن عبدالرحيم الدهلوى (م ١١٧٦ هـ) .

« اعلم أن العجم والروم لما تورثوا الخلافة قروناً كثيرة وخاضوا فى لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان ، وتعمقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها ، فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن [١] وحمام وبساتين ، ولا يكون له دواب فارهة وغلمان حسان ، ولا يكون له توسع فى المطاعم وتجمل فى الملابس ، وذكر ذلك يطول ، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ، فدخل كل ذلك فى أصول معاشهم ، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع ، وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدنية وآفة عظيمة ، ولم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم ، إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه ، وأعجزته فى نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرحاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة ، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم ، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر تستعمل في النضح والدياس والحصاد ، ولا تقتنى إلا ليستعان بها فى الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء ، حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه [٢] » .

---

(١) فسقية .

(٢) حجة الله البالغة « باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم » .

الباب الثاني

من الجاهلية إلى الإسلام

الفصل الأول

منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير

*** العالم الذي واجهه محمد ﷺ :**

بعث محمد بن عبدالله ﷺ والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزاً عنيفاً ، فإذا كل شيء فيه في غير محله ، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر ، ومنه ما التوى وانعطف ، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكاناً آخر ، ومنه ما تكدس وتكوم .

نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته ، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر ، وكل مالا يملك لنفسه النفع والضرر .

رأى إنساناً معكوساً قد فسدت عقليته ، فلم تعد تسيغ البديهيات ، وتعقل الجليات ، وفسد نظام فكره ، فإذا النظرى عنده بديهي وبالعكس ، يستريب في موضع الجزم ، ويؤمن في موضع الشك ، وفسد ذوقه فصار يستحلى المر ويستطيب الخبيث ، ويستمرئ الوخيم ، وبطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم ، ولا يحب الصديق الناصح .

رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم ، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله ، قد أصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً ، وأصبح المجرم فيه سعيداً حظيا ، والصالح محروماً شقياً ولا أنكر في هذا المجتمع من المعروف ولا أعرف من المنكر . ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية ، وتسوقها إلى هوة الهلاك .

رأى معاقرة الخمر إلى حد الإدمان ، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار ، وتعاطى الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال ، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع والنهامة . ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد .

رأى ملوكاً اتخذوا بلاد الله دولاً ، وعباد الله خولاً . ورأى أحباراً ورهباناً أصبحوا أرباباً من دون الله ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة، لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح فعادت وبالاً على أصحابها وعلى الإنسانية ، فقد تحولت الشجاعة فتكاً وهمجية ، والجود تبذيراً وإسرافاً ، والأنفة حمية جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعة ، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات ، والإبداع فى إرضاء الشهوات .

رأى أفراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق ، ينتفع بها فى هيكل الحضارة ، وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة .

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راع ، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، والسلطان كسيف فى يد سكران يجرح به نفسه ، ويجرح به أولاده وإخوانه .

*** نواحى الحياة الفاسدة :**

إن كل ناحية من نواحى هذه الحياة الفاسدة تسترعى اهتمام المصلح وتشغل باله ، فلو كان رجل من عامة رجال الإصلاح لتوفر على إصلاح ناحية من نواحيها ، وظل طول عمره يعالج عيباً من عيوب المجتمع ويعانيه ، ولكن نفسية الإنسان معقدة التركيب دقيقة النسج كثيرة المنافذ والأبواب . ،خفية التخلص والتنصل ، وإنها إذا زاغت أو اعوجت لا يؤثر فيها إصلاح عيب من عيوبها وتغيير عادة من عاداتها ، حتى يغير اتجاهها من الشر إلى الخير ومن الفساد إلى الصلاح ، وتقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التى قد تنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الحشائش الشيطانية فى أرض كريمة ، وتحسم مادة الشر ويغرس فيها حب الخير والفضيلة ومخافة الله عزوجل .

وكل داء من أدواء المجتمع الإنسانى، وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب اصلاحه حياة كاملة ، ويستغرق عمر إنسان بطوله ، وقد يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولا يزول ، فإذا ذهب أحد يطارد الخمر فى بلاد قد نشأت على حياة الترف والبذخ ودانت باللهو واللذة ، أعياه أمرها وحبطت جهوده ، لأن شرب الخمر ليس إلا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى فى السم ، وتبتغى النشوة حتى فى الإثم، فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب وبيان مضاره الطبية

ومفاسده الخلقية ، وبسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة [1] لا تهجره إلا بتغيير نفس عميق ، وإذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير تسللت إلى غيره من أنواع الجريمة أو استباحته بتغيير الأسماء والصور .

*** لم يكن الرسول رجلاً إقليمياً أو زعيماً وطنياً :**

وكان مجال العمل في بلاد العرب فسيحاً إذا كان الرسول ﷺ رجلاً إقليمياً وسار في قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين ، كان له أن يعقد للأمة العربية لواء تنضم إليه قريش والقبائل العربية ، ويكوّن إمارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها ، ولا شك أن أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهما كانوا في مقدمة من ينضم إلى هذا اللواء القومي ، ويقاتلون تحته ويقلدونه الزعامة ، أما كانوا يشهدون بصدقه وأمانته ؟ أما حكموه في أكبر حادث من حوادث حياتهم المكية ومنحوه أكبر شرف ، إذ حكموه في وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت ؟ أما قالوا له على لسان عتبة ، وهم ما عرفوا الإغراء السياسي : « إن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأساً ما بقيت [2] » ، وإذا صار له ذلك كان يمكنه أن يرمي الدولة الفارسية بفرسان العرب وشجعانهم ، وينتصر للعروبة المهضومة ، وينتصر من العجم الظالمين ، ويغرز علم الفتح العربي والمجد القومي على هضاب الروم وفارس ، وإذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز إحدى الإمبراطوريتين في ذلك الحين ، فكان يمكنه أن يغير على اليمن أو الحبشة أو جارة أخرى ويضمها إلى الإمارة العربية الوليدة .

وكانت في الحياة العربية نواح اجتماعية واقتصادية كثيرة تحتاج إلى حنكة

---

(١) منعت حكومة أمريكا الخمر ، وطاردتها في بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار ، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ ملايين صفحة ، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه ، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس ، وسجن ٥٣٢٣٣٥ نفس ، وبلغت الغرامات إلى ١٦ مليون جنيه ، وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه ، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراما بالخمر وعناداً في تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣م إلى سحب القانون وإباحة الخمر في مملكتها إباحة مطلقة «من كتاب تنقيحات للأستاذ أبي الأعلى المودودي» .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ص ٤٣ ج ٣ .

سياسي وكفاية إدارى وعزيمة عصامى وابتكار عبقرى ، فلو قيض لها رجل من هؤلاء الرجال لكان للعرب شأن كبير وتاريخ جديد .

*** لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل :**

ولكن محمداً ﷺ لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل ويبدل عدواناً بعدوان ، ويحرم شيئاً فى مكان ويحله فى مكان آخر ، ويبدل أثرة أمة بأثرة أمة أخرى ، لم يبعث زعيماً وطنياً أو قائداً سياسياً ، يجر النار إلى قرصه ويصغى الإناء إلى شقه ويخرج الناس من حكم الفرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان . وإنما أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، إنما أرسل ليخرج عباد الله جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ووطن دون وطن ، ولكن كان خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنسانى ، وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق من يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم ، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافى واستقلالها السياسى خير مركز لرسالته ، وكانت الأمة العربية بخصائصها ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته .

*** قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها :**

ولم يكن ﷺ من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها ، أو يتسللون إليها من نوافذها ، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب ، فمنهم من يوفق لإزالة بعضها مؤقتا فى بعض نواحى البلاد ، ومنهم من يموت ولم ينجح فى مهمته [1] .

---

(١) إن غاندى الزعيم الهندى الكبير هدف من أول حياته السياسية والروحية إلى مبدأين عظيمين حصر فيهما زعامته السياسية وشخصيته الروحية القوية النادرتين فى هذا العصر جعلهما شعاراً لمبدئه : الأول : « لا عنف ولا مقاومة » وقد دعا إلى هذا المبدأ كديانة وفلسفة ، وظل سنين طوالا يدعو إليه بخطبه ومقالاته وصحفه ، واستنفد فى ذلك جهوده ولما لم يكن ذلك عن طريق التغيير النفسى وعن طريق الدعوة الدينية الأساسية لم تؤثر دعوته فى نفسية أمته تأثيراً عميقا ، وقد جعلت هذه الأمة دعوته هباء منثوراً فى الاضطرابات الطائفية =

أتى النبى ﷺ بيت الدعوة والإصلاح من بابه ، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك القفل المعقد الذى أعيا فتحه جميع المصلحين فى عهد الفترة ، وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه ، ودعا الناس إلى الإيمان بالله وحده ، ورفض الأوثان والعبادات والكفر بالطاغوت بكل معانى الكلمة، وقام فى القوم ينادى: « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ! » ودعاهم إلى الإيمان برسالته ، والإيمان بالآخرة .

★ ★ ★

= العظيمة التى وقعت فى بنجاب الشرقية ودلهى عاصمة الهند فى سبتمبر سنة ١٩٤٧م التى قتل فيها من المسلمين أكثر من نصف مليون ، وكانت مجزرة هائلة وقع فيها من القسوة والهمجية والاعتداء على الأطفال والنساء والأعراض ما لا يكاد يصدقه المؤرخون ، حتى انتهت باغتيال هذا الرجل العظيم الذى بلغت به أمته حد التقديس والتأليه .

والمبدأ الثانى : نسخ اللمس المنبوذ ولم ينجح فى مهمته هذه كذلك نجاحاً يعتد به ، فكان ذلك برهاناً ساطعاً على أن طريق الأنبياء هو الطبيعى الصحيح فى الإصلاح والتغيير .

الفصل الثانى
رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام

*** دفاع الجاهلية عن نفسها :**

ما أخطأ المجتمع الجاهلى فهم هذه الدعوة ومراميها ، وما غُم على أهله أمرها ، وأدركوا عندما قرع أسماعهم صوت النبى ﷺ أن دعوته إلى الإيمان بالله وحده سهم مسدد إلى كبد الجاهلية ونعى لها ، فقامت قيامة الجاهلية ودافعت عن تراثها دفاعها الأخير ، وقاتلت فى سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت ، وأجلبت على الداعى ﷺ بخيلها ورجلها ، وجاءت بحدها وحديدها : ﴿ **وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشىء يُراد** ﴾ ووجد كل ركنٍ من أركان هذه الحياة ومن أثافى الجاهلية نفسه مهدداً وحياته منذرة ، وهنا وقع ما تحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب ، وكان ذلك آية توفيق النبى ﷺ لأنه أصاب الغرض ، وضرب على الوتر الحساس ، وأصاب الجاهلية فى صميمها وفى مقتلها ، وثبت النبى ﷺ على دعوته ثبوتاً دونه ثبوت الراسيات ، لا يثنيه أذى ، ولا يلويه كيد ، ولا يلتفت إلى إغراء ، ويقول لعمه : « يا عم لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه [1] » .

*** فى سبيل الدين الجديد :**

مكث رسول الله ﷺ ثلاث عشرة حجة يدعو إلى الله وحده والإيمان برسالته واليوم الآخر فى كل صراحة ، لا يكنى ولا يلوح ولا يلين ، ولا يستكين ولا يحابى ولا يداهن ، ويرى فى ذلك دواء لكل داء ، وقامت قريش وصاحوا به من كل جانب ، ورموه عن قوس واحدة ، وأضرموا البلاد عليه ناراً ليحولوا بينه وبين أبنائهم وإخوانهم فأصبح الإيمان به والانحياز إليه جد الجد ، لا يتقدم إليه إلا جاد مخلص

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٣ .

هانت عليه نفسه ، وعزم على أن يقتحم لأجله النيران ،وتمشى إليه ولو على حسك السعدان ، فتقدم فتية من قريش لا يستخفهم طيش الشباب ، ولا يستهويهم مطمع من مطامع الدنيا ، إنما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة ، سمعوا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فضاقت عليهم الحياة الجاهلية بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وقلقت بهم مضاجعهم ، فكأنهم على الحسك ، ورأوا أنهم لا يسعهم إلا الإيمان بالله ورسوله فآمنوا وتقدموا إلى النبى ﷺ ، وهو فى بلدهم وبين سمعهم وبصرهم ، فكانت رحلة طويلة شاقة لما أقامت قريش بينه وبين قومه من عقبات ، ووضعوا أيديهم فى يديه ، وأسلموا أنفسهم وأرواحهم إليه ، وهم من حياتهم على خطر ، ومن البلاء والمحنة على يقين ، سمعوا القرآن يقول : ﴿ **آلم أحسبَ النَّاس أن يُترَكوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يُفتَنون ؟ ولقد فتنَّا الذين من قبلهم فليعلمنَّ اللّهُ الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين** ﴾ (١) وسمعوا قوله تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب** ﴾ (٢) فما كان من قريش إلا ما توقعوه ، قد نثرت كنانتها ، وأطلقت عليهم كل سهم من سهامها ، فما زادهم كل هذا إلا ثقة وتجلداً ، وقالوا : ﴿ **هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً** ﴾ (٣) ولم يزدهم هذا البلاء والاضطهاد فى الدين إلا متانة فى عقيدتهم وحمية لدينهم ومقتاً للكفر وأهله ، وإشعالاً لعاطفتهم وتمحيصاً لنفوسهم فأصبحوا كالتبر المسبوك واللجين الصافى ، وخرجوا من كل محنة وبلاء خروج السيف بعد الجلاء .

*** التربية الدينية :**

هذا والرسول ﷺ يغذى أرواحهم بالقرآن ويربى نفوسهم بالإيمان، ويخضعهم أمام رب العالمين خمس مرات فى اليوم عن طهارة بدن، وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل ، فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق وتحرراً من سلطان الماديات ومقاومة للشهوات ونزوعاً إلى رب الأرض والسموات ، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس ، لقد رضعوا حب الحرب وكأنهم ولدوا مع السيف ، وهم من أمة ، من أيامها حرب

---

(١) العنكبوت : ١-٣　　(٢) البقرة : ٢١٤.　　(٣) الأحزاب : ٢٢.

بسوس وداحس والغبراء وما يوم الفجار ببعيد ، ولكن الرسول يقهر طبيعتهم الحربية ويكبح نخوتهم العربية ويقول لهم: ﴿كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة﴾[1] فانقهروا لأمره وكفوا أيديهم ، وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس فى غير جبن وفى غير عجز ، ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم فى مكة عن نفسه بالسيف مع كثرة الدواعى الطبيعية إلى ذلك وقوتها ، وذلك غاية ما روى فى التاريخ من الطاعة والخضوع ، حتى إذا تعدت قريش في الطغيان وبلغ السيل الزبى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة : وهاجروا إلى يثرب وقد سبقهم إليها الإسلام .

*** فى مدينة الرسول ﷺ :**

والتقى أهل مكة بأهل يثرب ، لا يجمع بينهم إلا الدين الجديد . فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ ، وكان الأوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار حرب بعاث . ولا تزال سيوفهم تقطر دماً . فألف الإسلام بين قلوبهم . ولو أنفق أحد ما فى الأرض جميعاً ما ألف بين قلوبهم . ثم آخى رسول الله ﷺ بينهم وبين المهاجرين . فكانت أخوة تزرى بأخوة الأشقاء . وتبذ كل ما روى فى التاريخ من خلة الأخلاء .

كانت هذه الجماعة الوليدة – المؤلفة من أهل مكة المهاجرين وأهل يثرب الأنصار – نواة للأمة الإسلامية الكبيرة التى أخرجت للناس ومادة للإسلام ، فكان ظهور هذه الجماعة فى هذه الساعة العصيبة وقاية للعالم من الانحلال الذى كان يهدده ، وعصمة للإنسانية من الفتن والأخطار التى أحدقت بها . لذلك قال الله تعالى لما حض على الأخوة والألفة بين المهاجرين والأنصار : ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير﴾ [2].

*** انحلت العقدة الكبرى :**

ولم يزل الرسول ﷺ يربيهم تربية دقيقة عميقة ، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكى جمرة قلوبهم ، ولم تزل مجالس الرسول ﷺ تزيدهم رسوخاً فى الدين وعزوفاً عن الشهوات ، وتفانياً فى سبيل المرضاة ، وحنيناً إلى الجنة ، وحرصاً على العلم وفقهاً فى الدين ومحاسبة للنفس ، يطيعون الرسول فى المنشط والمكره ، وينفرون فى سبيل الله خفافاً وثقالاً . قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعاً وعشرين مرة فى عشر سنين . وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة . فهان عليهم

(١) النساء : ٧٧. (٢) الأنفال :٧٣ .

التخلى عن الدنيا وهانت عليهم رزيئة أولادهم ونسائهم فى نفوسهم .ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعودوه . وبكل ما يشق على النفس إتيانه فى المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها . وانحلت العقدة الكبرى – عقدة الشرك والكفر – فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهى . وانتصر الإسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى – فكان النصر حليفه في كل معركة ، وقد دخلوا فى السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون فى أنفسهم حرجاً مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم ، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد – نزل تحريم الخمر والكئوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة ، وكسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة .

حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم . وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا فى الدنيا رجال الآخرة وفى اليوم رجال الغد . لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة . ولا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً . وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم . قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين . وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وداعية إلى دين الله . واستخلفهم الرسول ﷺ فى عمله ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته .

*** أغرب انقلاب وقع فى تاريخ البشر :**

لقد كان هذا الانقلاب الذى أحدثه ﷺ فى نفوس المسلمين وبواسطتهم فى المجتمع الإنسانى أغرب ما فى تاريخ البشر ، وقد كان هذا الانقلاب غريباً فى كل شىء : كان غريباً فى سرعته وكان غريباً فى عمقه وكان غريباً فى سعته وشموله ، وكان غريباً فى وضوحه وقربه إلى الفهم . فلم يكن غامضاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة ، ولم يكن لغزاً من الألغاز . فلندرس هذا الانقلاب عملياً ، ولنتعرف مدى تأثيره فى المجتمع الإنسانى والتاريخ البشرى .

*** تأثير الإيمان الصحيح فى الأخلاق والميول :**

كان الناس – عرباً وعجماً – يعيشون حياة جاهلية ، يسجلون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ولا يعذب العاصى بعقوبة ولا يأمر ولا ينهى ، فكانت الديانة سطحية طافية فى حياتهم ، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها فى أخلاقهم واجتماعهم كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية . فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر وتولوا إدارة المملكة وتدبير شئونها وتوزيع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة ، فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله وإحالتهم خلق السموات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له : من بنى هذا القصر العتيق ؟ فيسمى ملكاً من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ، فكان دينهم عارياً عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة ، قاصرة مجملة ، لا تبعث فى نفوسهم هيبة ولا محبة .

وهذه الفلسفة اليونانية قد عرفت بواجب الوجود في سلوب ، ليست فيها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والإعطاء والمنع والرحمة ، ولم تثبت له إلا الخلق الأول ، ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة ، ونفت الصفات وقررت كليات كلها حط من قدر الخالق وقياس على الخلق ، والسلوب إذا اجتمعت لم تفد فائدة إيجاب واحد ، ولم نعلم مدينة واحدة ولا مجتمعاً ولا نظاماً ولا عملاً ولا بناية قامت على مجرد سلوب ، فتجردت الديانة فى أوساط الفلسفة الإغريقية عن روح الخشوع والاستكانة لله والالتجاء إليه في الحوادث ومحبته بكل القلب ، وهكذا فقدت الديانة السائدة على العالم روحها وأصبحت طقوساً وتقاليد وأشباحاً للإيمان.

انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير فى الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها ، آمنوا بالله الذى له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى ، آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، العزيز الحكيم ، الغفور الودود ، الرؤوف الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده

ملكوت كل شيء ، يجير ولا يجار عليه ، إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه ، يثيب بالجنة ويعذب بالنار ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء في السماوات والأرض ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه ، فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلاباً عجيباً ، فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن ، تغلغل الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه وجعل منه رجلاً غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق .

*** وخز الضمير :**

وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة إرادة وقوة نفس ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ، حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان وسقط الإنسان سقطة ، كان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون تحول هذا الإيمان نفساً لوامة عنيفة ووخزاً لاذعاً للضمير وخيالاً مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ويتحملها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة .

وقد حدثنا المؤرخون الثقات في ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها إلا في التاريخ الإسلامي الديني . فمنها ما روى مسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيح بسنده عن عبدالله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمي ، أتى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله إني ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني » فرده ، فلما كان من الغد أتاه فقال : « يا رسول الله إني قد زنيت » فرده الثانية ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال : أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟ فقالوا : ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم

أيضًا فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم .

قال فجاءت الغامدية فقالت : « يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى » وأنه ردها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردنى ؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزاً ، فوالله إنى لحبلى ، قال : أما لا فاذهبى حتى تلدى . قال : فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة قالت : هذا قد ولدته . قال : فاذهبى فأرضعيه حتى تطعميه . فلما فطمته أتته بالصبى ، فى يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبى الله سبه إياها فقال : « مهلاً يا خالد ، فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (١)

* **الثبات أمام المطامع والشهوات :**

وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته . يملك نفسه النزع أمام المطامع والشهوات الجارفة وفى الخلوة والوحدة حيث لا يراها أحد . وفى سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً . وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامى من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات إلى أهلها والإخلاص لله ، ما يعجز التاريخ البشرى عن نظائره ، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ومراقبة الله واستحضار علمه فى كل مكان وزمان .

حدث الطبرى قال : لما هبط المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بحُق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط . ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه ، فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأناً ، فقالوا: من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس (٢) .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحدود ؛ باب : من شهد على نفسه بالزنا رقم ١٦٩٢.

(٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦ .

*** الأنفة وكبر النفس :**

وكأن هذا الإيمان بالله رفع رأسهم عالياً وأقام صفحة عنقهم فلن تحنى لغير الله أبداً لا لملك جبار ولا لحبر من الأحبار، ولا لرئيس دينى ولا دنيوى ، وملأ قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله تعالى وعظمته ، فهانت وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة والفخفخة ، فإذا نظروإلى الملوك وحشمتهم وما هم فيه من ترف ونعيم وزينة وزخرف ، فكأنهم ينظرون إلى صور ودمى قد كسيت ملابس الإنسان .

عن أبي موسى قال : انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين ، وقد قال له عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان: اسجدوا للملك . فقال جعفر : لا نسجد إلا لله (١) .

*** الاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفاء :**

أرسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابى الحرير ، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب . ودخل ربعى بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إنى لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتمونى فإن تركتمونى هكذا وإلا رجعت ، فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها . فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عد ل الإسلام (٢).

---

(١) البداية ج ٣ ص:٦٧ .

(٢) البداية ج٧ ص: ٤٠

*** الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة :**

ولقد بعث الإيمان بالآخرة في قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة وحنيناً غريباً إلى الجنة واستهانة نادرة بالحياة ،تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأى عين فطاروا إليها طيران حمام الزاجل لا يلوى على شيء .

تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب الكعبة ، إني أجد ريحها من دون أحد ، قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه (١) .

قال رسول الله ﷺ يوم بدر : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ؟ فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض . قال : نعم ، قال : بخ بخ قال : فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن يكون من أهلها . قال : فإنك من أهلها . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل (٢) .

عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال : سمعت أبي رضي الله عنه وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ : إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف ، فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ؟ قال : نعم . فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب حتى قتل (٣) .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه فقال له

---

(١) متفق عليه ؛ رواه البخاري : الجهاد رقم (٢٨٠٥)،والمغازي(٤٠٤٨) .

(٢) رواه مسلم في الإمارة باب : ثبوت الجنة للشهيد .

(٣) رواه مسلم في الإمارة باب : ثبوت الجنة للشهيد .

بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك ، ووالله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عزوجل أن يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيداً (١) .

قال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب إلى النبى ﷺ فآمن به واتبعه فقال: أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئاً فقسمه ، وقسم للأعرابى فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم ،فلما جاء دفعوه إليه فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به إلى النبى ﷺ فقال : ما هذا يا رسول الله ؟ قال قسم قسمته لك ، قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا — وأشار إلى حلقه — بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله ليصدقك ، ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به النبى ﷺ وهو مقتول فقال : أهو هو ؟ قالوا : نعم ، قال : صدق الله فصدقه (٢) .

*** من الأنانية الى العبودية :**

وكانوا قبل هذا الإيمان فى فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع ، لا يخضعون لسلطان ولا يقرون بنظام ولا ينخرطون فى سلك ، يسيرون على الأهواء ويركبون العمياء ويخبطون خبط عشواء ، فاصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان والأمر والنهى ، ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا

---

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٣٥ .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ١٩٠ .

من أنفسهم المقادة واستسلموا للحكم الإلهى استسلاماً كاملاً ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم ، وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالاً ولا نفساً ولا تصرفاً فى الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ولا يرضون ولا يسخطون ولا يعطون ولا يمنعون ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره . ولما كان القوم يحسنون اللغة التى نزل بها القرآن وتكلم بها الرسول ﷺ وعرفوا الجاهلية ونشأوا عليها ، وعرفوا معنى الإسلام معرفة صحيحة وعرفوا أنه خروج من حياة إلى حياة ، ومن مملكة إلى مملكة ، ومن حكم إلى حكم ، أو من فوضوية إلى سلطة ، أو من حرب إلى استسلام وخضوع ، ومن الأنانية الى العبودية وإذا دخلوا فى الإسلام فلا افتيات فى الرأى ولا نزاع مع القانون الإلهى ولا خيرة بعد الأمر ولا مشاقة للرسول ولا تحاكم إلى غير الله ولا إصدار عن الرأى ، ولا تمسك بتقاليد وعادات ولا ائتمار بالنفس ، فكانوا إذا أسلموا انتقلوا من الحياة الجاهلية بخصائصها وعاداتها وتقاليدها إلى الإسلام بخصائصه وعاداته وأوضاعه ، وكان هذا الانقلاب العظيم يحدث على أثر قبول الإسلام من غير تأن .

هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ ، وهو يطوف بالبيت . فلما دنا منه . قال رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ قال : نعم ، فضالة يا رسول الله ! قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك النبى ﷺ ، ثم قال : استغفر الله ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، وكان فضاله يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلى منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقلت : يأبى الله عليك والإسلام (١) .

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٢ .

*** المحكمات والبينات فى الإلهيات :**

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره ، وما يهجم عليه الإنسان بعد موته ، وآتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب ، وكفوهم مؤونة البحث والفحص فى علوم ليس عندهم مباديها ولا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول ، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، لا تعمل فيهما حواسهم ، ولا يؤدى إليها نظرهم ، وليست عندهم معلوماتها الأولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعاً ، وأبدوا البحث أُنفاً وبدأوا رحلتهم فى مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشداً ولا خرِّيتاً ، وكانوا فى ذلك أكثر ضلالاً ، وأشد تعباً وأعظم اشتغالاً بالفضول من رائد لم يقتنع بما أدى إليه العلم الإنسانى فى الجغرافية ، وما حدد وضبط في الخرائط على تعاقب الأجيال ، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قصر عمره ، وضعف قوته ، وفقدان آلته ، فلم يلبث أن انقطعت به مطيته وخانته عزيمته ، فرجع بمذكرات وإشارات مختلة ، وكذلك الذين خاضوا فى الإلهيات من غير بصيرة ، وعلى غير هدى ، جاءوا فى هذا العلم بآراء فجة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر سانحة ، ونظريات مستعجلة ، فضلوا وأضلوا .

وكذلك منحهم الأنبياء عليهم السلام مبادئ ثابتة ومحكمات هى أساس المدنية الفاضلة ، والحياة السعيدة فى كل زمان ومكان ، فحرموها على تعاقب الأعصار ، فبنوا مدنيتهم على شفا جرف هار ، وأساس منهار ، وعلى قياس واختبار فزاغ أساس المدنية وتداعى بناؤها ، وخر عليهم السقف من فوقهم .

وكان الصحابة رضى الله عنهم سعداء موفقين جداً ، إذ عولوا فى ذلك كله على رسول الله ﷺ ، فكفوا المئونة وسعدوا بالثمرة ، ووفروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم فى غير جهاد ، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعنيهم من الدين والدنيا وتمسكوا بالعروة الوثقى ، وأخذوا فى الدين بلب اللباب .

الفصل الثالث
المجتمع الإسلامي

* **طاقة زهر :**

إن هذا الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر، والإسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة ورد كل فرد في المجتمع البشري إلى موضعه ، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأصبحت الهيئة البشرية طاقة زهر لا شوك فيها ، أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ، يقول النبي ﷺ : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان [١] » ، ويسمعه الناس يقول : « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بر تقي كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى[٢] » ، ويقول : « إن أنسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم يملؤه ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى [٣] » ، وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله » ويسمعه الناس يقول فيما يناجي به ربه في آخر الليل : « وأنا شهيد أن العباد كلهم أخوة [٤] ».

* **ليس منا من دعا إلى عصبية :**

واقتلع ﷺ جذور الجاهلية وجراثيمها ، وحسم مادتها وسد كل نافذة من نوافذها ، فقال : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية ، وليس

---

(١) رواه الترمذي : كتاب المناقب ، رقم : ٣٩٥٠ .

(٢) رواه أبو داود : الأدب رقم : ٥١١٦ ، وفي المسند : ٢/٣٦١ .

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/١٤٥و١٥٨ . (٤) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/١٥٨ .

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند ٤/٢٦٩ .

منا من مات على عصبية [١] ، وعن جابر بن عبدالله قال : « كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : يا للأنصار ، فقال للمهاجرين : يا للمهاجري . فقال النبى ﷺ دعوها إنها منتنة [٢] » وحرم حمية الجاهلية ، وقيد ذلك التناصر الذى جرت الجاهلية العربية على إطلاقه ، فكان من الأمثال السائرة وشرائع الجاهلية الثابتة . «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، قال النبى ﷺ : « من نصر قومه على غير الحق ، فهو كالبعير الذى ردى فهو ينزع بذنبه [٣] »وتغيرت بذلك نفسية العربى وعقليته حتى أصبح ذوق المسلم العربى لا يسيغ ذلك المثل العربى السائر ، فلما قال النبى ﷺ مرة : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » لم يملك نفسه ، فقال : « يا رسول إذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ قال ﷺ : تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه [٤] » .

*** كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته :**

وأصبحت الطبقات والأجناس فى المجتمع الإسلامى متعاونة متعاضدة لا يبغى بعضها على بعض ، فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، لهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وأصبح كل واحد فى المجتمع راعياً ومسئولاً عن رعيته. الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته [٥]، وهكذا كان المجتمع الإسلامى مجتمعاً رشيداً عاقلاً مسئولاً عن أعماله .

*** لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق :**

وأصبح المسلمون أعواناً على الحق ، أمرهم شورى بينهم ، يطيعون الخليفة ما

(١) رواه الإمام مسلم : الإمارة رقم١٨٤٨ و ١٨٥٠، والنسائي : تحريم الدم رقم٤١١٩و٤١٢٠، وأبو داود : الأدب ،رقم٥١٢١ .

(٢) رواه البخارى تفسير رقم٤٩٠٥، ومسلم : بر رقم ٦٤ ، والمسند ٣٣٨/٣و٣٨٥و٣٩٣، وعبد الرزاق ٤٦٨/٩رقم ١٨٠٤١، والترمذي :تفسير رقم٣٥٣٤.

(٣) رواه البخاري مظالم رقم٢٤٤٣و٢٤٤٤، إكراه رقم: ٦٩٥٢، ومسلم :بر٦٤، والترمذي : فتن٦٨، والدارمي من رقائق رقم٢٧٥٣ والمسند ٩٩/٣و٢٠١و٣٢٤ .

(٤) رواه أبو داود : أدب رقم٥١١٧ ، من قول ابن مسعود فهو موقوف .

(٥) مأخوذ من الحديث الذي رواه البخاري في النكاح رقم٥١٨٨،ومسلم ، إمارة ٢٠، والمسند ٥/٢، وعبد الرزاق ٣١٩/١١، وابن حبان ١١/٧، والبيهقي ٢٨٧/٦و٢٩١/٧ .

أطاع الله فيهم . فإن عصى الله فلا طاعة له عليهم وأصبح شعار الحكم : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق [1] » وأصبحت الأموال والخزائن التى كانت طعمة للملوك والأمراء ودُولْة بين الأغنياء مال الله الذى لا ينفق إلا فى وجهه ولا يخرج إلا فى حقه وأصبح المسلمون مستخلفين فيه ، والخليفة كولي اليتيم إن استغنى استعف وإن افتقر أكل بالمعروف ، وأصبحت الأرض التى اغتصبها الملوك والأمراء يفسحونها لمن يشاؤون ويضيقونها على من يشاؤون ، ويقطعها بعضهم بعضاً كما يقطع الثوب ، أصبحت أرض الله التى من ظلم قيد شبر منه طوقه من سبع أرضين .

*** حلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع :**

وكان المجتمع البشرى قد فقد نشاطه وأريحيته فى الحياة وفى كل ما يأتى ويذر وكان مجتمعاً مرهقاً مخنوقاً ، فكان مدفوعاً إلى ساحة الحرب من غير أن ينشط أو يتحمس لأغراض أولى الأمر ، وكان مدفوعاً إلى الصلح ولم يقض من الحرب وطراً ولم يشف نفسه ، وكان الرجال فى هذا المجتمع يرغمون على التضحية والإيثار ومكابدة المتاعب ومعاناة الأمور الشاقة من غير هوى ومن غير وجدان ومن غير عاطفة ، لا يحبون القادة ولا يحبهم القادة، فكانوا مرغمين على أن يطيعوا من لا يحبونه ويفدوا بأرواحهم وأموالهم من يبغضونه . فانطفأت جمرة القلوب وبردت العواطف، ونشأ الناس على النفاق والرياء والختل . ونشأت النفوس على الذل وتحمل الضيم والصغار .

كانت العاطفة القوية - التى يرجع إليها الفضل فى غالب عجائب الإنسانية ومعظم الآثار الخالدة فى التاريخ ، تلك التى يسميها الناس (الحب) - تائهة ضائعة لم يظهر منذ قرون من يشغلها ويستثمرها . فضاعت فى ألوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلابة الفانية مما تغنى به الشعراء قديماً وحديثاً .

---

(١) رواه عبد الرزاق ١١/٣٣٥،ومعناه في البخاري ، مغازي ٤٣٤٠، وأحكام ٧١٤٥، وأحمد كما في المجمع ٥/٢٢٦ .

فى هذا المجتمع الحائر المظلوم قام محمد ﷺ فحل عقاله وفك إساره ثم حل منه محل الروح والنفس وشغل منه مكان القلب والعين . وهو المبشر الذى جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال، وأبلغ معانى الحسن والإحسان . من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه . يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، فاندفع إليه الحب الصادق كما يندفع الماء إلى الحدور . وانجذبت إليه النفوس والقلوب انجذاب الحديد الى المغناطيس . كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد . وأحبه رجال أمته وأطاعوه حباً وطاعة لم يسمع بمثلهما فى تاريخ العشاق والمتيمين . ووقع من خوارق الحب والتفانى فى سبيل طاعته وإيثاره على النفس والأهل والمال والولد ما لم يحدث قبله ولن يحدث بعده .

*** نوادر الحب والتفانى :**

وُطِئَ أبو بكر بن أبى قحافة فى مكة يوماً بعد ما أسلم، وضرب ضرباً شديداً ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت: والله ما لى علم بصاحبك . فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبدالله ، قالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبدالله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت ، قالت : نعم ، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالت : هذه أمك تسمع ! قال : فلا شيء عليك منها . قالت : سالم صالح ! قال : أين هو ؟ قالت : فى دار ابن الأرقم ، قال : فإن لله عليّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ

عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ [1] » .

وخرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً ، هو بحمد الله كما تحبين ! قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل [2] .

رفعوا خبيباً رضى الله عنه على الخشبة ونادوه يناشدونه : أتحب أن محمداً مكانك ؟ قال : لا والله العظيم ما أحب أن يفدينى بشوكة يشاكها فى قدمه ، فضحكوا منه [3] .

وقال زيد بن ثابت : بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لى : إن رأيته فأقرئه منى السلام وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية سهم ، فقلت : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك : أخبرنى كيف تجدك ؟ فقال : على رسول الله ﷺ السلام : قل له : يا رسول الله أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته [4] .

وترّس أبو دجانة يوم أحد على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك [5] ، ومص مالك الخدرى جرح رسول الله ﷺ حتى أنقاه قال له : مجه . قال : والله ما أمجه أبداً [6] .

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

(٢) رواه ابن إسحاق إمام المغازى ، ورواه البيهقى مرسلاً ، والجلل : الحقيرة .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٦٣ .

(٤) زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٤ .

(٥) أيضاً ص ١٣٠ .

(٦) أيضا ص ١٣٦ .

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى . قال : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس [(١)] .

قال عروة بن مسعود الثقفى لأصحابه بعدما رجع من الحديبية : أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك ، على كسرى وقيصر والنجاشى ، والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدُّون إليه النظر تعظيماً له [(٢)] .

*** عجائب الانقياد والطاعة :**

ولم يزل الانقياد والطاعة من جنود « الحب » المتطوعة ، فلما أحبه القوم بكل قلوبهم أطاعوه بكل قواهم ، يمثل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه وعن الأنصار قبل بدر : « إنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاظعن حيث شئت وصل حبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك[(٣)]

وكان من شدة طاعتهم له ﷺ أنه ﷺ نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن عزوة تبوك ، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه وأصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب . يقول كعب : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا

---

(١) سيرة ابن هشام ، ذكر الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة ، ج٤ ص:٢٧ .

(٢) زاد المعاد ، ج ٣ ص ١٢٥ .

(٣) أيضاً ص ١٣٠ .

حتى تنكرت لى نفس الأرض، فما هى الأرض التى أعرف ، إلى أن قال : حتى إذا طال عليّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمت عليه فوالله ما رد عليّ السلام فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فكست فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عينى وتوليت حتى تسورت الجدار.

وكان من طاعته أيضاً وهو فى موضع عتاب وجفوة أن رسول رسول الله ﷺ يأتيه ويقول له : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقال : أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال : لا بل اعتزلها فلا تقربنها . فقال لامرأته : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الأمر .

وكان من حبه للرسول ﷺ وإيثاره على كل أحد فى الدنيا أن ملك غسان يخطب وده ويستلحقه بنفسه ، وتلك محنة عظيمة فى حال الجفوة والعتاب، ولكنه يرفض ذلك، قال : « بينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءنى فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها [1] .

ومن غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ما حدث عند نزول النهى عن الخمر فى مجلس شرب ، فعن أبى بريدة عن أبيه قال : بينما نحن قعود على شراب لنا وعندنا باطية [2] لنا ، ونحن نشرب الخمر حلاً إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ فأسلم

(١) رواه البخاري : مغازي ٤٤١٨، ومسلم :توبة ٥٣والمسند ٣/٤٤٥٧و٦/٤٨٧ .

(٢) الباطية : إناء من زجاج يملأ من الشراب .

عليه وقد نزل تحريم الخمر « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان » – إلى قوله : « فهل أنتم منتهون » . فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله : « فهل أنتم منتهون » . قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقى بعض فى الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا . انتهينا ربنا [١] .

ومن غرائب الطاعة للرسول وإيثاره على النفس والأهل والعشيرة ما روى عن عبدالله بن عبدالله بن أبى ، روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : دعا رسول الله ﷺ عبدالله ابن عبدالله بن أبى قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول بأبى أنت وأمى ؟ قال : يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال : فقد صدق والله يا رسول الله ، أنت والله الأعز وهو الأذل ، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر منى ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به ، فقال رسول الله ﷺ : لا فلما قدموا المدينة قام عبدالله بن عبدالله بن أبى على بابها بالسيف لأبيه ثم قال : أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ ، والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله . فقال : يا للخزرج ، ابنى يمنعنى بيتى ، يا للخزرج ابنى يمنعنى بيتى ! ! فقال : والله لا يأويه أبداً ، إلا بإذن منه. فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله . فأتوا النبى ﷺ فأخبروه فقال : اذهبوا إليه فقولوا له : خله ومسكنه . فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبى ﷺ فنعم [٢] .

---

(١) رواه ابن جرير بسنده فى التفسير عند قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر » الآية ، تفسير الطبرى ٧ الآية (٩٠) المائدة .

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٨ الآية (٨) المنافقون .

الفصل الرابع

كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية

بهذا الإيمان الواسع العميق، والتعليم النبوى المتقن ، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة ، وبفضل هذا الكتاب السماوى المعجز الذى لا تنقضى عجائبه ولا تخلق جدته ، بعث رسول الله ﷺ فى الإنسانية المحتضرة حياة جديدة .

عمد إلى الذخائر البشرية وهى أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غناءها ، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر ، والإخلاد إلى الأرض، فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة ، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها ، ثم وضع كل واحد فى محله فكأنما خلق له ، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه ، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً . وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يملى على العالم إرادته ، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ (١) .

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ ، فأصبح عمر الذى كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره ، وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة ، ولا يتبوأ منها المكانة العليا ، ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً ، إذا به يفجأ العالم بعبقريته وعصاميته ، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما ويؤسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما فى الإدارة وحسن النظام فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذى لا يزال فيه المثل السائر .

وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان انحصرت كفاءته الحربية فى نطاق محلى ضيق يستعين به رؤساء قريش فى المعارك القبلية فينال ثقتهم وثناءهم ، ولم يحرز الشهرة الفائقة فى نواحى الجزيرة ، إذ به يلمع سيفاً إلهياً لا يقوم له شىء إلا حصده ، وينزل كصاعقة على الروم والفرس ويترك ذكراً خالداً فى التاريخ .

---

(١) آية ١٢٢ : الأنعام .

وهذا أبو عبيدة كان موصوفاً بالصلاح والأمانة والرفق ويقود سرايا المسلمين إذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء ويلقى عليها الوداع ويقول : سلام على سورية سلاماً لا لقاء بعده .

وهذا عمرو بن العاص كان يعد من عقلاء قريش وترسله فى سفارتها الى الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائباً إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة .

وهذا سعد بن أبى وقاص لم نسمع به فى التاريخ العربى قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتيبة ، إذا به يتقلد مفاتيح المدائن ، وينيط باسمه فتح العراق وإيران .

وهذا سلمان الفارسى كان ابن موبذان فى إحدى قرى فارس لم يزل يتنقل من رق الى رق ومن قسوة الى قسوة إذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارسية التى كان بالأمس أحد رعاياها ، وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه فيراه الناس يسكن فى كوخ ويحمل على رأسه الأثقال .

وهذا بلال الحبشى يبلغ من فضله وصلاحه مبلغاً يلقبه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد .

وهذا سالم مولى أبى حذيفة يرى فيه عمر موضعاً للخلافة يقول : لو كان حيا لاستخلفته .

وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤته وفيه مثل جعفر بن أبى طالب وخالد بن الوليد ، ويقود ابنه أسامة جيشاً فيه مثل أبى بكر وعمر .

وهذا أبو ذر والمقداد وأبو الدرداء وعمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب ، تهب عليهم نفحة من نفحات الإسلام فيصبحون من الزهاد المعدودين والعلماء الراسخين .

وهذا على بن أبى طالب وعائشة وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبدالله بن عباس قد أصبحوا فى أحضان النبى الأمى ﷺ من علماء العالم، يتفجر العلم من جوانبهم، وتنطق الحكمة على لسانهم ، أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً ، يتكلمون فينصت الزمان ، ويخطبون فيسجل قلم التاريخ .

* **كتلة بشرية متزنة :**

ثم لا يلبث العـالم المتمدن أن يرى من هذه المواد الخـام المبعـثرة التى استـهانت بقيمـتها الأمم المعاصرة وسـخرت منها البلاد المجاورة ، لا يلبث أن يـرى منها كتلة لم يشاهد التـاريخ البشـرى أحسن منها اتـزاناً ، كأنها حلقـة مفرغـة لا يعرف طرفـها أو كالمطر لا يدرى أأوله خير أم آخره ، كتلة فيها الكفاية التامة فى كل ناحية من نواحى الإنسـانيـة ، كـتلة هى فـى غنى عن العـالم ، وليس العـالم فـى غنى عنهـا ، وضـعت مدنيتها وأسـست حكومتها وليس لها عهد بها ، فلم تضطر إلى أن تسـتعير رجلاً من أمة أو تستعين فى إدارتها بحكومة ، أسست حكومة تمد رواقـها على رقعة متسعة من قارتين عظيمتين ، وملأت كل ثغر وسدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة والقوة والأمانة، تأسست هذه الحـكومة المتشعبة الأطراف فأنجـدتها هذه الأمة الوليدة التى لم يمض عليهـا إلا بعض العقود – كـله جهاد ودفاع ومـقاومة وكـفاح – برجل من الرجـال الأكـفـاء ، فكان منها الأمـيـر العادل والخـازن الأمين والقاضى المقـسط ، والقائد العابد والوالى المتـورع والجندى المتقى ، وكانت بفضل التـربية الدينية التى لا تزال مستمـرة ، وبفضل الدعوة الإسلامية التى لا تزال سائرة ، مـادة لا تنقطع ومعيناً لا ينضب ، لا تزال تسند الحكومة برجال يرجحـون جانب الهداية على الجباية ، ولا يزالون يجـمعـون بين الصـلاح والكفـاية ، وهنا ظهـرت المدنية الإسـلامـية بمظهـرها الصحـيح ، وتجلت الحياة الدينيـة بخصائصـها التى لم تتوفر لـعهد من عهـود التاريخ البشرى .

لقد وضع مـحمد ﷺ مفتـاح النبوة على قفل الطبيـعة البشرية فانـفتح على ما فيها من كـنوز وعجائب وقوى ومواهب . أصاب الجاهـلية فى مقتلها أو صمـيمها ، فأصـمى رميته ، وأرغم العـالم العنيد بحـول الله على أن ينحو نحـواً جديداً ويفـتتح عهداً سعيداً ، ذلك هو العهد الإسلامى الذى لا يزال غرة فى جبين التاريخ .



الباب الثالث

العصر الإسلامى

الفصل الأول

عهد القيادة الإسلامية

* الأئمة المسلمون وخصائصهم :

ظهر المسلمون وتزعموا العالم وعزلوا الأمم المريضة من زعامة الإنسانية التى استغلتها وأساءت عملها ، وساروا بالإنسانية سيراً حثيثاً متزناً عادلاً ، وقد توفرت فيهم الصفات التى تؤهلهم لقيادة الأمم ، وتضمن سعادتها وفلاحها فى ظلهم وتحت قيادتهم :

أولاً : أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية ، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم ، لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم ، ولا يخبطون فى سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، قد جعل الله لهم نوراً يمشون به فى الناس وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس **﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾**(١) وقد قال الله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾**(٢).

ثانياً : أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس ، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة فى الماضى والحاضر ، بل مكثوا زمناً طويلاً تحت تربية محمد ﷺ وإشرافه الدقيق يزكيهم ويؤدبهم ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار على النفس وخشية الله وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها . يقول : « إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سأله ، أو أحداً حرص عليه »(٣) ، ولا يزال يقرع سمعهم: **﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾**(٤)فكانوا لا يتهافتون على الوظائف

---

(١) آية : ١٢٢ الأنعام. (٢) آية :٨ المائدة .

(٣) رواه البخاري : أحكام رقم ٧١٤٩، ومسلم : إمارة رقم١٤ . (٤) آية :١٨٣ القصص .

والمناصب تهافت الفراش على الضوء ، بل كانوا يتدافعون فى قبولها ويتحرجون من تقلدها ، فضلاً عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة ويزكوا أنفسهم وينشروا دعاية لها وينفقوا الأموال سعياً وراءها ، فإذا تولوا شيئاً من أمور الناس لم يعدوه مغنماً أو طعمة أو ثمناً لما أنفقوا من مال أو جهد ، بل عدوه أمانة فى عنقهم وامتحاناً من الله ، ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ومسئولون عن الدقيق والجليل ، وتذكروا دائماً قول الله تعالى :

﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ [1] وقوله : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ [2] .

ثالثا : أنهم لم يكونوا خدمة جنس ، ورسل شعب أو وطن ، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً ، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم ، إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده ، كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد : « الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام [3] ». فالأمم عندهم سواء، والناس عندهم سواء ، الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم** [4] ﴾ .

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العصا عامل مصر – وقد ضرب ابنه مصريا ، وافتخر بابائه قائلاً : خذها من ابن الأكرمين ، فاقتص منه عمر – : متى إستعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً [5] . فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين

(١) آية : ٥٨ النساء .   (٢) آية : ١٦٥ الأنعام .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ، ج٧ ص ٤٠ .

(٤) آية ١٣ : الحجرات .

(٥) القصة بتمامها فى تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى .

وعلم وتهذيب على أحد ، ولم يراعوا فى الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغوادى مزنة أثنى عليها السهل والوعر ، وانتفعت بها البلاد والعباد ، على قدر قبولها وصلاحها (١) .

فى ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب – حتى المضطهدة منها فى القديم – أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة ، أن تساهم العرب فى بناء العالم الجديد ، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب فى بعض الفضائل وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين ، حتى قال ابن خلدون : « من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية [٢] ، إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته ، فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية ، وصاحب شريعتها عربى [٣] ، ونبغ من هذه الأمم في عصور الإسلام قادة وملوك ووزراء وفضلاء ، هم نجوم الأرض ونجباء الإنسانية وحسنات العالم ، فضيلة ومروءة وعبقرية وديناً وعملاً ، لا يحصيهم إلا الله .

رابعاً : أن الإنسان جسم وروح ، وهو قلب وعقل وعواطف وجوارح ، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقياً متزناً عادلاً حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نمواً متناسباً لائقاً بها ،ويتغذى غذاء صالحاً ، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط دينى خلقى عقلى جسدى يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنسانى ، وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا كانت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة ، ويكونون أمثلة كاملة فى الحياة الدينية والخلقية ،

(١) عن ابى موسى عن النبى ﷺ قال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » رواه البخارى :العلم رقم ٧٩ .

(٢) يعنى سواء فى ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية .

(٣) المقدمة ص ٤٩٩ .

وأصحاب عقول سليمة راجحة ، وعلوم صحيحة نافعة ، فإذا كان فيهم نقص فى عقيدتهم أو فى تربيتهم عاد ذلك النقص فى مدنيتهم ، وتضخم وظهر فى مظاهر كثيرة ، وفى أشكال متنوعة ، فإذا تغلبت جماعة لا تعبد إلا المادة وما إليها من لذة ومنفعة محسوسة ، ولا تؤمن إلا بهذه الحياة ولا تؤمن بما وراء الحس أثرت طبيعتها ومبادئها وميولها فى وضع المدنية وشكلها ، وطبعتها بطابعها ، وصاغتها فى قالبها ، فكملت نواح للإنسانية واختلت نواح أخرى أهم منها ، عاشت هذه المدنية وازدهرت فى الجص والآجر ، وفى الورق والقماش ، وفى الحديد والرصاص ، وأخصبت فى ميادين الحروب وساحات القتال ،وأوساط المحاكم ومجالس اللهو ومجامع الفجور ، وماتت فى القلوب والأرواح وفى علاقة المرأة بزوجها ، والولد بوالده والوالد بولده ، والأخ بأخيه والرجل بصديقه ، وأصبحت المدنية كجسم ضخم متورم يملأ العين مهابة ورواء ، ويشكو فى قلبه آلاما وأوجاعاً ، وفى صحته انحرافاً واضطراباً .

وإذا تغلبت جماعة تجحد المادة أو تهمل ناحيتها ولا تهتم إلا بالروح وما وراء الحس والطبيعة ، وتعادى هذه الحياة وتعاندها ، ذبلت زهرة المدنية وهزلت القوى الإنسانية وبدأ الناس – بتأثير هذه القيادة – يؤثرون الفرار إلى الصحارى والخلوات على المدن ، والعزوبة على الحياة الزوجية ، ويعذبون الأجسام حتى يضعف سلطانها فتطهر الروح، يؤثرون الموت على الحياة ، لينتقلوا من مملكة المادة إلى إقليم الروح ويستوفوا كمالهم هنالك ، لأن الكمال فى عقيدتهم لا يحصل فى العالم المادى ، ونتيجة ذلك أن تحتضر الحضارة وتخرب المدن ويختل نظام الحياة ، ولما كان هذا مضطاداً للفطرة لا تلبث أن تثور عليه ، وتنتقم منه بمادية حيوانية ليس فيها تسامح لروحانية وأخلاق ، وهكذا تنتكس الإنسانية وتخلفها البهيمية والسبعية الإنسانية الممسوخة ، أو تهجم على هذه الجماعة الراهبة جماعة مادية قوية فتعجز عن المقاومة لضعفها الطبعى ، وتستسلم وتخضع لها ، أو تسبق هى – بما يعتريها من الصعوبات فى معالجة أمور الدنيا – فتمد يد الاستعانة إلى المادية ورجالها وتسند إليهم أمور السياسة وتكتفى هى بالعبادات والتقاليد الدينية ، ويحدث فصل بين الدين والسياسة فتضمحل الروحانية والأخلاق ويتقلص ظلها وتفقد سلطانها على المجتمع البشرى والحياة العملية حتى تصير شبحاً وخيالاً أو نظرية علمية لا تأثير لها فى الحياة ، وتؤول الحياة مادية محضة، وقلما خلت جماعة من الجماعات التى تولت قيادة بنى

جنسها من هذا النقص ، لذلك لم تزل المدنية متأرجحة بين مادية بهيمية وروحانية ورهبانية ولم تزل فى اضطراب .

يمتاز أصحاب النبى ﷺ بأنهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة ، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة فى قادة العالم ، وكان يمكن لهم - بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية واعتدالهم الغريب الذى قلما اتفق للانسان ، وجمعهم بين مصالح الروح والبدن واستعدادهم المادى الكامل وعقلهم الواسع - أن يسيروا بالأمم الإنسانية إلى غايتها المثلى الروحية والخلقية والمادية .

*** دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة :**

وكذلك كان ، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر فى جميع هذه النواحى من هذا الدور ، دور الخلافة الراشدة فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية فى تنشئة الإنسان الكامل . وفى ظهور المدنية الصالحة .كانت حكومة من أكبر حكومات العالم ، وقوة سياسة مادية تفوق كل قوة فى عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العليا وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة فى حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ويساير الرقى الخلقى والروحى اتساع الفتوح واحتفال الحضارة فتقل الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد، والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد ، وهو دور كمالى لم يحلم الإنسان بأرقى منه ولم يفترض المفترضون أزهى منه ، ولم يكن إلا بسيرة الرجال الذين يتولون الحكم ويشرفون على المدنية وبعقيدتهم وتربيتهم وخطتهم فى الحكم وسياستهم ، فكانوا أصحاب دين وأخلاق عالية أينما كانوا ، كانوا أعفة أمناء خاشعين متواضعين ، حكاماً كانوا أو رعايا أو شرطة أو جنوداً . يصف شيخ من عظماء الروم جنود المسلمين فيقول : إنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم [1] وقال الآخر :

---

(١) رواه أحمد بن مروان المالكى فى المجالسة .

«هم فرسان بالنهار رهبان بالليل ، لا يأكلون فى ذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه [(1)] » . ويقول الثالث :« أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان ، يريشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا ، لو حدثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر [(2)] » . ويغنم الجند فى المدائن تاج كسرى وبساطه وهو يساوى مئات الألوف من الدنانير فلا تعبث به يد ولا تشح عليه نفس ، ثم يسلمونه إلى الأمير ويرسله الأمير إلى خليفة المسلمين فيتعجب ويقول : إن الذين أدوا هذا لأمناء [(3)] .

*** تأثير الإمامة الإسلامية فى الحياة العامة :**

إن هذ الرعيل من أتباع محمد ﷺ كان خليقاً بأن يسعد النوع الإنسانى فى ظله وتحت حكمه ، وأن يسير بقيادته سديد الخطى رشيد الغاية مستقيم السير ، وأن يعمر ويطمئن العالم فى دوره وتخصب الأرض وتأخذ زخرفها ، فإنهم كانوا خير القائمين على مصالحها حارسين لها ، ولا ينظرون إلى هذه الحياة كقفص من حديد أو غل فى عنق فيعادونه ويكسرونه ،ولا ينظرون إليها كفرصة من لهو ونعيم ومتعة لا تعود أبداً فينتهزونها ويهتبلونها ، ولا يضيعون منها ساعة ولا يدخرون من طيباتها ، وكذلك لا يعدونها عذاباً وعقوبة بجريمة فيتخلصون منها ، ولا ينظرون إلى الدنيا كمائدة ممدودة فيتهالكون عليها ، وإلى ما فى الأرض من نعماء وخزائن وخيرات كأنها مال سائب يتقاتلون عليه ، وإلى الأمم الضعيفة كفريسة يتسابقون فى اقتناصها بل يعدون هذه الحياة نعمة من الله هى أصل كل خير وسبب كل بر ، يتقربون فيها إلى الله ويصلون إلى كمالهم الإنسانى الذى قدر لهم ، وفرصة من عمل وجهاد لا فرصة بعدها :﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ [(4)] ﴿**إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** ﴾ [(5)]. ويعدون هذا العالم مملكة لله استخلفهم فيها - **أولاً** - من حيث أصل الإنسان الذى جعله خليفة فى الأرض ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ [(6)] ﴿ **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً**﴾ [(7)] ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من**

(1) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٣ .
(2) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦ .
(3) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى .
(4) آية ٢: الملك .
(5) آية ٧ : الكهف .
(6) آية ٣٠: البقرة
(7) آية ٢٩: البقرة .

الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (١) ، و – ثانيًا – من حيث إنه إنسان أسلم لأمر الله وانقاد لحكمه فاستخلفه فى الأرض واسترعاه أهلها ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ﴾ (٢) ومنحهم حق التمتع بخيرات الأرض من غير إسراف وتبذير ﴿خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾(٣)،﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ (٤) ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ (٥) ، وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر يراقبون سيرها وسيرتها وأخلاقها ورغباتها ، فيرشدون الضال ويردون الغاوى ويصلحون الفاسد ويقيمون الأود ، ويرأبون الصدع ويأخذون للضعيف من القوى ، وينتصفون للمظلوم من الظالم ، ويقيمون فى الأرض القسط ويبسطون على العالم جناح الأمن ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (٦) ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ﴾ (٧) .

وقد وصف عالم ألمانى مسلم ميزة المسلم وصفاً دقيقاً . قال :

« إن الإسلام لا ينظر – كالنصرانية – إلى العالم بمنظار أسود ، بل هو يعلمنا أن لا نسرف فى تقدير الحياة الأرضية ، وأن لا نغالى فى قيمتها مغالاة الحضارة الغربية الحاضرة . إن المسيحية تذم الحياة الأرضية وتكرهها ، والغرب الحاضر – خلاف الروح النصرانى – يهتم بالحياة كما يهتم النهم بطعامه ، هو يبتلعه ولكن ليس عنده كرامة له ، والإسلام بالعكس ينظر إلى الحياة بسكينة واحترام ، هو لا يعبد الحياة بل يعدها كمرحلة نجتازها فى طريقنا إلى حياة عليا ، وبما أنها مرحلة ومرحلة لابد منها ليس للإنسان أن يحتقرها أو يقلل من قيمة حياته الأرضية . إن مرورنا بهذا العالم فى سفر الحياة لابد منه ، وقد سبق به تقدير الله ، فالحياة الإنسانية لها قيمتها الكبرى ، ولكن لا ينبغى لنا أن ننسى أنها ليست إلا واسطة وآلة وليست قيمتها إلا قيمة الوسائط والآلات ، الإسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة « إن مملكتى ليست

---

(١) آية ٧٠ : الإسراء . (٢) آية ٥٥: النور . (٣) آية ٣٠ : البقرة .
(٤) آية ٣١: الأعراف . (٥) آية ٣٢: الأعراف . (٦) آية ١١٠ : آل عمران .
(٧) آية ١٣٥: النساء .

إلا هذا العـالم » ولا بالنظرية المسيحية التى تزدرى الحيـاة وتقول « ليس هذا العـالم مملكتى » وطريق الإسـلام طريق وسط بينهمـا ، القرآن يرشـدنا أن ندعو : ﴿**ربنا آتنا فى الدنيا حسنـة وفى الآخرة حسنة**﴾ [1] فالتقـدير لهذا العالم وأشيـائه ليس حجر عثرة فى سبيل جهودنا الروحية الخصبة ، والرقى المادى مرغوب فيه مع أنه ليس غاية فى نفسـه ، إن غـاية جـهـودنا ينبغى أن تكون إيجـاد أحـوال وظروف شـخـصيـة واجتماعية – والمحافظة عليها إن وجدت – تساعد فى ارتقاء القوة الخلقية فى الإنسان ، مطابقة لهذا المبدأ . الإسلام يهدى الناس إلى الشعور بالمسئولية الخلقية فى كل عمل يعمـله كبيـراً كان أو صـغيـراً . إن نظام الإسلام الدينى لا يسـمح أبداً بمثل مـا أمر به الإنجيل قائلاً : « أعطوا مـا لقيصر لقيصر وأعطوا مـا لله لله » ، لأن الإسلام لا يسمح بتقسيم حاجات حياتنا إلى خلقيـة وعملية ،ليس هناك إلا خيرة فقط ، خيرة بين الحق والبـاطل وليس شىء وسـطاً بينهـمـا ، لذلـك هو يلح على الـعـمل لأنه جـزء لازم للأخلاق لا غنى عنه ، ينبغى لكل فرد مسلم أن يعد نفسه مسئولاً شخصياً عن المحيط الذى يحيط به وكل مـا يقع حوله ، ومـأموراً بالجهـاد لإقامة الحق ومـحق الباطل فى كل وقت وفى كل جـهة ، فـإن القرآن يقـول ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[2] ، هذا هو المبرر الخلقى للحـركة الإسـلاميـة الجهـادية والفتـوح الإسلاميـة الأولى والاسـتعـمار الإسـلامى ، فالإسلام استعمارى إن كـان لابد من هذا التعبير ، ولكن هذا النوع من الاستعـمار ليس مدفـوعاً بحب الحكومـة والاستـيلاء ، وليس من الأثرة الاقـتصـادية للقومـية فى شىء ، ولم يكن يـحـفـز المجـاهدين الأولين إلى الجـهـاد طمع فى خـفض من العـيش ورخائه على حـساب الناس الآخرين ، ولم يقـصد منه إلا بناء إطار عالمى لأحـسن ما يمكن للإنسـان من ارتقـاء روحى ، كـمـا أن العلم بالفـضيلة حـسب تعليم الإسـلام يفـرض على الإنسـان تبـعـة العـمل بالـفضـائل . الإسـلام لا يـوافق أبدًا على الفـصل الأفلاطونى والتفـريق النظرى البحث بين الفضيلة والرذيلـة ، بل يرى أنه من الوقاحة والرذيلة أن يميـز الإنسان نظريًا بين الحـق والباطل ، ولا يجـاهد لارتقاء الحق وإزاحـة الباطل ، فإن الفضـيلة – كما يقول الإسلام – تحيا إذا جـاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض وتموت إذا خذلها وتقاعد عن نصرتها [3] » .

---

(١) آية ٢٠١ : البقرة .   (٢) آية ١١٠ : آل عمران

(٣) Mohammad Asad " Leopold Weiss", Islam At The Cross Roads Fifth Edition p. 29.

*** المدنية الإسلامية وتأثيرها فى الاتجاه البشرى :**

كان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها فى القرن الأول لهجرة محمد ﷺ فصلاً جديداً فى تاريخ الأديان والأخلاق ، وظاهرة جديدة في عالم السياسة والاجتماع ، انقلب به تيار المدنية ، واتجهت به الدنيا اتجاهاً جديداً ، فكانت الدعوة الإسلامية لم يزل يأتى بها الأنبياء ويبشر بها المبشرون ويجاهد فى سبيلها المخلصون ، ولكن لم يكن يتمكن دعاتها من إقامة حكومة قائمة على أساسها ومنهاجها متشبعة بمبادئها ، ومن إقامة مدنية مطبوعة بطابعها مبنية على أحكامها مثل ما تمكنوا فى هذه المرة ، ولم تنل هذه الدعوة والجهود من النجاح فى هذا السبيل مثل ما نالت أخيراً على يد محمد ﷺ وخلفائه الراشدين ، فكان هذا الفتح المبين للاسلام محنة جديدة للجاهلية لم تعهدها من قبل ، ولم تعرف كيف تخرج منها ، عهدها بها دعوة دينية روحية فإذا هى تصبح نجاة وسعادة وروحاً ومادة وحياة وقوة ومدنية واجتماعاً وحكومة وسياسة . دين سائغ معقول،كله حكمة وبداهة إزاء أوهام وخرافات وأساطير ، وشرع إلهى ووحى سماوى إزاء أقيسة وتجارب إنسانية وتشريع بشرى ، ومدنية فاضلة قوية البنيان محكمة الأساس ، يسود فيها روح التقوى والعفاف والأمانة . وتقدر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه ، والروح فوق المظاهر الجوفاء ، يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى ، ويهتم الناس بالآخرة فتصبح النفوس مطمئنة والقلوب خاشعة ، ويقل التنافس فى أسباب هذه الحياة والتكالب على حطام الدنيا ، ويقل التباغض والتشاحن ، كل ذلك إزاء مدنية صاخبة مضطربة متناحرة متداعية البنيان متزلزلة الأركان ، يظلم الكبير فيها الصغير ،ويأكل القوى فيها الضعيف ، ويتسابقون فى اللهو والفجور ، يتنافسون فى الجاه والأموال وأسباب الترف والنعيم ، حتى تصبح الدنيا كلها حرباً فى حرب، وتصبح المدنية جحيماً على أهلها . ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون** ﴾[1] .حكومة عادلة تساوى بين رعيتها وتأخذ للضعيف من القوى ، وتحرس للناس أخلاقهم كما تحرس لهم بيوتهم وأموالهم ، وتحفظ عليهم دماءهم وأعراضهم ، خيارهم أمراؤهم ، وأزهدهم فى العيش أملكهم لأسبابه وأقدرهم عليه ، إزاء حكومة عم فيها الجور والعسف، وتواضع رجالها على الخيانة والظلم ، وتسابق أهلها فى أكل أموال الناس وهتك أعراضهم وسفك دمائهم ، تفسد على الناس أخلاقهم بما تضرب لهم مثلاً بأخلاقها

(١) آية ٢١: السجدة .

شـرارهم أمراؤهم ومـلوكهم ، تشـبع دوابهم وكـلابهم وتجوع رعيتـهم ، وتكسى بيوتهم ويعرى الناس .

فأصبـح الناس لا يجدون عائقاً عن الإسـلام ، ولا يواجهون صعـوبة وعنتاً فى سـبيل قـبول الإسـلام ، ولا يرون للجاهليـة مـرجحـاً ومصلحـة ، ويدخل الرجل فى الإسلام فلا يخسر شيئاً ولا يفقد شيئاً ويجد برد اليقين وحلاوة الإيمان وعزة الإسلام ودولة قوية يعـتز بها وأنصاراً يـفدونه بأرواحهم وأنفسـهم ، ونفساً مطمـئنة وثقة فى الحيـاة بعد الموت ، فـصار الناس ينتـقلون من معـسكر الجاهليـة إلى معـسكر الإسلام باختيارهم ، وصارت أرض الجاهليـة تنتقص من أطرافها ، وكلمة الإسلام تعلو وظله يمتد ، حتى ارتفعت الفتنة وكان الدين لله .

وكـان تأثير هذا الانقـلاب عظيـماً جليـلاً ، فكان الطريق إلى الله من قـبل فى دولة الجاهلـية وغربة الإسـلام شاقـاً عسيـراً محفـوفاً بالأخطار ، فـأصبح الآن سـهلاً يسيـراً آمناً مسلوكاً ، وكـان يصعب على الإنسان فى الوسط الجـاهلى أن يطيع الله ، فصعب علـيه فى الوسط الإسلامى أن يعصى الله ، وكـانت الدعوة إلى النار بالأمس ظاهرة منصورة فأصبحت اليوم خافتة مـخذولة ،وكانت أسباب سخط الله وعصيانه مكشوفة موفورة فعادت نادرة مستورة ، وكانت الدعوة إلى الله فى أرض الله جريمة قد ترتكب سراً وخـفية ، فأصبحت جـهراً وعلانية وحرة آمنة لا تلقى مـعارضة ذات بال ، ولا يخاف أصحـابها اضطهاداً فى سبـيل العقيدة وأذى فى سبـيل الدين الجديد ﴿ **تخـافــون أن يتـــخطفكم الناس فـآواكم وأيدكم بنصـره ورزقكم من الطيبات** ﴾(الأنفال : آية٢٦) وأصبح أصحابهـا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يأمرون وينهون بمعنى الكلمة.

صارت طباع النـاس وعقولهم تتغيـر وتتأثر بالإسلام من حيـث يشعرون ومن حيـث لا يشعـرون ، كـما تتـأثر طبيـعـة الإنسان والنبـات فى فـصل الربيع ، وبدأت القلوب العاصيـة الجافة ترق وتخشع ، وبدأت مـبادئ الإسلام وحقائقـه تتسرب الى أعمـاق النفوس وتغلـغل فى الأحشاء ، وبـدأت قيمـة الأشيـاء تتغير فى عيـون الناس والموازين القديمة تتحول وتخلفها الموازين الجديدة ، وأصبحت الجاهلية حركة رجعية كان من الجمـود والغباوة المحافظة عليـها ، وصار الإسلام شيـئاً راقياً عـصرياً كان من الظرف والكياسـة الانتساب إليـه والظهور بمظاهره ، وكـانت الأمم بل كانت الأرض

تدنو رويداً رويداً إلى الاسلام ، ولا يشعر أهلها بسيرهم كما لا يشعر أهل الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس ، يظهر ذلك فى فلسفتهم وفى دينهم وفى أدبهم وفى مدنيتهم ، وتشف عن ذلك بواطنهم وضمائرهم وتنم عنه الحركة الإصلاحية التى ظهرت فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين .

جاء الإسلام بالتوحيد ونعى على الوثنية والشرك ، فهان الشرك منذ ذلك اليوم فى عيون أهله وصغر ، وصار أهله يخجلون منه ويتبرؤون منه ولا يقرون به ، بعدما كانوا يجتهدون فى إظهاره ويستميتون فى الدفاع عنه ، وأصبح أهل كل دين يؤولون ما فى نظامهم الدينى من شرك أو مظاهر شرك ووثنية ورسومها وتقاليدها ويلوون بذلك ألسنتهم ، ويجتهدون فى التعبير عنه وشرحه بما يقرب إلى التوحيد الإسلامى ويشبهه .

يقول الأستاذ أحمد أمين : « ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى أى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ظهرت فى سبتمانيا(Septimania)[1] حركة تدعو الى إنكار الاعتراف أمام القسس ، وأن ليس للقسس حق فى ذلك ، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده فى غفران ما ارتكب من إثم ، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار ، فطبيعى أن لا يكون فيه اعتراف » .

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Iconoclasts) ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع للميلاد أو القرن الثالث والرابع الهجرى ، ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل ، فقد أصدر الإمبراطور الرومانى « ليو » الثالث أمراً سنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمر آخر سنة ٧٣٠م يعد الإتيان بهذا وثنية ، وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع ، على حين كان البابا جريجورى الثانى والثالث وجرمانيوس

---

(١) سبتما مقاطعة فرنسية قديمة فى الجنوب الغربى لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط .

بطريك القسطنطينية والإمبراطورة إيريني من مؤيدى عبادة الصور ، وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله ، وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام ، ويقولون : إن كلوديوس (Claadius) أسقف تورين (الذى عين سنة ٨٢٨م وحوالي ٢١٣م) والذى كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها فى أسقفيته ، ولد وربى فى الأندلس الإسلامية ، وكراهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة ، روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قدم رسول الله ﷺ من سفر ، وقد سترت سهوة لى بقرام فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه ، وتلون وجهه ، وقال : يا عائشة أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين [١] » والأحاديث فى هذا الباب مستفيضة .

وكذلك وجدت طائفة من النصارى [٢] شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام [٣] .

ويمكن لمن يطالع تاريخ أوربا الدينى وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلى فى نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفى السائد ، أما دعوة « لوثر » الإصلاحية الكبيرة ، فقد كانت – على علاتها – أبرز مظهر للتأثر بالإسلام وبعض عقائده كما اعترف المؤرخون .

وترى كذلك تأثيراً للعقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية فى أخلاق الأمم اجتماعها وتشريعها فى أوربا النصرانية وفى الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامى [٤] تراه وتلمسه فى الاتجاه إلى التوحيد ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر ،إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ومدنيته .

---

(١) السهوة : النافذة بين الدارين ، والقرام : الستر .
(٢) Hain's Christianity of Islam in Spain p. 116
(٣) ضحى الإسلام ج ١ ص ١٦٤ – ١٦٥ .
(٤) Influnce of Islam on inclidn culture by doctor Tara Chand

يقول الباحث الهندى المعروف (K.M. Panikkar) سفير الهند فى مصر سابقاً وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية فى عقلية الشعب الهندى ودياناته:

« من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام فى الديانة الهندكية كان عميقاً فى هذا العهد (الإسلامى) ، إن فكرة عبادة الله فى الهنادك مدينة للإسلام ، إن قادة الفكر والدين فى هذا العصر وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بأن الإله واحد ، وهو يستحق العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة . وقد ظهر هذا التأثير فى الديانات والدعوات التى ظهرت فى الهند فى العهد الاسلامى كديانة "Bhagti" ودعوة « كبير [1] » .

ويقول رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو فى كتاب (Discovery of India) « إن دخول الغزاة الذين جاءوا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام له أهمية كبيرة فى تاريخ الهند ، إنه قد فضح الفساد الذى كان قد انتشر فى المجتمع الهندوكى ، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ ، وحب الاعتزال عن العالم الذى كانت تعيش فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التى كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها ، أثرت فى أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً ، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندوكى المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية».

ويقول كاتب عصرى فاضل وهو (N.C. Mehta) فى كتابه « الحضارة الهندية والإسلام » (Indian Civilization and Islam) :

« إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلاً من نور قد إنجلت به الظلمات التى كانت تغشى الحياة الإنسانية فى عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلى ، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية ، لقد كانت فتوح الاسلام فى عالم الأفكار أوسع وأعظم منها فى حقل السياسة ، شأنه فى الأقطار الأخرى ، لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام فى هذا القطر (الهندى) مرتبطاً بالحكومة فبقيت حقيقة الإسلام فى حجاب ، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الأنظار».

---

(١) A Survey of Indian. History p. 132

ولا يستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش في العالم المتمدن المعمور أن تدعى أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين في قليل ولا كثير .

يقول (Robert Briffault) في كتابه (The Making of Humanity) :

« ما من ناحية من نواحى تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير [1] » .

ويقول في موضع آخر :

« لم تكن العلوم الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلى العرب) هي التي أعادت أوربا إلى الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوربا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا [2] » .

فلو جرت الأمور هكذا وتمتعت الأمم الإنسانية بقيادة الجماعة التي خلقت بقيادتها وأعطيت القوس باريها ، وجرت المياه في مجاريها ، لكان للعالم الإنساني تاريخ غير التاريخ الذي نقرؤه حافلاً بالزلازل والنكبات ناطقاً بطول بلاء الإنسانية ومحنها ، لكان له تاريخ مجيد جميل يغتبط به كل إنسان ويقر عيناً ، ولكن جرت الأقدار بغير ذلك ، وبدأ الانحطاط في المسلمين أنفسهم .

★ ★ ★

---

(١) P. 190

(٢) P. 202

الفصل الثانى
الانحطاط في الحياة الإسلامية

*** الحد الفاصل بين العصرين :**

قال أحد الأدباء : « أمران لا يحدد لهما وقت بدقة ، النوم فى حياة الفرد ، والانحطاط فى حياة الأمة ، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا » إنه لحق فى قضية أكثر الأمم ، ولكن بدأ التدلى والانحطاط فى حياة الأمة الإسلامية أوضح منه فى حياة الأمم الأخرى ، ولو أردنا أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال لوضعنا على ذلك الخط التاريخى الذى يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين .

*** نظرة فى أسباب نهضة الإسلام :**

كان زمام القيادة الإسلامية - والعالمية بالواسطة - بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لمحمد ﷺ ، إيماناً وعقيدة وعملاً وخلقاً وتربية وتهذيباً وتزكية نفس وسمو سيرة ، وكمالاً واعتدالاً ، لقد صاغهم النبى ﷺ صوغاً ، وصبهم فى قالب الإسلام صباً ، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلا فى الأجسام لا فى الميول والنزعات ، ولا فى الرغبات والأهواء ، ولو دقق مدقق لما رأى فى سيرتهم وأخلاقهم مأخذاً جاهلياً ينافى روح الإسلام والنفسية الإسلامية ، ولو تمثل الإسلام بشراً لما زاد على أن يكون كأحدهم ، وكانوا كما قلنا أمثلة كاملة وأقيسة تامة للدين والدنيا والجمع بينهما ، فكانوا أئمة يصلون بالناس ، وقضاة يفصلون قضاياهم ، ويحكمون بينهم بالعدل والعلم ، وأمنة لأموال المسلمين وخزنتهم ، وقواداً يقودون الجيوش ويحسنون تدبير الحروب ، وأمراء يباشرون إدارة البلاد ويشرفون على أمور المملكة ويقيمون حدود الله ، وكان الواحد منهم فى آن واحد تقياً زاهداً وبطلاً مجاهداً ، وقاضياً فهماً ، وفقيهاً مجتهداً وأميراً حازماً وسياسياً محنكاً ، فكان الدين والسياسة يتمثلان فى شخص واحد وهو شخص الخليفة وأمير المؤمنين ، حوله جماعة ممن تخرجوا - إن صح التعبير - فى هذه المدرسة ، المدرسة النبوية ، أم المسجد النبوى ، أفرغوا فى قالب واحد يحملون روحاً واحدة ، وتلقوا تربية واحدة يستشيرهم الخليفة ويستعين بهم ، فلا يقطع أمراً ذا بال حتى يشهدوه فسرت روحهم

في المدنية ونظام الحكم وحياة الناس واجتماعهم واخلاقهم ، وانعكست ميولهم ورغباتهم في المدنية وظهرت خصائصهم فيها ، فلا عداء بين الروح والمادة ولا صراع بين الدين والسياسة ولا تفريق بين الدين والدنيا ، ولا تجاذب بين المصالح والمبادئ ، ولا تزاحم بين الأغراض والأخلاق ، ولا تناحر بين الطبقات ، ولا تنافس في الشهوات .

*** شروط الزعامة الإسلامية :**

إن الزعامة الإسلامية تقتضي صفات دقيقة ، واسعة جداً نستطيع أن نجمعها في كلمتين « الجهاد » و « الاجتهاد » ، فهاتان كلمتان خفيفتان بسيطتان ، ولكنهما جامعتان عامرتان بالمعاني الكثيرة .

*** الجهاد :**

أما الجهاد فهو بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب ، وأكبر وطر للمسلم طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه، والإسلام لأوامره ، وذلك يحتاج الى جهاد طويل شاق ضد كل ما يزاحم ذلك من عقيدة وتربية وأخلاق وأغراض وهوى وكل من ينافس في حكم الله وعبادته من آلهة في الأنفس والآفاق ، فإذا حصل ذلك للمسلم وجب عليه أن يجاهد لتنفيذ حكم الله وأوامره في العالم حوله وعلى بني جنسه ، فريضة من الله وشفقة على خلق الله ، ولأن الطاعة الانفرادية قد تصعب وتمتنع أحياناً بغير ذلك ، وذلك ما يسميه القرآن « الفتنة » . ومعلوم أن العالم كله بما فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان خاضع لمشيئة الله وأحكامه التكوينية وقوانينه الطبيعية ﴿ وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾[1] ﴿ألم تر ان الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب﴾[2] فيتعين أن جهاد المسلم إنما هو لتنفيذ شريعته التي جاء بها الأنبياء ، وإعلاء كلمته ونفاذ أحكامه ، فلا حكم إلا لله ولا أمر إلا له ، وهذا الجهاد مستمر ماض إلى يوم القيامة ، وله أنواع واشكال لا يأتي عليها الحصر ، منها القتال ، وقد يكون أشرف أنواعه ، وغايته أن لا تبقى في الدنيا قوتان متساويتان متنافستان تتجاذبان الأهواء والأنفس ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾[3] .

ومن مقتضيات هذا الجهاد أن يكون الإنسان عارفاً بالإسلام الذي يجاهد لأجله وبالكفر والجاهلية التي يجاهد ضدها ، يعرف الإسلام معرفة صحيحة ويعرف

---

(١) آية ٨٣: آل عمران. (٢) آية ١٨: الحج. (٣) آية ١٩٣: البقرة.

الكفر والجاهلية معرفة دقيقة ، فلا تخدعه المظاهر ولا تغره الألوان ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنما ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ فى الإسلام ولم يعرف الجاهلية ، ولا يجب على كل مسلم أن تكون معرفته دقيقة بالكفر والجاهلية ومظاهرهما وأشكالهما وألوانهما ، ولكن على من يتزعم الإسلام ويتولى قيادة الجيش الإسلامى ضد الكفر والجاهلية ، أن تكون معرفته بالكفر والجاهلية فوق معرفة عامة المسلمين وأوساطهم .

كذلك يجب أن يكون استعدادهم كاملاً وقوتهم تامة ، يقارعون الحديد بالحديد بل بأقوى من الحديد ، ويقابلون الريح بالإعصار ، ويواجهون الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه ، وبكل ما امتدت إليه يدهم ، وبكل ما اكتشفه الإنسان ووصل إليه العلم فى ذلك العصر ، من سلاح وجهاز واستعداد حربى ، لا يقصرون فى ذلك ولا يعجزون : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ (الأنفال : الآية ٦٠).

*** الاجتهاد:**

اما الاجتهاد فنريد به أن يكون من يرأس المسلمين قادراً على القضاء الصحيح فى النوازل والحوادث التى تعرض فى حياة المسلمين وفى العالم وفى الأمم التى يحكمها ، وفى المسائل التى تفاجئ وتتجدد ، والتى لا يستقصيها فقه مدون ومذهب مأثور وفتاوى مؤلفة ، ويكون عنده من معرفة روح الإسلام وفهم أسرار الشريعة والاطلاع على أصول التشريع الإسلامى وقوة الاستنباط – انفراداً أو اجتماعاً – ما يحل به هذه المشاكل ويرشد الأمة فى الغمة .

ويكون عنده من الذكاء والنشاط والجد والعلم ما يستخدم به ما خلق الله فى هذا الكون من قوى طبيعية ، وما بث فى الأرض وتحت الأرض من خيرات ومنابع ثروة قوة ، وأن يسخرها لمصلحة الإسلام بدل أن يستخدمها أهل الباطل لأهوائهم ، ويتخذوها وسيلة للعلو فى الأرض ، ويسخرها الشيطان لتحقيق أغراضه والإفساد فى الأرض .

*** انتقال الإمامة من الأكفاء إلى غير الأكفاء :**

ولكن من الأسف ومن سوء حظ العالم البشرى أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يكونوا له أكفاء ، ولم يعدوا له عدة ، ولم يأخذوا له أهبة ، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية كما تلقى الأولون وكثيرون فى عصرهم وجيلهم ، ولم يسيغوا تعاليم

الإسلام إساغة تليق بقيادة الأمة الإسلامية والاضطلاع بزعامتها ، ولم تنق رؤوسهم ولا نفوسهم من بقايا التربية القديمة ، ولم يكن عندهم من روح الجهاد فى سبيل الإسلام ومن قوة الاجتهاد فى المسائل الدينية والدنيوية ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الإسلامية – وهذا الحكم عام يشمل خلفاء بنى أمية وبنى العباس ، حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز (م ١٠١ هـ) .

*** تحريفات الحياة الإسلامية :**

فظهر من ذلك ثلمات فى ردم الإسلام لم تسد إلى الآن ، ووقعت تحريفات فى الحياة الإسلامية .

*** فصل الدين عن السياسة :**

وقع فصل بين الدين والسياسة عملياً ، فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين فاستبدوا بالحكم والسياسة ، واستعانوا – إذا أرادوا واقتضت المصالح – بالفقهاء ورجال الدين كمشيرين متخصصين ، واستخدموهم فى مصالحهم واستغنوا عنهم إذا شاؤوا وعصروهم متى شاءوا ، فتحررت السياسة من رقابة الدين ، وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة ، وملكاً عضوضاً ، وأصبحت السياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، وأصبح رجال الدين والعلم بين معارض للخلافة وخارج عليها ، وحائد منعزل اشتغل بخاصة نفسه وأغمض العين عما يقع ويجرى حوله ، يائساً من الإصلاح ، ومنتقد يتلهف ويتنفس الصعداء مما يرى ولا يملك من الأمر شيئاً ، ومتعاون مع الحكومة لمصلحة دينية أو شخصية ، ولكل ما نوى ، وحينئذ انفصل الدين والسياسة ، وعادا كما كانا قبل عهد الخلافة الراشدة ، أصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدى ، وأصبحت السياسة مطلقة اليد حرة التصرف نافذة الكلمة صاحبة الأمر والنهى ، ومن ثم أصبح رجال العلم والدين طبقة متميزة ، ورجال الدنيا طبقة متميزة ، والشقة بينهما شاسعة وفى بعض الأحيان بينهما عداء وتنافس .

*** النزعات الجاهلية فى رجال الحكومة :**

ولم يكن رجال الحكومة حتى الخلفاء أمثلة كاملة فى الدين والأخلاق ، بل كان فى كثير منهم عروق للجاهلية ونزعاتها ، فسرت روحهم ونفسيتهم فى الحياة العامة والاجتماع ، وأصبحوا أسوة للناس فى أخلاقهم وعوائدهم وميولهم ، وزالت

رقابة الدين والأخلاق وارتفعت الحسبة ، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سلطانها ، لأنها لا تستند الى قوة ولا تحميها حكومة ، وإنما يقوم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب ، والدواعى إلى خلافها متوافرة قوية ، فتنفست الجاهلية فى بلاد الإسلام ورفعت رأسها ، وأخلد الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهى والملاعب وانغمسوا فى الملذات والشهوات واستهتروا استهتاراً ، ونظرة فى كتاب الأغانى وكتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هنالك من رغبة جامحة إلى اللهو ، وتهافت على الملاهى والملذات ، ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها ، وبهذه السيرة ، وبهذه الأخلاق المنحطة ، ومع هذا الانهماك فى الملاهى لا تستطيع أمة أن تؤدى رسالة الإسلام ، وأن تقوم فى الدنيا مقام خلفاء الأنبياء ، وتذكر بالله والآخرة وتحض على التقوى والدين ، وأن تكون أسوة للناس فى أخلاقها ، بل لا تستطيع أن تتمتع بالحياة والحرية زمناً طويلا: ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾(١).

*** سوء تمثيلهم للإسلام :**

وكان هؤلاء فى كل ما يأتون ويذرون ممثلين لأنفسهم وسياستهم فقط ، لا يمثلون الإسلام ، ولا سياسته الشرعية ، لا قانونه الحربى ، ولا نظامه المدنى ، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا فى النادر ، ففقدت رسالة الإسلام تأثيرها وقوتها فى قلوب غير المسلمين ، وضعفت ثقتهم به . وفى لفظ مؤرخ أوربى - بدأ الإسلام بالانحطاط ، لأن البشرية بدأت تشك فى صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة .

*** قلة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة :**

إن العلماء المفكرين منهم لم يعتنوا بالعلوم الطبيعية التجريبية وبالعلوم العملية المثمرة المفيدة اعتناءهم بعلوم ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية التى تلقوها من اليونان وما هى إلا وثنيتهم القومية التى ترجموها فى لغتهم الفلسفية ، وأضفوا عليها لباساً من الفن ، وما هى إلا ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى ، وقد أغنى الله المسلمين عنها وكفاهم هذا البحث والتنقيب ، وعملية تجزئة وتحليل فى مسائل ذات الله وصفاته وما يتعلق بها أشبه بالتحليل الكيمياوى بما أنزل إليهم بينات من الهدى والفرقان وجعلهم على نور من ربهم ، ولكن المسلمين لم يشكروا هذه النعمة ، وظلوا قروناً طويلة يجاهدون من هذه العلوم والمباحث فى غير جهاد، ويضيعون ذكاءهم فى مباحث فلسفية وكلامية لا تجدى نفعاً ولا تأتى بنتيجة ، وليس

(١) آية ٣٨: الأحزاب .

لها دعوة في الدنيا والآخرة ، وتشاغلوا بها عن علوم واختبارات تسخر لهم قوى الطبيعة ويسخرونها لمصلحة الإسلام ويبسطون بها سيطرة الإسلام المادية والروحية على العالم كله .

وكذلك اشتغلوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ومسائل وحدة الوجود ، وبذلوا فيها قسطاً كبيراً من أوقاتهم وجهودهم وذكائهم .

أما ما وصل إليه المسلمون فى العلوم الطبيعية والتجريبية ، فإنه وإن كان أرقى من العصور السابقة وأكثر ثروة فى العلم والاختبار ، إلا أنه لا يتناسب مع فتوحهم الواسعة فى دوائر علمية أخرى ، ولا يتلاءم مع المدة الطويلة التى تمتعوا بها فى التاريخ ولم يظهر فيها من النوابغ والعبقريين مثل ما ظهر فى موضوعات أخرى .

وإن ما خلفوه من كتب فى الطبيعيات والكونيات والتجارب العلمية ، وإن كانت مما استفادت به أوربا فى نهضتها وأقرت بقيمتها ، إلا أنها تتضاءل جداً أمام هذه المكتبة الهائلة الزاخرة التى أنتجتها أوربا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فقط ، فمهما افتخرنا بآثار علماء الأندلس وحكماء الشرق ، فإنها لا تعد شيئاً بجانب الإنتاج الغربى الضخم فى العلم والحكمة والتجربة والاختبار ، لا فى الكمية ولا فى الكيفية ، ولا فى الإبداع ولا فى الابتكار ، ولا فى التدقيق العلمى ولا فى الإتقان الفنى ، وإذا أردت أن تعرف مقدار عناية الشرق الإسلامى بالناحية الروحية ونسبتها إلى الناحية العلمية والتجريبية فقارن بين كتاب الفتوحات المكية للشيخ ابن عربى مثلاً وبين أكبر كتاب فى الطبيعيات والحكمة ، تر فرقاً هائلاً فى ضخامة المادة والعناية بالموضوع والجهاد فى سبيله ، وبذلك تعرف ذوق الشرق الغالب عليه .

* **الضلالات والبدع :**

وكاد يحجب توحيد الإسلام النقى حُجُب من الشرك والجهل والضلالة ، وطرأت على النظام الدينى بدع شغلت مكاناً واسعاً من حياة المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح ، وعن الدنيا ، وميزة المسلمين بين أمم الأرض وفضلهم إنما هو من هذا الدين الذى جاء به محمد ﷺ ، وميزة هذا الدين وإعجازه فى صحته وحفظه ، لأنه يمتاز بأنه وحى الله وشريعته ووضعه المعجز وشرعه الحكيم ﴿ **تنزيلٌ من حكيمٍ حميد**﴾(فصلت : الآية٤٢). فإذا عملت فيه عقول الناس ودخلت فيه أعمال الناس وأهواؤهم لم يكن له على الأديان التى حرفها أهلها ، والنظم التى نسجتها أيدى

الناس إلا بمقدار ما فيه من الوحي المحفوظ والعلم المعصوم ، ولم يكن ضامناً لسعادة الدنيا والآخرة ولم يكن حقيقاً بأن تخضع له العقول وينجذب إليه الناس .

*** إنكار الدين على المسلمين وإهابته بهم :**

ولا يغربن عن البال أن الدين لم يزل طول هذه المدة حياً محفوظاً من التحريف والتبديل ، مهيباً بالمسلمين ناعياً عليهم انحرافهم عن طريقه ، ولم يزل مناره عالياً وضوؤه مشرقاً ﴿ **يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[1] ، ولم يزل الكتاب والسنة يبعثان في نفوس القراء ثورة على الشرك والبدع ، وعلى الجهالة والضلالة ، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها ، وثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك ، ولم يزل ينهض بتأثيرهما في كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي ، وفي كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي رجال يقومون في هذه الأمة على طريقة الأنبياء ، يجددون لها أمر دينها ، وينفخون فيها روح الجهاد ، ويفتحون لها باب الاجتهاد ، ويسعون لإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة ، فمنهم من استشهد في هذا السبيل ، ومنهم من استطاع أن يمثل دوراً قصيراً يذكر بالخلافة الراشدة : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ﴾[2] ، وهم مصداق الحديث الشريف : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله »[3] فتاريخ الجهاد والتجديد في الإسلام متصل لا تقطعه فترة ، ومشاعل الإصلاح متسلسلة بعضها من بعض لم تطفئها العواصف [4] .

*** حسن بلاء العالم الإسلامي في القرن السادس :**

في القرن السادس الهجري من الله على العالم الإسلامي - الذي بدت عليه أمارات الضعف والشيخوخة بعد السلاجقة وتوزعه ملوك وأمراء في الأنحاء - بقادة

---

(١) آية ١٦ : المائدة . (٢) آية ٢٣ : الأحزاب .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ٤/٤٤٩ .

(٤) اقرأ في هذا الموضوع كتاب المؤلف « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع في دمشق .

كبار حفظ الله بهم شرف الإسلام وعزته ، وأعاد بهم الحياة فى العالم الإسلامى المنهار ،بدأت الغزوات الصليبية – التى كانت تهدف أولا إلى الاستيلاء على الأماكن المقدسة عند المسيحيين – تتحدى الإسلام والمسلمين كلهم ، وتهدد الجزيرة العربية ومهد الإسلام والدول المجاورة للشام ، واستولى الصليبيون الأوربيون فعلاً على القدس وعلى عامة مدن الشام وقلاعه ، وطمعوا فى مدينة الرسول ﷺ ، وكانوا أكبر خطر على الإسلام والمسلمين بعد فتنة الردة ، هنالك قيض الله للإسلام عماد الدين أتابك زنكى (م ٥٤١ هـ) الذى قارع الصليبين وهزمهم فى معارك كثيرة وفتح الرها ، وقام بعده ولده العظيم الملك العادل نور الدين محمود زنكى(م ٥٦٩هـ) وصمم على إجلاء الصليبيين من الشام واسترداد القدس للمسلمين ، ومات رحمة الله عليه قبل أن يكمل مهمته وخلفه فى ذلك أحد رجاله ومرشحيه الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر ، وهو الرجل الذى هيأه الله لهذه المهمة العظيمة وجمع فيه من خصال الحزم والعزم والإخلاص والتجرد للغاية والحرص على الجهاد والتفانى فى سبيله وعلو المهمة فى نصر الإسلام وقتال أهل الكفر والبغى ، وحسن القيادة وقوة التنظيم والصلاح والديانة والفتوة الفائقة والإنسانية السامية ومكارم الأخلاق ما لا يجتمع إلا فى أفذاذ الرجال فى العالم ، فكان بذلك معجزة من معجزات الإسلام ودليلاً على أن الإسلام لم ينته دوره ولم يفقد الحيوية والإنتاج ،وقد توحد العالم الإسلامى من بين نهر الفرات وبين النيل للمرة الأولى بعد مدة طويلة ليقاتل أوربا التى تدفقت جيوشها واندفع ملوكها وأمراؤها وقوادها الكبار ليهاجموا العالم الإسلامى ، وقد اجتمع تحت لواء صلاح الدين للجهاد أجناس كثيرة من المسلمين لم تجتمع قبل ، والتهبت شعلة الجهاد والغيرة الإسلامية بعد مدة طويلة ، واستخدم صلاح الدين للجهاد كل ما وصل إليه العالم الإسلامى من العلم والاختراع وصناعة الحرب يومئذ ، هو كل ما أوتى من الذكاء والصبر والتفكير وهزم الصليبيين بحطين عام ٥٨٣ هـ هزيمة منكرة وكسر شوكتهم وفتح القدس فى العام نفسه واستولى على فلسطين كلها وانحصر الصليبيون فى «صور» فقط ، وألقت أوربا أفلاذ أكبادها ، وجاءت بحدها وحديدها واجتمعت جيوشها الكثيفة تحت قيادة القائد الكبير رتشارد Richard ملك انكلترا وكانت الحرب بين الصليبيين والمسلمين سجالاً حتى وقعت الهدنة سنة ٥٨٨ هـ (٢ سبتمبر ١١٩٢المسيحى) وجلا معظم الغزاة الصليبيين عن فلسطين ورجع رتشارد إلى

ملكه، وبعد ذلك بسنة استأثر الله بصلاح الدين .

ويحسن بنا أن ننقل هنا ما علق المؤرخ الإنكليزى Stanley Lave peoleعلى هذه الهدنة فى كتابه عن صلاح الدين ، وبه نستطيع أن نعرف قوة العالم الإسلامى ووحدته تحت قيادة صالح الدين :

« انتهت الحرب المقدسة التى استمرت خمسة أعوام ، لقد كان المسلمون قبل انتصارهم في معركة حطين فى يوليه سنة ١١٨٧ م لا يملكون قيراطاً من الأرض غربى نهر الأردن ، أما فى سبتمبر سنة ١١٩٢م لما وقع الصلح فى الرملة فقد ملكوا البلاد كلها إلا سلسلة ضيقة تمتد من صور إلى يافا كان المسيحيون لا يزالون يملكونها ، ولم تكن هذه الهدنة مما يخجل لها صلاح الدين ويتأسف ، لقد بقى معظم ما فتحه الصليبيون فى حوزة الإفرنج ، ولكن كانت النتيجة تافهة جداً بالنسبة إلى خسائر الأموال والنفوس . فقد زحفت أوربا كلها إلى الأرض المقدسة ، لما استفزها البابا للغزو الصليبى ، وبذل القيصر فريدرك وملوك انكلترا وفرنسا وصقلية وليوبولد النمساوى والدوق البرجندى والكونت الفلاندرى ومئات من النبلاء المشاهير وأمراء الشعوب المسيحية وملك حكومة القدس المسيحية وملوك الحكومات النصرانية فى فلسطين وفرسان طبقة الداوية وطبقة الإسبتار وأبطالها ، لقد بذل هؤلاء كلهم كل ما فى وسعهم للاستيلاء على القدس ولتزدهر الحكومة المسيحية التى كان مركزها القدس ، والتى أشرفت على الانقراض ، ولكن ماذا كان مصير هذه الجهود كلها ؟ مات القيصر فريدرك فى هذه المدة ، ورجع ملوك إنكلترا وفرنسا إلى بلادهم ودفن كثير من زملائهم الأمراء والنبلاء فى أرض إيليا وبقى القدس فى حوزة صلاح الدين ، كما كان ، ولم يكن من حظ المسيحين إلا إمارة عكة الصغيرة على الساحل.

لقد وقف العالم المسيحى وقفة رجل واحد إزاء المسلمين ، ولكنه لم يستطع أن يزحزح صلاح الدين عن مكانه ، كان جيش صلاح الدين قد أعياه الجهاد الطويل والمتاعب العظيمة ، وقد ظل أعواماً طوالاً مرابضًا مناضلاً مكافحاً عدواً قوياً جداً ولكن لم يسمع من جندى واحد أنين أو شكاة . إنهم لم يتأخروا يوماً فى الحضور ولم يضنوا قط بالنفائس والنفوس كلما دعاهم صلاح الدين إلى الجهاد وكلما استنفرهم للقتال ، وربما شكا أحد الأمراء التابعين له فى بعض أودية دجلة البعيدة من هذه النجدة التى لا تكاد تنتهى ولكنهم قدموا بعوثهم وحضروا لجيوشهم لنصرة

السلطان كلما طلبوا . وقد قاتل الجيش الموصلي بكل بطولة وحماسة في حرب أرسوف الأخيرة وكان السلطان واثقاً بأنه سيأتيه المدد من جيوش مصر والعراق وكذلك من جيش الشام الشمالي والمركزي . وكان التركمان والعرب والمصريون مسلّمين وخدمة أوفياء للسلطان وحضروا كالعبيد كلما طلبهم السلطان وقد مزج السلطان هذه العناصر المختلفة مزجاً غريباً وألف بينهم رغم ما فيها من اختلاف في الجنس والقومية وما بين أفرادها من خلافات داخلية ومنافسات قبلية فكانوا كالجسد الواحد . وقد عاني السلطان بعض الصعوبة في توحيد هذه الأجناس ، وقد ظهرت في بعض المناسبات بوادر الخلاف فقد تمرد الجيش في يافا مرة ، ولكن رغم ذلك كله بقيت هذه الأمم المختلفة الأجناس إلى خريف سنة ١١٩٢م خاضعة لأمر السلطان وظلت تجاهد في سبيل الله من سنة ١١٨٧م العام الذي طلبها فيه صلاح الدين للجهاد ، وفي خلال هذه المدة الطويلة لم يسجل التاريخ حادثة عصت فيها مقاطعة أو ثارت فيها دولة تابعة أو رئيس من الرؤساء ، وكانت الآمال الكبيرة التي عقدت بنصيحتهم ومثابرتهم تعيي الراسخين في الوفاء والجن الأقوياء ، إنما علمنا قريباً من أقربائه في العراق ثار عليه ، ولكن السلطان من عليه بالعفو ، وهدأ الرجل ، وبذلك يعلم ما كان للسلطان من نفوذ غريب في دولته ورعيته ، وانتهت الحرب التي استمرت خمسة أعوام وانتهت محنها ومتاعبها والسلطان هو الملك الوحيد من جبال الكرد إلى صحراء النوبة ، وكان ملك بلاد الكرد وملك آرمينيا وسلطان قونية وقيصر قسطنطينية وراء هذه الحدود يحرصون على صداقة صلاح الدين ومساعدته وما قبل صلاح الدين أن يكون عليه منة لأحد من هؤلاء ، ولم يحضروا قط لنجدته إنما حضروا لتهنئته .

وكان صلاح الدين بطل هذه المعركة ومركز هذه الدائرة ، وكان أخوه العادل هو الشخصية الثانية التي ظهرت على مسرح القتال ، ولا نعرف أحداً من القواد والأمراء استولى عليه ، وكان عنده مجلس حربي يستشيره في أمور الحرب ، وقد وقع نادراً أن غلب رأي هذا المجلس الخاطئ على رأي السلطان الصحيح ، كما كان أمام صور وعكة ، ولكن لم يكن أحد من أعضاء هذا المجلس مستأثراً به دون غيره ، لقد كان الإخوة والأبناء ، وأبناء الإخوان ، والزملاء القدماء ، والولاة الجدد ، والعقلاء ، والقضاة الأذكياء ، والمعتمدون الأوفياء ، والمتعصبون ، والوعاظ ، والعلماء كلهم متفقين على الجهاد ، وقاتلوا تحت لوائه جنباً بجنب ، وخدموه بكل ما

عندهم من قوة وكفاية ونصيحة ، وكان كل يعلم أن صلاح الدين سيد الجميع وأميرهم ، وكان قلب واحد وإرادة واحدة تسيطر عليهم فى أزمات مختلفة وساعات عصيبة وحروب طاحنة ، هو قلب صلاح الدين القوى وإرادته الحديدية» اهـ .

*** فقر القيادة فى العالم الإسلامى بعد صلاح الدين :**

مات صلاح الدين بعدما قضى مهمته إلى حد بعيد ، وانجلى الخطر القريب العاجل الذى كان يهدد كيان الإسلام ومركزه ، وتراجع سيل الصليبيين وقد تعلموا دروساً مفيدة ودرسوا جوانب الضعف والقوة فى كلتا الجبهتين ، رجعوا ليستعدوا للصليبية الجديدة فى القرن التاسع عشر المسيحى ، وعاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى من انقسام وتنافس ، وتطاحن وغفلة ، ولم يرزق العالم الإسلامى بعد ذلك قائداً مخلصاً للإسلام ، مؤثراً لمصلحته على هواه ، متجرداً للجهاد ، محبباً تجتمع حوله القلوب مثل صلاح الدين الذى استطاع بحول الله وقوته وبمواهبه العظيمة أن يدحر أوربا كلها ، ويحفظ للإسلام ملكه وشرفه ، وعم الانحطاط فى العالم الإسلامى واستفحل مع الأيام .

*** نتائج القرون المنحلة :**

وظلت خلية الإسلام تعمل فى أدوار الانحطاط أيضاً ، ويظهر من الملوك والفاتحين أفراد هم أنموذج الصحابة والسلف الصالح فى سيرتهم وأخلاقهم ، فى دينهم وتقواهم ، وينهض في العالم الإسلامى رجال يتجمل التاريخ بذكرهم .

وكان المسلمون – رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثالى – أقرب إلى طريق الأنبياء وأطوع لله من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم ، وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية فى انتشارها وازدهارها ، وكانوا رغم نقائصهم أكبر قوة فى العالم تهابها الدول ، وتحسب لها كل حساب .

*** انهيار صرح القوة الإسلامية :**

ولم تزل تضعف هذه القوة وتهن بدون أن يشعر بذلك الأجانب حتى إذا خضّدَت شوكة المسلمين فى القرن السابع لما مزق التتار حكومة خوارزم شاه – المملكة الإسلامية الأخيرة – وسقطت بغداد فى أيديهم زال ذلك الشبح المخيف

وسقط المجدار [1] فعاثت الطيور والوحوش فى الحقل ، وتجاسر الناس على المسلمين وبلادهم.

ورث التتار والمغول تراث المسلمين وخلفوهم فى الحكومة ، وناهيك به بؤساً وشقاء للإنسانية وخراباً للعالم أن يتولى قيادة العالم أمة جاهلة وحشية ليس عندها دين ولا علم ولا ثقافة ولا حضارة .

★ ★ ★

(١) المجدار : ما ينصب فى الزرع لطرد الطير والوحش .

الفصل الثالث
دور القيادة العثمانية

* العثمانيون على مسرح التاريخ :

في ذلك الحين ظهر الترك العثمانيون على مسرح التاريخ ، وفتح محمد الثانى ابن مراد ، وهو ابن أربع وعشرين سنة القسطنطينية العظمى عاصمة الدول البيزنطية المنيعة سنة ٧٥٣ هـ (١٤٥٣م) فتجدد رجاء الإسلام وانبعث الأمل فى نفوس المسلمين ، وكان الترك وعلى رأسهم آل عثمان موضعاً للثقة فى قيادة الأمم الإسلامية وفى استرداد قوة المسلمين ومكانتهم فى العالم ، وكان فتحهم للقسطنطينية التى استعصت على المسلمين ثمانية قرون [1] دليلاً على كفاءتهم وقوتهم ، وبلوغهم درجة الاجتهاد فى صناعة الحرب ، وحسن قيادتهم العسكرية وتفوقهم على الأمم المعاصرة فى آلات الحرب واستخدامهم لمهمتهم قوة العلم والعمل ، وكل ذلك ما لا غنى للأمة عنه .

* تفوق محمد الفاتح فى فن الحرب :

وقد كان محمد الفاتح – كما يقول درابر – يعرف العلوم الرياضية ويحسن تطبيقها على الفن الحربى ، وكان قد أعد لهذا الفتح عدته ، واستفاد كل ما فى عصره من معدات حربية .

قال البارون « كارادفو » (Barron Carra de vaux) فى كتابه « مفكرو الإسلام » فى الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتح :

« إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسر لمجرد ضعف دولة بيزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له كل ما

---

(١) غزا الأسطول العربى القسطنطينية بقيادة بسر بن أرطأة سنة ٤٤ للهجرة وفق سنة ٦٦٤ للمسيح ، وحاصر يزيد بن معاوية القسطنطينية سنة ٥٢ هجرية وفق سنة ٦٧٢ مسيحية ، وحاصرها العرب أربع مرات على الأقل بعد ذلك ، ولم يفتحوها لمنعتها .

كان فى عصره من قوة العلم ، فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالإيجاد ، فأعمل فى تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرياً ركب مدفعاً كان وزن الكرة التى يرمى بها ٣٠٠ كيلو جرام ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ،و قيل : إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه ، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل ، ومعه مدفعية هائلة ، وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر (١٢٠) سفينة حربية ، وهو الذى – من قريحته – تصور سحب جانب من الأسطول من البر إلى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم (٧٠) سفينة أنزلها فى البحر من جهة قاسم باشا [١] » .

* **مزايا الشعب التركى :**

وقد تفرد الشعب التركى المسلم تحت قيادة آل عثمان بمزايا اختص بها من بين الشعوب الإسلامية يومئذ واستحق بها زعامة المسلمين :

أولاً – أنه كان شعباً ناهضاً متحمساً طموحاً فيه روح الجهاد ، وكان سليماً – بحكم نشأته وقرب عهده بالفطرة والبساطة فى الحياة – من الأدواء الخلقية والاجتماعية التى أصابت الأمم الإسلامية فى الشرق فى مقتلها .

ثانياً – أنه كان متوفراً لديه القوة الحربية التى يقدر بها على بسط سيطرة الإسلام المادية والروحية ، ويرد بها غاشية الأمم المناوئة وعاديتها ، ويتبوأ بها قيادة العالم ، فقد بادر العثمانيون فى صدر دولتهم لاستعمال المعدات الحربية وخصوصاً النارية منها واهتموا بالمدافع ، وأخذوا بالحديث الأحدث من آلات الحرب ، عنوا بفن الحرب وتنظيم الجيوش وتعبئتها حتى صاروا فى صناعة الحرب أئمة بغير نزاع، والمثل الكامل والقدوة لأوربا .

---

(١) من حواشى الأمير شكيب أرسلان على « حاضر العالم الإسلامى » الجزء الأول ، ص ٢٢٠ ، الطبعة الثانية.

وكانوا يحكمون في ثلاث قارات : أوربا ، وآسيا ، وإفريقية ، ملكوا الشرق الإسلامي من فارس حتى مراكش ، ودوخوا آسيا الصغرى، وتوغلوا في أوربا ، حتى بلغوا أسوار « فيينا » وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع ...... قد جعلوه بحيرة عثمانية لا أثر للأجنبي حوله ، وقد كتب معتمد القيصر بطرس الأكبر لدى الباب العالي أن السلطان يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة ، فلا يباح دخوله لأجنبي، وأنشأوا أسطولاً عظيماً لا قبل لأوربا به حتى اجتمعت لسحقه كل من عمارات البابا والبندقية وإسبانيا والبرتغال ومالطة عام ٩٤٥هـ - ١٥٤٧م - ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئاً .

قد جمعت الإمبراطورية العثمانية في عهد سليمان القانوني الكبير بين السيادتين البرية والبحرية ، وبين السلطتين السياسية والروحية .

بلغت حدود الدولة العثمانية على ملك سليمان الطونة والصاوة (النهرية) في الشمال ونبع النيل والمحيط الهندي في الجنوب، وسلسلة جبال القفقاس في الشرق وجبال أطلس في الغرب وهي مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف ميل مربع .

وكان الأسطول العثماني مؤلفاً مما يزيد على ٢٠٠٠ مركب حربي ، وكان القسم الشرقي من بحر سفيد وبحر الأدرياتيك ومرمرة وأزاق والأسود والأحمر وفارس في حوزته وتحت سيطرته .

ودخل كل مدينة شهيرة في العالم القديم ما عدا رومة في ضمن حدود الدولة العثمانية [1] ، وكانت أوربا كلها ترتعد منهم فرقاً ، ويدخل ملوكها الكبار في ذمة ملوكهم ، ويمسك أهل الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك إذا نزلوا بها وأمر البابا أن يحتفل بعيد ، وأن تقام صلوات الشكر مدة ثلاثة أيام لما أتاه نعي محمد الفاتح .

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني لمحمد جميل بيهم . ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

ثالثاً – كانوا فى أحسن مركز للقيادة العالمية ، كانوا فى شبه جزيرة البلقان بحيث يشرفون منها على آسيا وأوربا ، وكانت عاصمتهم واقعة بين البحرين الأسود والأبيض ، وواصلة بين البرين آسيا وأوربا ، فكانت خير عاصمة لأكبر دولة تحكم على آسيا وأوربا وإفريقية ، حتى قال نابليون : « لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها » .

وكانت أوربا لها الخطر الكبير والشأن العظيم فى المستقبل القريب ، تزخر فيها القوى الحيوية وتجيش فى صدورها عوامل الرقى ، فكان فى استطاعة الترك – لو وفق الله – أن يتقدموا فى ميدان العلم والعقل ويسبقوا أمم أوربا النصرانية ويصبحوا أئمة العالم يقودونه إلى الحق والهدى قبل أن تملك أوربا زمام العالم وتقوده إلى النار والدمار .

*** انحطاط الاتراك فى الأخلاق وجمودهم فى العلم وصناعة الحرب :**

ولكن من سوء حظ المسلمين – فضلاً عن سوء حظ الأتراك – أخذ الترك فى الانحطاط والتدلى ودب إليهم داء الأمم من قبلهم : الحسد والبغضاء واستبداد الملوك وجورهم وسوء تربيتهم وفساد أخلاقهم وخيانة الأمراء وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة،إلى غير ذلك من أخلاق الأمم المنحطة مما هو مبين فى كتب التاريخ التركى ، وليس هذا موضع تفصيله ، وكان شر ما أصيبوا به الجمود فى العلم والجمود فى صناعة الحرب وتنظيم الجيوش ، وقد نسوا قول الله تعالى : ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم**﴾(1) إلخ . وقول النبي ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها »(2) ، وكان خليقاً بهم – لحرج مركزهم السياسى والجغرافى ، وقد أحاطت بهم الدول الأوربية إحاطة السوار بالمعصم – أن يجعلوا وصية القائد الإسلامى الكبير عمرو بن العاص رضى الله عنه للمسلمين فى مصر نصب أعينهم : « واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم » ولكن الترك وقفوا وتقدم الزمان ، وتخلفوا وسبقت الأمم الأوربية .

---

(1) آية ٦٠ : الأنفال .

(2) رواه الترمذي – العلم – رقم :٢٨٢٧.

*** الجمود العلمى فى تركيا :**

وقد وصفت الكاتبة خالدة أديب هانم هذا الجمود العلمى فى تركيا وصفاً يحسن بنا أن ننقله هنا قالت :

« ما دامت فلسفة المتكلمين تهيمن على الدنيا ظل علماء الإسلام فى تركيا يقومون بواجبهم ويحسنون القيام به ، وكانت المدرسة السليمانية ومدرسة الفاتح مركزين للعلوم والفنون السائدة فى ذلك الزمان ، لكن لما نشط الغرب من عقال الفلسفة الإلهية والمباحث الدينية الكلامية ووضع أساس العلم الحديث والحكمة الجديدة فأحدث انقلاباً فى العالم لم تعد جماعة العلماء تقدر على الاضطلاع بأعباء التعليم والقيام بواجبات المعلمين . كان يعتقد هؤلاء أن العلم لا يزال حيث كان فى القرن الثالث عشر المسيحى لم يتجاوز ذلك المقام ولم يتقدم ، ولم تزل هذه الفكرة الخاطئة سائدة على نظامهم التعليمى إلى القرن التاسع عشر المسيحى » .

« إن فكرة علماء تركيا والبلاد الإسلامية الأخرى هذه ليست من الدين فى شيء ، إن الفلسفة الإلهية أو علم الكلام الذي كان عند المسلمين أو النصارى ، إنما كان مبنياً على فلسفة الإغريق ، وكان الغلبة فيه لأفكار أرسطاطاليس الذي كان فيلسوفاً وثنياً ، ويجدر بى فى هذا المقام أن أقارن بإجمال بين عقلية العلماء المسيحيين والمسلمين » .

« لم يتعرض القرآن الكريم بالتفصيل لمسألة خلق العالم الطبيعى ، والقسط الأوفى فى تعليمه والأهمية الكبرى للحياة الخلقية والاجتماعية ، ومقصوده الأكبر فصل ما بين الحسن والقبيح والخير والشر ، إنه جاء بشريعة للعالم ، وكلما ذكر مسألة من مسائل ما بعد الطبيعة أو المعارف الروحية قلما نرى فيها تقيداً أو إشكالاً ، إن أساس تعليمه التوحيد ، فكان الإسلام ديناً سمحاً بسيطاً ، وهو أفسح صدراً للنظريات الجديدة عن العالم الطبعى من الأديان الأخرى بكثير ، ولكن هذا التسامح وهذه البساطة التى كانت تساعد فى التحقيق العلمى الجديد لم تطل مدتها فى حياة المسلمين . قيد العلماء والمتكلمون فى القرن التاسع الهجرى الإلهيات – فضلاً عن الفقه – بسلاسل وقيود ، وأوصدوا باب التحقيق والاجتهاد ، فى ذلك الوقت تغلغلت أفكار أرسطاطاليس فى الفلسفة الإسلامية » .

« بالعكس من ذلك الدين المسيحى – الذى هو أولى بأن يسمى دين الراهب

بولس – فإن « سفر بدء التكوين » يحتوى على تفصيل للعالم الطبيعي ، وإذ آمن النصارى بأنه كلام الله كان الواجب عليهم أن يقرروا صدقه ، ولما كانت المشاهدة لا تؤيدهم فى هذا التأويل لجأوا إلى الاستدلال وتمسكوا بأهداب أرسطاطاليس ، لأن منطقه يعمل عمل السحر » .

« لما بدأ الغرب فى دراسة الطبيعة بواسطة المشاهدة والاختبار والتحليل والتجزئة سقط فى أيدى رجال الكنيسة ، ولما وصل العلماء بطرق عملية إلى اكتشافات مهمة خاف علماء النصرانية على سيادة الكنيسة أن تنقرض ، فحدث صراع عنيف بين الدين والعلم ، وذهب كبار علماء الطبيعة الذين كانوا عاكفين على دراستهم وتحقيقهم ضحية علمهم » .

« واضطرت الكنيسة النصرانية بعد المعارك الدموية بين الدين والعلم أن تواجه الواقع ، فأدخلت علوم الطبيعة فى برنامج مدارسها وكلياتها ، وأصبحت جامعاتها التى لم تكن تختلف بالأمس عن مدارس المسلمين ، مركزاً للعلوم الطبيعية والعلوم الحديثة ، ولم تهجر مع هذا فلسفتها ، وكان نتيجة ذلك أن ظل للكنيسة سلطان على فريق من الطبقة المثقفة ، وكان للقسس الكاثوليك والبروتستانت مشاركة فى العلوم الحديثة ، وكانوا يقدرون على أن يباحثوا الناشئة فى كل موضوع .

« وكان العلماء فى تركيا العثمانية على الضد من ذلك ، فلم يعنوا باكتساب العلوم الحديثة ، بل منعوا الأفكار الجديدة أن تدخل فى منطقتهم ، وإذ كانوا متصرفين بزمام تعليم الأمة الإسلامية ولم يسمحوا لشيء طريف بأن يقرب منهم ، فإن الجمود قد تغلب على نظامهم التعليمي ، وكانت مشاغلهم السياسية قد طغت فى دور الانحطاط ، وكانت لا تسمح لهم بأن يتحملوا متاعب المشاهدة والاختبار ، فلم يكن لهم إلا أن يلحوا على فلسفة أرسطاطاليس ، ويبنوا علمهم على الاستدلال فلم تزل المدارس الإسلامية فى القرن التاسع عشر المسيحى ، كما كانت فى القرن الثالث عشر المسيحى (١) » .

---

(١) « صراع الشرق والغرب فى تركيا » : محاضرات فى الإنجليزية لخالدة أديب ألقتها في الجامعة الملية الإسلامية ، الخطبة الثانية « انحطاط العثمانيين » ص ٤٠ – ٤٣ .
Conflict of East and West in Turkey by Halide Edib p. 40 - 43

*** الانحطاط الفكري والعلمي العام :**

ولم يكن الجمود العلمي والكلال الفكري مقتصرين على تركيا وأوساطها العلمية والدينية فحسب ، بل كان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصاباً بالجدب العلمي ، وشبه شلل فكري ، قد أخذه الإعياء والفتور ، واستولى عليه النعاس . ولعل القرن التاسع - إذا لم نقل القرن الثامن - آخر قرون النشاط والتوليد والابتكار في الدين والعلم ، والأدب والشعر والحكمة ، والقرن العاشر أول قرون الجمود والتقليد والمحاكاة ، وترى هذا الخمود عاماً شاملاً للعلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم ، فلا تجد في كتب التراجم التي ألفت للعصور الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقري ، أو النابغة أو المحقق على الأقل ، أو من جاء في فن من الفنون بشيء طريف مبتكر ، أو زاد في العلم زيادة حسنة ، إذا استثنينا بعض الأفراد في أطراف العالم الإسلامي ، كالشيخ أحمد بن عبدالأحد السرهندي (م ١٠٢٤ هـ) صاحب الرسائل الخالدة في الشريعة والمعارف الإلهية ، والشيخ ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) صاحب حجة الله البالغة وأزالة الخفاء والفوز الكبير ورسالة الإنصاف ، وابنه الشيخ رفيع الدين (م١٢٣٣هـ) صاحب تكميل الأذهان وأسرار المحبة ، والشيخ إسماعيل بن عبدالغني بن ولي الله الدهلوي (م ١٢٤٦ هـ) صاحب منصب الإمامة والعبقات والصراط المستقيم [1]

ولا نقرأ في شعر هذه العصور الأخيرة على كثرة ما نظم وقيل فيها شعراً مطبوعاً يعلق بالذهن ، أو إنشاء مترسلاً ينشرح له الصدر ، ترى أدباً فاتراً بارداً قد أفسده التأنق في الحلية اللفظية والمبالغة والتهويل في الألفاظ والمعاني وكثرة التملق في المدح والغزل بالمذكر في الشعر ، والتكلف حتى في الرسائل الإخوانية والأغراض الطبيعية والسجع البارد حتى في كتب التاريخ والتراجم .

---

(١) انظر تراجمهم في كتاب نزهة الخواطر للعلامة عبدالحي الحسني المجلد الخامس والسادس والسابع .

كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين ، وغصت بالحواشي والتقريرات والتلخيصات والمتون التى ضن فيها مؤلفوها على القرطاس ، وتعمدوا التعقيد والغموض ، وكأنهم ألفوها فى صناعة الاختزال ، وكل ذلك ينبئ عن الانحطاط الفكرى والعلمى الذى حل بالعالم الإسلامى وتغلغل فى أحشائه .

*** معاصرو العثمانيين فى الشرق :**

وعاصرت الدولة العثمانية دولتان قويتان فى الشرق ، إحداهما الدولة المغولية التى أسسها بابر التيمورى (سنة ٩٣٣ هـ ١٥٤٦ م) وكان معاصراً للسلطان سليم الأول وتوالى على عرشها ملوك من أعظم المسلمين شوكة وأبهة وقوة حربية واتساع مملكة ، وكان أعظمهم أورنك زيب ، وكان آخر الملوك التيموريين الأقوياء وأوسعهم وأعظمهم فتوحاً وأمتنهم ديانة وأعرفهم بالكتاب والسنة ، وقد عاش أكثر من تسعين سنة وحكم خمسين وتوفى (سنة ١١١٨ هـ) أى فى فجر القرن الثامن عشر المسيحى ، وهو عصر مهم جداً فى تاريخ أوربا ولكنه لم يكن هو ولا سلفه على شيئ من الاتصال بما كان يجرى فى أوربا وما تتمخض به من حوادث جسام ، وما يفور في صدره من عوامل الرقي والنهضة ، وكانوا ينظرون إلى من يغشاهم من تجار أوربا وأطبائها أو سفراء دولها – على قلة ورودهم من هذه البلاد النائية – نظر الاستخفاف والاحتقار .

وكانت تصاقب دولتهم فى أفغانستان الدولة الصفوية ، وكانت راقية متحضرة ولكنها شغلت بنزعتها الشيعية وبالهجوم على الدولة العثمانية مرة والدفاع عن نفسها مرة أخرى .

وانحصر هاتان الدولتان فى قطرهما وكانتا بمعزل عما يقع فى الشرق الأدنى فضلاً عن الغرب ، وفى البلاد الإسلامية فضلاً عن البلاد الأجنبية ، أما التحالف والتكتل فلم يكن يخطر من أحد منهم على بال ، وذلك مما طبعت عليه الدول الشرقية والحكومات الشخصية ووصى بها الآباء الأبناء ،وكذلك دراسة أحوال أوربا العلمية والحربية واقتباس العلوم والصنائع من الخارج فلم يكن يدور بخلد إنسان فى ذلك العصر .

***نهضة أوربا الجاهلية وسيرها الحثيث فى علوم الطبيعة والصناعات :**

وكان القرن السادس عشر والسابع عشر المسيحى من أهم أدوار التاريخ الإنسانى الذى له ما بعده ، قد استيقظت فيه أوربا من هجعتها الطويلة ، وهبت من مرقدها مجنونة تتدارك زمان الغفلة والجهل وتعدو إلى غايتها عدواً ، بل تطير إليها بكل جناح ، تسخر قوى الطبيعة وتفضح أسرار الكون ، وتكشف عن بحار وقارات كانت مجهولة وتفتح فتوحاً جديدة فى كل علم وفن وفى كل ناحية من نواحى الحياة ونبغ فى هذه المدة القصيرة رجال ومبتكرون فى كل علم وعبقرية أمثال كوبرنيكس (Copernicus) وبرونو (Brunoe) وغليليو (Galilio) وكبلر (Ke-pler) ونيوتن (Newton) ، وغيرهم الذين نسخوا النظام القديم وأسسوا نظاماً حديثاً واكتشفوا عوالم فى العلم ، ومن الرحالين المكتشفين أمثال كلمبس (Columbus) وفاسكودى غاما (Vasco Dagama) ومجلن (Maglin). كان تاريخ الأمم فى هذا الدور فى صياغة وسبك ، وكانت نجوم الأمم والشعوب بعضها فى أفول وبعضها فى طلوع ، يصير الآفل منها طالعاً والطالع آفلاً ، وكانت ساعة فى ذلك الزمان تساوى يوماً بل أياماً ، ويوم يساوى عاماً بل أعواماً ، فمن ضيع ساعة فقد ضيع زمناً.

*** تخلف المسلمين فى مرافق الحياة :**

ولكن المسلمين لم يضيعوا ساعات وأياماً بل ضيعوا أحقاباً وأجيالاً انتهزت فيها الشعوب الأوربية كل دقيقة وثانية ، وسارت سيراً حثيثاً فى كل ميدان من ميادين الحياة وقطعت فى أعوام مسافة قرون .

ومما ينبئ عن مقدار خمول تركيا فى ميدان العلوم والصناعات أن صناعة السفن لم تدخل فى تركيا إلا فى القرن السادس عشر المسيحى ، ولم تدخل المطابع فى العاصمة والمحاجر الصحية فى هذه الدولة إلا فى القرن الثامن عشر ، وكذلك مدارس الفنون الحربية على النسق الأوربى . وفى آخر هذا القرن كانت تركيا بمعزل عن الصناعات والاكتشافات ، حتى لما شاهدوا بالوناً يحلق فوق العاصمة ظنوه من أعمال السحر والكيمياء ، قد سبقتها دول أوربا الصغيرة فى الأخذ بأسباب المدنية والرفاه العام ، وحتى سبقتها مصر فى اتخاذ السكك الحديدية واستعمال القطارات بأربعة أعوام وفى استعمال طوابع البريد ببضعة أشهر .

* **تخلفهم فى صناعة الحرب :**

ولم يكن انحطاط المسلمين فى العلوم النظرية والحكمية والمدنية فحسب ، بل كان هذا الانحطاط عاماً شاملاً ، حتى تخلفوا عن أوربا فى صناعة الحرب التى كان التركى فى الزمن الأخير ابن بجدتها وأبا عذرتها ، قد أقر بفضلهم وتبريزهم فيها العالم ولكن سبقتهم أوربا باختراعها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت جيوشها الجيوش العثمانية هزيمة منكرة (سنة ١٧٧٤م) وظهر سبقها فى ميدان القتال أيضاً فانتبهت الدولة العثمانية بعض الانتباه ، وانتدبت الماهرين الأوربيين لتنظيم الجيش وتربية العساكر ، وعنى السلطان سليم الثالث فى فجر القرن التاسع عشر بالإصلاح ، وكان عصامياً قد نشأ وتعلم خارج البلاط - خلافاً لسابقيه - وأنشأ مدارس جديدة وكان يعلم بنفسه فى مدرسة الهندسة ، وألف جيشاً على الطراز الحديث ، وأدخل تعديلات وتحسينات فى النظام السياسى ، وقد بلغ الشعب حداً كبيراً من الجمود والمحافظة على القديم فى كل شىء حتى ثار عليه الجيش القديم واغتاله ، وخلفه محمود الثانى الذى حكم من سنة ١٨٠٧م إلى سنة ١٨٣٩م ، ومن بعده عبدالمجيد الأول (١٨٣٩م - ١٨٥١م) فخلفا سليماً الثالث فى مهمته وتقدمت تركيا بعض التقدم .

قارن هذا الشوط الذى قطعته تركيا الإسلامية فى ميدان الرقى والتقدم ، بالأشواط التى قطعتها أوربا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر تجد الفرق هائلاً ، فلم يكن جريهما فى الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب ، إلا أن الأرنب ساهر دائب فى عمله ، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتغفى إغفاءة .



الباب الرابع

العصر الأوربى

الفصل الأول

أوربا المادية

*** طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها :**

قبل ان ننظر ماذا أثر تحول القيادة من الأمم الإسلامية إلى الأمم الأوربية فى عقلية العالم وأخلاق الشعوب والأمم والمدنية والاجتماع واتجاهات الإنسانية وميولها وماذا جنى منه النوع الإنسانى وهل كان ربحه أكثر من خسارته ورزئه أو بالعكس؟..... يجب علينا أن نعرف طبيعة الحضارة الغربية ووضعها وروحها وفلسفة حياة هذه الأمم وكيف نشأت ؟ .

ليست الحضارة الغربية فى القرن العشرين المسيحى وليدة هذه القرون المتأخرة التى تلت القرون المظلمة فى أوربا أو حديثة كما يتوهم كثير من الناس ، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين ، فهى سليلة الحضارة اليونانية والحضارة الرومية قد خلفتهما فى تراثهما السياسى والعقلى والمدنى ، وورثت عنهما كل ما خلفتا من ممتلكات ونظام سياسى وفلسفة اجتماعية ، وتراث عقلى وعلمى ، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما ، بل انحدرت إليها فى الدم ، فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر رائع - حفظه لنا التاريخ - للعقلية الأوربية وأول حضارة - سجلها التاريخ - قامت على أساس الفلسفة الأوربية تجلت فيها النفسية الأوربية ، وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومية تحمل روحاً واحدة هى الروح الأوربية ، وظلت الشعوب الأوربية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها ، وارثة لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها ، حتى برزت بها فى القرن التاسع عشر فى ثوب براق يوهمك - بطلاوته وزهو ألوانه - أنه جديد النسج ولكن لحمته وسداه من نسج اليونان والرومان .

إذاً يحسن بنا أن نتعرف بالحضارة اليونانيـة والرومية أولاً وأن نعرف طبائعهما وروحهـما ، حتى نكون على بصيرة فى انتقاد الحضارة الغربية والحكم عليـها فى القرن العشرين .

*** خصائص الحضارة الإغريقية :**

اليـونان أمة مـوهوبة ، من أنجب أمم العـالم وأذكـاها وأكثـرها استعـداداً للعلم والأدب ، ومن أخصبـها أذهاناً وعقولاً ، وقد مـثلت فى العالم دوراً خالداً بفلسفتها وأدبها ووفـرة من نبغ فيـها من العلـماء والحكماء والعبقـريين تزهو بآثارهم مكتـبات العالم .

والذى يعنينا الآن هو أن نعرف طبيـعة الحضارة التى أنشأوها ، فإذا نظـرنا فيها نظرة تحليل وانتقـاد وصرفنا النظر عما تشترك فيه مع الحـضارات من مظاهر وظواهر وبحثنا عن طبيعـتها وخصائصها وجدنا من المزايا التى تمتـاز بها عن المدنيات الأخرى – خصوصاً المدنيات الشرقية – ما يلى :

(١) الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس .

(٢) قلة الدين والخشوع .

(٣) شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها .

(٤) النزعة الوطنية .

ويمكن أن نحصر هذه المظاهر المتشتتة فى كلمة مفردة وهى « المادية » فكانت الحضارة اليونانية شعارها « المادية » وهى التى ينـم بها كل ما يتصل باليونان من ثقافة وعلم وفلسفـة وشعر ودين ، فلم يستطيعوا أن يتـصوروا صفـات الله وقدرته إلا فى شكل آلهـة نحـتوا لهـا تماثيل وبنوا لهـا مـعابد وهيـاكل ، فللرزق إله ولـلرحمـة إله ، وللقهر إله ، ثم نسـبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادى ونسجوا حـولها نسائج من أساطير وخرافات ، وصوروا المعانى المجردة وتصوروها فى أجسام وأشكال ، فللحب إله وللجمال إله ، وليس نظام العقول العشرة والأفلاك التسعة فى فلسفة أرسطاطاليس إلا رشحة من رشحات هذه المادية التى لا تتخلى عنها الطبيعة اليونانية .

وقد سلم العلماء الأوربيـون بغلبة المادية فى الحضارة اليـونانية ، ونوهوا بها فى كتبهم وبحوثهم العلميـة ، وقد ألقى العالم الألمانى الدكتور « هاس » (Hass) ثلاث

محاضرات في جنيف عنوانها « ما هي المدنية الأوربية ؟ » وهو من العلماء الذين يرون أن المدنية الغربية لم تتأثر بالشرق ، وأنها مدنية مفردة ممتازة ، ونلخص هنا كلامه فيما نحن بصدده :

« المدنية اليونانية هي مركز المدنية الغربية الحاضرة ، وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءاً مناسباً ، وكان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب وليس هذا إلا اعتداداً بالمحسوسات اعتداداً كبيراً ، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية والألعاب الرياضية والرقص وغيره ، وكان التثقيف الذهني الذي يحتوى على الشعر والغناء والتمثيل والفلسفة وعلوم الطبيعة لا يتجاوز حداً خاصاً حتى لا يكون ارتقاء الذهن على حساب الجسم ، وكان الدين خلواً من الروحانية المعنوية ، لم يكن فيه علم الدين ولا طبقة رجال الدين . أما اللون الروحي الذى في تقاليد « أزفس » وغيرها فإنما هو مستعار من الشرق ولا يصح أن ينسب إلى المدنية اليونانية » .

ولاحظ كثير من العلماء الأوربيين رقة الدين في اليونان وقلة الخشوع والجد في أعمالهم وكثرة اللهو والطرب في حياتهم . يقول ليكى في كتابه « تاريخ أخلاق أوربا » : « إن الحركة اليونانية كانت عقلية وذهنية محضة ، وكانت الحركة المصرية بالعكس من الأولى ، روحية باطنية . وينقل « أبوليس » المؤلف الرومى قوله : « إن المصريين يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء » ويعلق عليه بقوله : « لا ريب أن التاريخ اليونانى يصدق ذلك ويؤيده ، فلا نعلم ديناً من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده في كثرة الأفراح والأعياد والألعاب وفى قلبه الخشية والخشوع ، فلم يكن اليونان يعظمون الله تعالى إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم ، وكانوا يكتفون في تعظيمه وتمجيده برسوم عادية وتقاليد جارية » .

وكان لليونان فلسفة إلهية وعقائد يستغرب معها الخشوع لله وعبادته والتضرع له والالتجاء إليه والاطراح على عتبته ، فإن من ينفي الصفات عن الله تعالى ويعطله وينفى عنه الاختيار والأفعال والخلق والأمر في هذا الكون ، ويربط هذا العالم بما يسمونه « العقل الفعال وحركات الأفلاك » فإنه بطبيعة هذه العقيدة لا يقصد الله في حياته العملية إلا تقليداً ، ولا يرجوه ولا يهابه ولا يحبه ولا يخر لعظمته ، ولا يستغيث به في شدته ولا يسبح بحمده ويعيش كأنه لا إله ولا رب ، فإذا سمعنا أن اليونان لم يكونوا خاشعين لله وكانت عباداتهم وأعمالهم الدينية

أجساداً بغير أرواح ، وأنهم كانوا يعظمون الله كما كانوا يعظمون شيوخهم وكبارهم لم نستغربه البتة ، وإنما نتعجب إذا سمعنا عكس ذلك ، وقد أثرت شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والمبالغة فى قيمتها ، وكذلك الولوع بالتماثيل والصور والغناء والموسيقى التى يسميها اليونان الفنون الجميلة ولهج الأدباء والمؤلفون بالحرية الشخصية التى لا تعرف قيداً ولا تقف عند حد، تأثيراً سيئاً فى أخلاق اليونان ومجتمعها ، فانتشرت الفوضى فى الأخلاق وحدثت ثورة على كل نظام ، وأصبح شعار الرجل الجمهورى (وهو كناية عن الحر والمتنور) الجرى وراء الشهوات العاجلة ، وانتهاب المسرات ، والتهام الحياة التهام الجائع النهم . يصف سقراط — كما ينقل عنه أفلاطون فى كتابه « المملكة » الرجل الجمهورى فكأنما يصف ناقد من نقاد هذا القرن فتى القرن العشرين فى إحدى عواصم المدنية الغربية :

« إذا قيل له : إن بعض المسرات من الرغبات التى هى طيبة وتستحق الاحترام وبعضها من الشهوات التى هى قبيحة ، وإن الأولى ينبغى أن يعمل بمقتضاها وتحترم والأخرى مما ينبغى أن يمنع عنها ويقام عليها الحجر ، لم يقبل هذا الرجل هذا القانون الصحيح ولا يسمح بسماعه ، فإذا عرضت عليه هذه الحقائق أنغض إليه رأسه مستهزئاً وأكد أن جميع الشهوات سواء وتستحق الاحترام بغير فرق بينها ، وهكذا يعيش ويقضى أيامه مرضياً شهواته التى تعتريه أحياناً ، ذات يوم تراه سكران ثملاً مصغياً إلى الغناء ، وفى يوم آخر تراه صائماً يجتزئ بالماء ، وتارة يدخل فى التربية والتمرين ، وأخرى تراه كسلان عاطلاً يهمل كل شىء ، ومرة تراه يعيش عيش فيلسوف ، وأحياناً يدخل فى السياسة وينهض ويخطب بمقتضى الوقت ، ربما يمدح بعض رجال الحرب والجندية ويميل إليهم أو يشرع فى التجارة لأنه يغبط التاجر الرابح، ليس لحياته نظام ولا ضبط ولكنه يعد هذه الحياة هنيئة ناعمة سارة ويواصلها إلى النهاية » .

أما الوطنية فهى من لوازم الطبيعة الأوربية ، وهى أظهر وأقوى فى أوربا منها فى آسيا ، وقد أغرى بذلك الطبيعة الجغرافية وأوحته ، لأن المناطق الطبيعية فى آسيا واسعة جداً وتشمل على مناخات وعلى أجيال وأنواع كثيرة للبشر ، وهى غنية مخصبة في وسائل المعيشة ، فالمملكة فى القارة الآسيوية تجنح بحكم الطبيعة إلى السعة والعموم ، وظهرت فى أرضها وازدهرت أوسع ممالك عرفها التاريخ ، أما فى

أوربا فالتنازع على البقاء فيها شديد ، والكفاح للحياة دائم مستمر ، لتزاحم العمران وضيق المناطق وقلة وسائل المعيشة ، وقد حصرت الجبال والأنهار الأجناس الأوربية ، فى نطاق ضيق طبعي دائم ، وبالأخص الجزء الأوسط الغربى والجزء الجنوبى من أوربا ، لا يسمح لممالك واسعة عظيمة ، وقد شاءت طبيعة هذه القارة أن تكون منشأ لممالك ضيقة صغيرة ، لذلك كان التصور السياسى فى أوربا فى القديم لا يكاد يجاوز ممالك بلدية لا تزيد منطقتها على أميال مستقلة استقلالاً تاماً ، وأكبر مظهر لهذا التصور أرض اليونان حيث وجدت من فجر التاريخ عشرات من مدن صغيرة مستقلة .

فلا عجب إذا كان اليونان يدينون بالوطنية وينتحلونها وقد سلم « ليكى » أن الفكرة الوطنية هى الفكرة السائدة فى اليونان ، وكانت الفكرة العالمية التى قد نطق بها بعض حكمائهم كسقراط وانكساغورس شاذة لم تنل أنصاراً وانتصاراً فى يونان فكان نظام ارسطاطاليس الأخلاقى مبنياً على التمييز بين اليونانى وغير اليونانى ، وكان حب الوطن يتقدم فضائل الأخلاق التى أجمع عليها حكماء اليونان ، وأن أرسطاطاليس لم يكتف بحب وطنه والولاء له فحسب ، بل قال : إن اليونانيين ينبغى لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم ، وقد راجت هذه الفكرة الوطنية الضيقة فى الأوساط اليونانية وتغلغلت فى الأحشاء ، حتى لما قال فيلسوف إنه لا يخص مواطنيه بمواساته بل سيكون بره عاماً لجيمع اليونانيين استشرفه الناس عجباً ونظروا إليه شزراً .

*** خصائص الحضارة الرومية :**

خلف اليونان الروم وفاقوهم فى القوة والتنظيم للمملكة واتساع الدولة وصفات الجندية ، ولكن لم يلحقوا بهم بعد فى العلم والفلسفة والآداب والشعر والتهذيب واللباقة والمدنية التى كان للإغريق فيها فضل وتقدم على جميع الأمم المعاصرة وعلى الروم أيضاً الذين كانوا لا يزالون فى دورهم العسكرى ، فخضعوا لهم علمياً وتطفلوا على مائدتهم واقتبسوا من علومهم وفلسفتهم وأفكارهم .

يقول ليكى :

« إن اليونان كانت لهم ثروة علمية ضخمة أنتجوها وزادوا فيها على مر القرون والعصور ، وكانت رومة لا تزال فى طورها الجندى لا تملك أثراً من الآثار

الأدبية ، بل كانت لغتها قاصرة فى التعبير عن الأفكار والمعانى العالية ، فغلب الروم بتخلفهم وقصورهم فى العلم ، وانقلبوا صاغرين للمدنية اليونانية التى غلب أهلها فى السياسة ، ولم يزالوا مأخوذين بسحرهم فى كل قسم من أقسام العلم ، فكان المؤرخون الأقدمون فى الروم يؤلفون كتبهم باليونانية ، واستمرت اليونانية لغة التأليف والعلم بعد ما بدأ شعراء الروم ينظمون الشعر فى اللاتينية » .

ولم يكن هذا الخضوع خاصاً فى عالم التأليف والأدب فحسب ، بل غلبت المدنية الإغريقية المدنية الرومية فى الأخلاق والسجايا والعشرة والاجتماع وفى العواطف والنزعات ، وفى كل ناحية من نواحى الحياة العامة ، وأصبح الروم يقلدون الإغريق ويتنبلون بذلك ويتظرفون .

وهكذا انتقلت الفلسفة اليونانية والثقافة اليونانية ، بل النفسية اليونانية إلى الروم ، وجرت منهم مجرى الروح والدم ، ولم يكن الروم – بطبيعتهم الأوربية – يختلفون عن اليونان فى الخصائص الفطرية كثيراً ، بل هناك شبه عظيم بين الأمتين ، إيمان بالمحسوس وغلو فى تقدير الحياة وشك فى دين ، وضعف فى يقين ، واضطراب فى العقيدة ، واستخفاف بالنظام الدينى وطقوسه ، واعتزاز بالقومية وتعصب لها ، وحب مفرط للوطن ، زد إلى ذلك كله اعتداداً بالقوة واحتراماً زائداً لها يبلغ العبادة والتقديس .

يظهر من التاريخ أنه لم يكن للرومان إيمان راسخ فى دينهم ، وإنى أعذرهم فى ذلك ، فإن النظام الدينى الوثنى الخرافى الذى كان سائداً فى رومية يقتضى بطبيعته الشك والاضطراب وضعف الإيمان ، فكلما تقدموا فى العلم وتنورت أفكارهم ، ازدادوا استخفافاً به ، وقد قضوا من أول يوم أن الآلهة لا دخل لهم فى السياسة وأمور الدنيا .

يقول (سيسرو Cicero) :

لما كان الممثلون ينشدون فى دور التمثيل أبياتاً معناها أن الآلهة لا دخل لها فى أمور الدنيا يصغى إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة .

ويقول الراهب (أغستين Auguostine) :

« إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد ويهزأون بهم فى دور

التمثيل » وقد فقد الدين الرومى سلطانه الروحى على معتنقيه ، وبردت العاطفة الدينية فى قلوب الناس حتى تجرأ الناس على الآلهة وأهانوها فى بعض الأحيان ، فإن التاريخ يحدثنا أنه لما غرق أسطول للأمبراطور أغسطس Augustus استشاط غضباً ، وحطم تمثال نيبتون Neptone إله البحر ، ولما مات جرمينيكس Germanicus رجم الناس أنصاب الآلهة (التى كانوا يذبحون عليها) (١)

فلم يكن للدين تأثير فى أخلاق الأمة وسياستها ومجتمعها ، ولم يكن يملك عليهم شعورهم وميولهم ويراقب عليهم أخلاقهم ونزعاتهم ، ولم يكن ديناً عميقاً يحكم على الروح وينبعث من أعماق القلب ، بل كان تقليداً من التقاليد ، كانت السياسة تقتضى البقاء عليه ولو بالاسم والرسم ، يقول ليكى :

« إن الدين الرومى كان أساسه على الأثرة ، ولم يكن يرمى إلا الى رفاهة الأفراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ، والشاهد على ذلك أنه ظهر فى رومية مئات من الأبطال والعظماء ، ولكن لم ينهض فيها زاهد فى الدنيا عزوف عن ملذات الحياة ، ولا تسمع مثالاً فى تاريخ الروم للتضحية والإيثار إلا تجده لا تأثير فيه للدين ولكن مبنياً على الوطنية (٢) » .

والظاهرة التى يمتاز بها الروم من بين أمم الأرض المعاصرة بل بعدها ، والتى أصبحت لها ديناً تدين به وشعاراً تعرف به هى روح الاستعمار والنظر المادى البحت إلى الحياة ، وذلك ما ورثته أوربا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلفتهم فيه .

وقد أجاد وصفه العالم الألمانى المسلم الأستاذ محمد أسد فى كتابه النفيس الإسلام على مفترق الطرق ، قال :

« إن الفكرة التى كانت تسيطر على الإمبراطورية الرومانية هى احتكار القوة لها واستغلال الأمم الأخرى لمصلحة الوطن الرومى فقط ، لم يكن رجالها والقائمون

---

(١) تاريخ أخلاق أوربا :
History of European morals (Thepagan empire) .

(٢) المصدر نفسه .

عليها يتحاشون من أى ظلم وقسوة فى سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتازة ، أما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا للروم فقط ، إن هذه السيرة لا يمكن أن تقوم إلا على إدراك مادى محض للحياة والحضارة ، وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق عقلى ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحية ، إن الروم لم يدينوا بالدين جدياً أبداً ، كانت آلهتهم التقليدية محاكاة شاحبة لأساطير الإغريق وخرافاتهم ، وقد آمنوا بهذه الأرواح محافظة على الرابطة الاجتماعية التى كانت تربطهم وتوحدهم ، فلم يكونوا يسمحون لهذه الآلهة بالتدخل فى حياتهم العملية كان لها أن يأذنوا أن تتكهن بالغيب – إذا سئلت عن ذلك – على لسان الكهان ولكن لم يحلوا لها أبداً أن تفترض شرائع أخلاقية على الناس (١) » .

*** الانحطاط الخلقى فى الجمهورية الرومية :**

وفى نهاية دور الجمهورية سال بالروم سيل الانحطاط الخلقى والبهيمية ، وفاض بحر الترف فى العيش والبذخ فيضاناً عظيماً – غاص الروم فيه الى القاع وسالت فيه النظم الأخلاقية التى كان الروم معروفين بها كالغناء ، وتزعزع البناء الاجتماعى حتى كاد ينهدم ، وقد صوره « درابر » الأمريكى بقلمه البليغ :

« لما بلغت الدولة الرومية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت فى فساد الأخلاق وفى الانحطاط فى الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف و من لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان الا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحف بهم خدام فى ملابس جميلة خلابة وغادات رومية حسان وغوان عاريات كاسيات غير

---

(١) Islam at the Cross Roads p. 38-39.

متعفـفات تـدل دلالاً ، ويزيد في نعيـمهم حـمامـات باذخة ومـيادين للهـو واسعـة ومصـارع يتصـارع فيـها الأبطال مع الأبطال أو مع السـباع ، ولا يزالون يصـارعون حتى يخر الواحد منهم صـريعاً يتـشحط في دمـه ، وقد أدرك هؤلاء الفـاتحون الذين دوخـوا العالم أنه إن كـان هنالك شيء يسـتحـق العبـادة فهـو القـوة ، لأنه بها يقـدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصـحابها بعرق الجبين وكـد اليمين ، وإذا غلب الإنسان في سـاحة القتال بقـوة ساعده فـحينئذ يمكن له أن يصادر الأمـوال والأملاك ويعين إيرادات الإقطاع وإن رأس الدولة الـرومـيـة هو رمـز لهذه القـوة القـاهرة فكان نظام رومـة المدني يشف عن أبهـة الملك ، ولكنه كـان طلاء خـداعاً كـالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها [1] » .

* **تنصر الروم :**

وها هنا حـادثة عظيـمـة يجب أن يسـجلهـا المؤرخ وينوه بهـا ، وهي اعـتـلاء النصرانيـة عرش رومة الوثنية ، وكـان ذلك بجلوس قسطنطين الذي اعتنق النصـرانية على سرير الأباطرة سنة ٣٠٥م فانتصرت فيه النصرانية على الوثنية ونالت فجأة ما لم تكن تحلم به من ملك عـريض ودولة مترامية الأطراف وكلمة لا تعلـوها كلمة . ولما كان قسطنطين إنما توصل إلى الملك على جسر من أشلاء النصارى وأنهار من دمائهم التي أريقت في الذب عنه والنـصر له ، عـرف لهم الجمـيل وبذل لهم وجهـه ، ووطأ لهم أكتافه وقلدهم مفاتيح ملكه .

* **خسارة النصرانية في دولتها :**

ولكن انتصر الـنصارى في ساحة القتـال وانهزموا في معـترك الأديان ، ربحوا ملكاً عظيماً وخـسروا ديناً جليلاً ، لأن الوثنية الرومـية مسخت دين المسيح ومـسخه أهله ، وكان أكثر مسخاً له وتحريفـاً هو قسطنطين الكبير حامي ذمار النصرانية ورافع لوائها .

---

(١) Conflict of Religion & Science

يقول « درابر » :

« دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره (٣٣٧ م) .

إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها ، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء – هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية ، إذ قضى الإسلام على منافسه (الوثنية) قضاء باتاً ، ونشر عقائده خالصة بغير غش .

وإن هذا الإمبراطور الذى كان عبداً للدنيا والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئاً رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين – النصرانى والوثنى – أن يوحدهما ويؤلف بينهما ، حتى إن النصارى الراسخين أيضًا لم ينكروا عليه هذه الخطة ، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طمست ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ، وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها » .

* **الرهبانية العاتية :**

فلم تستطع هذه النصرانية الملقحة بالوثنية المشوهة التى فقدت روحها وجمالها أن تغير من سيرة الروم المنحطة وأن تبعث فيهم حياة جديدة ، حياة دينية نقية طاهرة وأن تفتح عهداً زاهراً فى تاريخ الروم ، بل إنها ابتدعت رهبانية لعلها كانت شراً على الإنسانية والمدنية من بهيمية رومة الوثنية ، وقد جن جنون هذه الرهبانية فى العالم النصرانى وتخطى حدود القياس ، وإنا نلتقط أمثلة من كتاب تاريخ أخلاق أوربا وهو قليل من كثير جداً .

« زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقى الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح

خمسون ألفاً من الرهبان ، وفى القرن الرابع المسيحى كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب ، وكان الراهب « سرابين » يرأس عشرة آلاف ، وقد بلغ عددهم فى نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر » .

*** عجائب الرهبان :**

ظل تعذيب الجسم مثلاً كاملاً فى الدين والأخلاق إلى قرنين ، وروى المؤرخون من ذلك عجائب ، فحدثوا عن الراهب ماكاريوس (Makarius) أنه نام ستة أشهر فى مستنقع ليقرص جسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائماً نحو قنطار من حديد ، وكان صاحبه الراهب يوسيبيس (Eusebius) يحمل نحو قنطارين من حديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام فى بئر نزح ، وقد عبد الرهب يوحنا (St.Jhon) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة ، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً ، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثرهم يسكنون فى مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ، ويأكل كثير من الكلأ والحشيش ، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم فى النجاسات والدنس ، يقول الراهب اتهينس : إن الراهب أنتونى لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره ، وكان الراهب أبراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة ، وقد قال الراهب الإسكندرى بعد زمن متلهفاً : واأسفاه ! لقد كنا فى زمن نعد غسل الوجه حراماً فإذا بنا الآن ندخل الحمامات ، وكان الرهبان يتجولون فى البلاد ويختطفون الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديار وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً ، والجمهور يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم ، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصرانى بالمهارة فى التهريب ، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن فى البيوت إذا رأين الراهب امبروز (Ambrose) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس[1] .

---

(١) اقرأ تاريخ أوربا « ليكي» .Lecky : Histrory of European Morals iv

*** تأثير الرهبانية فى أخلاق الأوربيين :**

كان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال الفتوة والمروءة التى كانت تعد فضائل ، عادت فاستحالت عيوباً ورذائل ، وزهد الناس فى البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها ، وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية ، وعم الكنود والقسوة على الأقارب ، فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حناناً ورحمة ، وعيونهم من الدمع ، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد ، فيخلفون الأمهات ثكالى والأزواج أيامى والأولاد يتامى ، عالة يتكففون الناس ، ويتوجهون قاصدين الصحراء ، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم فى الآخرة لا يبالون ماتوا أو عاشوا ، وحكى « ليكى » من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب (٢) .

وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن فى الطريق والتحدث إليهن ولو كن أمهات وأزواجاً أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية ، وروى « ليكى » من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً .

*** عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجامحة :**

ولا يتوهم أحد أن هذه الرهبانية الغالية قد عدلت من شره المادية الرومية وكبحت من جماحها وغلوائها فى البهيمية والشهوات ، فإن هذا لم يكن ولا يكون فى الغالب وتأباه الفطرة الإنسانية ويكذبه التاريخ ، فإن الذى يوجد الاعتدال ويخفض من المادية الجامحة ويجعل منها حياة معتدلة هو النظام الروحى الدينى الخلقى الحكيم الذى يوافق الفطرة الإنسانية الصحيحة ، والذى لا يتصدى لأن يزيل الفطرة الإنسانية ، بل يوجهها توجيهاً نافعاً ، فإنها لا تزول ولكن تميل من شر إلى

---

(٢) History of European Morals. Part II Chapter IV, from Constantine to Charlemagne.

خير ، وهكذا فعل الإسلام ، وهكذا فعل سيدنا محمد ﷺ ، فقد صرف شجاعة العرب من المنافسات القبلية والتقاتل وأخذ الثأر والأحقاد القديمة إلى الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله ، وصرف تبذيرهم وسماحتهم إلى الإنفاق في سبيل الله ، وشغلهم عن الجاهلية بالدين الإسلامي ، وأبدل الشيء بالشيء ، وأعطى النفس حقها من النشاط والترويح ، فإن النفوس كما قال عالم من علماء المسلمين لا تترك شيئاً إلا بشيء ، وإن النفوس قد خلقت لتعمل لا لتترك [١] ، وإن الأنبياء قد بعثوا بتكميل الفطرة وتكريرها لا بتبديلها وتغييرها [٢] .

قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان؟ قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما ، يوم الأضحى ويوم الفطر [٣] ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث قالت : وليستا بمغنيتين ، فقال أبو بكر : أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ وذلك يوم عيد ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بكر ، إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا ، وفي رواية أنه قال : دعهما يا أبا بكر فإنها ايام عيد [٤] .

أما النصرانية الرومية فقد حاولت عبثاً تغيير الفطرة وإزالتها وجاءت بنظام لا تطيقه الفطرة الإنسانية ولا تسيغه ، وحملت النفوس ما لا طاقة لها به ورغبت فيه كرد فعل ضد المادية الطاغية واحتملت كارهة ، ثم تخلصت منه وثارت عليه ولم تقدر النصرانية – بإسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع – أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم ، وتمسك بضبع المدنية الساقطة إلى الهاوية وتمنعها من التردي ، فكانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد

---

(١) من كلام شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية م ٧٢٧هـ في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم » ص ١٤٣ .

(٢) ابن تيمية في كتابه « النبوات » .

(٣) رواه أبو داود : الصلاة رقم ١١٣٤.

(٤) رواه البخاري : الصلاة رقم ٩٥٢، والبيهقي ١٠/٢٢٤،وابن ماجة نكاح ١٨٩٨ .

والرهبانية تسيران فى البلاد النصرانية جنباً إلى جنب ، بل الأصح أن الرهبانية كانت معتزلة فى الصحارى والخلوات لا سلطان لها على الحياة ، وحركة الخلاعة والإباحة كانت زاخرة طامة فى المدن والحواضر .

*** بين الرهبانية العاتية ، والمادية الجامحة :**

يصور « ليكى » ما كان عليه العالم النصرانى فى ذلك العصر من التأرجح بين الرهبانية والفجور فيقول :

« إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما فى أخلاق الناس واجتماعهم ، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف والتساقط على الشهوات والتملق فى مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء والمسابقة فى زخارف اللباس والحلى والزينة فى حدتها وشدتها ، كانت الدنيا فى الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى ، وإن المدن التى ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع فى هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأى الجمهور حتى أصبح الناس لا يحفلون بسوء الأحدوثة والفضيحة بين الناس ، وكأن الضمير الإنسانى ربما يخاف الدين ووعيده ، ولكنه أمن واطمأن ، لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان ، لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب حتى فاق هذا العصر فى ذلك عصر القياصرة ، ولكن قل الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة ، مع انحطاط فى حرية الفكر والحماسة القومية [١] » .

*** الفساد فى المراكز الدينية :**

ولم تكن الرهبانية والنظام الدينى السلبى إلا مصادمة للفطرة ، فبقيت مقهورة بعوامل الديانة الجديدة وسلطانها الروحى وساعدتها عوامل أخرى ، ثم قهرت الطبيعة وتسرب الضعف والانحراف فى المراكز الدينية حتى صارت تزاحم المراكز

---

(١) History of European Morals II Chapter VI

الدنيوية وربما تسبقها فى فساد الأخلاق والدعارة والفجور ، لذلك وقفت الحكومة المآدب الدينية التى كانت ترمى إلى عقد الألفة والأخوة بين المسيحيين وأعياد الشهداء والأولياء وذكرياتهم التى وجدت فيها الخلاعة والفجور حمى ومرتعاً ، واتهم القسوس بكبائر ومنكرات .

ويقول الراهب « جروم » (Jarum) :

« إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين ، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعدوا طورهم ، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع ، وقد تباع بالمزاد العلنى ، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ، ويأذنون بنقض القانون ، ويمنحون شهادات النجاة وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد ، ويرتشون ويرابون ، وقد بذروا المال تبذيراً حتى اضطر البابا انوسنت الثامن أن يرهن تاج البابوية . ويذكر عن البابا ليو العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال ، وأنفق نصيبه ودخله ، وأخذ إيراد خليفته المترقب سلفاً وأنفقه ، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفى البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم [(١)] » .

*** تنافس البابوية والإمبراطورية :**

وبدأ النزاع والمنافسة بين البابوية والإمبراطورية فى القرن الحادى عشر ، فاشتدت بعنف وحمى وطيسها ، وانتصرت فيها البابوية أولاً حتى إن هنرى الرابع ممثل الإمبراطورية اضطر سنة ١٠٧٧م أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوى فى قلعة كانوسا ولم يسمح له البابا بالدخول إلا بعد أن شفع له الرجال ، فسمح له بالمثول بين يديه ، فدخل الإمبراطور صاغراً حافياً لابساً الصوف وتاب على يديه فغفر له البابا زلته ، وكانت الحرب بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك سجالاً حتى ضعفت البابوية ، وبقى الناس هذه المدة الطويلة يتنازعهم عاملان دينى ودنيوى وبقوا يرزحون تحت نيرين إمبراطورى وبابوى .

---

(١) Conflict of Religion and Science.

وكان البابوات يتمتعون فى هذه العصور الوسطى بنفوذ واسع وسلطان عظيم لم يكن للملوك والأباطرة ، وكان يمكن لهم أن يتقدموا بأوربا تقدماً صحيحاً فى العلم والمدنية تحت ظل الدين ، لأن نوابهم وممثليهم كانوا يتجولون فى البلدان الأوربية وينزلون من أهلها فى جناب مريع وظل ظليل ، ويتفاهمون معهم بلغة واحدة ويتدخلون فى أمور سياسية مهمة ، ووجدوا فى كل بقعة أنصاراً لهم من ذوى الرأى والسياسة يتكلمون بلغة واحدة ويساعدونهم فى مهمات الدولة .

*** شقاء أوربا برجال الدين :**

ولكن رجال الدين من سوء حظ النصرانية ومن سوء حظ الأمم التى دانت بها أساؤوا استعمال هذا السلطان الهائل فاستغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم ، وبقيت أوربا تتسكع فى دياجير الجهل والخرافة والانحطاط ، وأصيبت المدنية بحكمهم ورهبانيتهم فى صميمها ، فلم يتضاعف عدد سكان القارة الأوربية فى ألف سنة ، ولم يتضاعف عدد سكان إنكلترة فى خمسمائة سنة ، ولا شك أن من أسبابها حياة العزوبة التى كان القسوس والرهبان يزينونها للناس ويرغبون فيها ، ولم يشأ الكهان والأساقفة أن يساهم الأطباء فى مرافقهم وغلاتهم فانتشرت الأوبئة والأمراض فى طول القارة وعرضها ، وتعرف من رحلة انبيس سلوئيس الذى اشتهر بعد بلقب (Pus the Second) التى قام بها فى الجزائر البريطانية حوالى سنة ١٤٣٠م ما كانت عليه هذه الجزائر من بؤس وانحطاط فى المدنية وفقر مدقع .

*** جناية رجال الدين على الكتب الدينية :**

ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين فى أوربا ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذى كانوا يمثلونه أنهم دسوا فى كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم فى ذلك العصر ، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنسانى ، وإذا كان ذلك فى عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر فإنه لا يؤمن عليه التحول والتعارض ، فإن العلم الإنسانى متدرج مترق ، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصراً على كثيب مهيل من الرمل . ولعلهم فعلوا ذلك بنية حسنة ولكنه كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين ، فإن ذلك ، كان سبباً للكفاح المشئوم بين الدين والعقل والعلم الذى انهزم فيه

الدين ذلك الدين المختلط بعلم البشر الذى فيه الحق والباطل والخالص والزائف — هزيمة منكرة ، وسقط رجال الدين سقوطاً لم ينهضوا بعده ، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوربا أصبحت لا دينية .

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة ، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية ، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التى يجب الاعتقاد بها ونبذ كل ما يعارضها ، وألفوا فى ذلك كتباً وتآليف ، وسموا هذه الجغرافية التى ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية (Christian Topography) وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها .

*** اضطهاد الكنيسة للعلم :**

وكان ذلك فى عصر انفجر فيه بركان العقلية فى أوربا ، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الدينى فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التى اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها فى صرامة وصراحة ، واعتذروا عن عدم اعتقادها والايمان بها بالغيب ، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم ، فقامت قيامة الكنيسة وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور فى أوربا وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم فى سبيل الدين المسيحى ، وأنشأوا محاكم التفتيش التى تعاقب — كما يقول البابا — أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون فى المدن وفى البيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول ، فجدت واجتهدت وسهرت على عملها ، واجتهدت أن لا تدع فى العالم النصرانى عرقاً نابضاً ضد الكنيسة ، وانبثت عيونها في طول البلاد وعرضها ، وأحصت على الناس الأنفاس ، وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصرانى : « لا يمكن لرجل أن يكون مسيحياً ويموت حتف أنفه » ، و يقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف ، أحرق منهم اثنان وثلاثون الفاً كان منهم العالم الطبيعى المعروف برونو ، نقمت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم ، وحكمت عليه بالقتل ، واقترحت بأن لا تراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعنى أن يحرق حياً ، وكذلك كان .

وهكذا عوقب العالم الطبيعى الشهير غاليليو (Galilio) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس .

*** ثورة رجال التجديد :**

هنالك ثار المجددون المتنورون وعيل صبرهم ، وأصبحوا حرباً لرجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب ، وعادوا الدين المسيحي أولاً والدين المطلق ثانياً، واستحالت الحروب بين زعماء العلم والعقلية ، وزعماء الدين المسيحي ، - وبلفظ أصح ، الديانة والبوليسية - حرباً بين العلم والدين مطلقاً ،و قرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان ، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان ، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثاني ، وإذا ذكروا الدين ، ذكروا تلك الدماء الزكية التي أريقت في سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم ، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة ، وجباه مقطبة ، وعيون ترمي بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول سخيفة بليدة ، فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه ، وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية في أعقابهم .

*** تقصير الثائرين وعدم تثبتهم :**

ولم يكن عند هؤلاء الثائرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير ، ومن الوداعة والهدوء ، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته ، ويفرقون بين ما يرجع إلي الدين عن عهدة ومسئولية ، وما يرجع الى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل ، فلا ينبذوا الدين نبذ النواة ، ولكن الحفيظة وشنآن رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر في أمر الدين والتريث في شأنه كغالب الثوار في أكثر الأعصار والأمصار .

ولم يكن عندهم من صدق الطلب والنصيحة لأنفسهم وأمتهم وسعة الصدر ما يحملهم على النظر في الدين الإسلامي الذي كان يدين به أمم معاصرة لهم ، الدين الذي يخلصهم من هذه الأزمة و ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾(آية ١٥٧ : الأعراف) . ولكن حمية الجاهلية والسدود التي أقامتها الحرب الصليبية بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي ودعاية الكهنة ورجال الكنيسة ضد الإسلام وصاحب رسالته عليه الصلاة والسلام ، وعدم تجشم التعب

والمطالعة ، وقلة الحرص على النجاة الأخروية والاهتمام بما بعد الموت ، زد الى ذلك تفريط المسلمين فى التبشير الإسلامى ، ونشر الإسلام فى أوربا ، كل ذلك منعهم من الرجوع الى الدين الإسلامى والأخذ به فى ساعة كانوا يحتاجون إليه حاجة السليم إلى راق والمسموم إلى ترياق .

*** اتجاه الغرب إلى المادية :**

وعلى كل فقد وقع المحذور وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها ، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم ، وكان ذلك تدريجياً ، وكان أولاً ببطء وعلى مهل ، ولكن بقوة وعزيمة ، فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون فى الكون نظراً مؤسساً على أنه لا خالق ولا مدبر ولا آمر ، وليس هناك قوة وراء الطبيعة والمادة تتصرف فى هذا العالم وتحكم عليه وتدبر شئونه ، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعي ، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكى بحت ، وسموا هذا نظراً علمياً مجرداً وسموا كل بحث وفكر يعتقد بوجود إله ويؤمن به طريقاً تقليدياً لا يقوم عندهم على أساس العلم والحكمة ، واستهزأوا به واتخذوه سخرياً ، ثم انتهى بهم طريقهم الذى اختاروه وبحثهم ونظرهم إلى أنهم جحدوا كل شىء وراء الحركة والمادة ، وأبوا الإيمان بكل ما لا يأتى تحت الحس والاختبار ، ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة ، فأصبح – بحكم الطبيعة وبطريق اللزوم – الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة ، من قبيل المفروضات التى لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم .

إنهم لم يجحدوا بالله إلى زمن طويل ، ولم يكاشفوا الدين العداء ، ولم يجحدوا به كلهم ، ولكن منهج التفكير الذى اختاروه ، والموقف الذى اتخذوه فى البحث والنظر لم يكن ليتفق والدين الذى يقوم على الإيمان بالغيب وأساسه الوحى والنبوة ودعوته ولهجه بالحياة الأخروية ، ولا شىء من ذلك يدخل تحت الحس والاختبار ويصدقه الوزن والعد والمساحة ، فلم يزالوا يزدادون كل يوم شكاً فى العقائد الدينية .

*** افتضاح المادية فى الدور الأخير :**

ولكن رجال النهضة الأوربية ظلوا قروناً يجمعون بين النظر المادى الجاحد والحياة المادية ، والطقوس الدينية المسيحية ، بالتقليد أو بتأثير المحيط الذى لا يزال فى

العالم النصراني ، أو بمصالح خلقية واجتماعية كانت تقتضي البقاء ولو بالاسم على نظام ديني يؤلف بين أفراد الأمة ويحفظها من الفوضى ، حتى افتضحوا في الأخير وصعب الجمع بينهما بسرعة سير الحضارة المادية ، وتخلف الدين والتقاليد وعجزها عن مسايرتها وما في الجمع بينهما من متاعب وضياع للوقت وتكلف هم في غنى عنه ، فطرحوا الحشمة ورموا برقع النفاق .

• صور المادية ودعاتها :

ونهض الكتاب والمؤلفون والأدباء والمعلمون والاجتماعيون والسياسيون في كل ناحية من نواحي أوربا ينفخون صور المادية ، وينفثون بأقلامهم سمومها في عقل الجمهور وقلبه ، ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً ، تارة ينشرون الفلسفة النفعية ، وطوراً فلسفة اللذة الأبيقورية .

والسياسيون أمثال ميكيافيلي الفلورنسي (١٤٦٩ - ١٥٢٧ م) دعوا من قبل إلى فصل الأخلاق عن السياسة ، وتقسيم الأخلاق إلى شخصية واجتماعية ، وقرروا أن الدين - إن كان لابد منه - قضية شخصية لا ينبغي أن تتدخل في أمور السياسة والدولة ، وأن الدولة عندهم أعز وأهم من كل شيء ، وأن النصرانية إنما موضوعها الحياة الأخروية ، وأن المتدينين والصالحين لا يفيد وجودهم الدولة ، وإن كان يفيد الكنيسة ، لأنهم يتقيدون بأحكام الدين ، ولأنهم لا يستطيعون أن يحيدوا عن أحكام الدين ومبادئ الأخلاق إذا اقتضت المصلحة غير ذلك ، وأن الملوك والأمراء يجب عليهم أن يتخلقوا بأخلاق الثعالب ، ولا يحتشموا من نقض العهود والكذب والخيانة والغش والنفاق إذا كان في ذلك أدنى مصلحة للدولة إلى غير ذلك ، ونجحت هذه الدعوة وساعدتها عوامل كثيرة من الوطنية والقومية التي خلفت الديانة القديمة .

وأحدث الأدباء والمؤلفون وأصحاب البراعة والقريحة والذكاء ، وخصوصاً في ثورة فرنسا وبعدها ، الثورة على الأخلاق القديمة ، والنظم الاجتماعية ، وزينوا للناس الإثم ، ونشروا دعوة الإباحة ، وإطلاق الطبائع من كل قيد ، والفرد من كل مسئولية ، ودعوا إلى التهام الحياة البهيمية ، وإرضاء الشهوات ، وانتهاب المسرات ، واستعجال الطيبات ، وغلوا وأسرفوا في تقدير قيمة هذه الحياة وجحدوا كل شيء سوى اللذة العاجلة والنفع المادي الظاهر المحسوس .

*** نسخة صادقة من الحضارة اليونانية :**

فأصبحت الحياة فى أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين نسخة صادقة من الحياة فى يونان وروما الوثنيتين الجاهليتين ، وعادت الطبيعة الأوربية (التى كانت النصرانية الشرقية قد قهرتها) جذعة .

ولا غرابة فى ذلك ، فالأوربيون إنما ينحدرون من أولئك اليونان والرومان ، والسلائل الأوربية الأخرى ترى ديناً خلواً من الروحانية ، كما لاحظ الدكتور «هاس » فى ذكر الحضارة اليونانية .

وترى رقة الدين وقلة الخشوع والجد فى أعماله ، وكثرة اللهو والطرب فى الحياة ، كما ذكر « ليكى » عن الديانة اليونانية ، وهو نتيجة الوضع الدينى الذى وصلت إليه أوربا ، فإنه لا يتفق والخشوع لله والجد فى عبادته ، ونتيجة تلك النظريات والغايات التى وصل إليها علماء الطبيعة والحكمة فى أوربا وأعلنوها، تلقاها الجمهور بالقبول وحلت محل الدين .

وترى كذلك تهافتاً على ملذات الحياة تهافت الظمآن على الماء والفراش على النار ، والحرص على اقتطاف جنى الحياة وثمارها باليدين ، كما وصف به سقراط الرجل الجمهورى اليونانى فى عصره .

وكذلك ترى شكاً فى الدين واضطراباً فى العقيدة واستخفافاً بالنظام الدينى وطقوسه وتقاليده ، كما رأيت فى روما بعد التنور .

*** ديانة أوربا اليوم المادية لا النصرانية :**

فمما لا شك فيه أن دين أوربا اليوم الذى يملك عليها القلب والمشاعر ويحكم على الروح هو المادية لا النصرانية كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوربية واتصل بالأوربيين عن كثب لا عن كتب ، بل وعن كتب أيضاً — ولم ينخدع بالمظاهر الدينية التى تزيد فى أبهة الدولة والتى يجد فيها الشعب ترويحاً للنفس وتنوعاً ، ولم ينخدع بزيارتهم للكنائس وحضورهم فى تقاليدها .

وقد بين ذلك فى وضوح وصراحة الأستاذ الألمانى المهتدى محمد أسد السابق ذكره فى كتابه : « الإسلام على مفترق الطرق » قال :

« لا شك أنه لا يزال فى الغرب أفراد يعيشون ويفكرون على أسلوب دينى ويبذلون جهدهم فى تطبيق عقائدهم بروح حضارتهم ، ولكنهم شواذ . إن الرجل العادى فى أوربا ، ديمقراطياً كان أو فاشياً ، رأسمالياً كان أو اشتراكياً ، عاملاً باليد أو رجلاً فكرياً ، إنما يعرف ديناً واحداً ، وهو عبادة الرقى المادى والاعتقاد بأنه لا غاية فى الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل ، وبالتعبير الدارج « حرة مطلقة » من قيود الطبيعة ، أما كنائس هذا « الدين » فهى المصانع الضخمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها فهم رؤساء الصيارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون والمبرزون الذين يضربون رقماً قياسياً ، ونتيجة هذه النهامة للقوة ، والشره للذة ، النتيجة اللازمة ظهور طوائف متنافسة مدججة بالسلاح ، والاستعدادات الحربية ، مستعدة لإبادة بعضها بعضاً إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها ، أما فى جانب الحضارة فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة فى القائدة العملية ، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادى لا غير (١) » .

« إن الحضارة الغربية لا تجحد الله فى شدة وصراحة، ولكن ليس فى نظامها الفكرى موضع لله فى الحقيقة ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه (٢) ».

ربما يقلل من قيمة هذه الشهادات على مركز الدين فى الحياة الأوربية ومدى تأثيره كون صاحبها قد انتقل من النصرانية إلى الإسلام ومن أوربا إلى الشرق الإسلامى ، فها هنا شهادة أصرح منها وأدل على اضمحلال الدين الرسمى فى أكبر مراكزه ، واستنكاف أهله من الانتساب إليه لأحد كبار المعلمين فى « لندن » وكتاب الإنكليزية البارزين .

---

(١) Islam At the Cross Roads, P. 50. Fifth Edition .

(٢) Islam At the Cross Rodas. p. 40 .

قال الأستاذ جود (Joad) رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن فى كتابه (Guide to Modern Wickedness) :

« سألت عشرين طالباً وتلميذة كلهم فى أوائل العقد الثانى من أعمارهم : كم منهم مسيحى بأى معنى من معانى الكلمة ، فلم يجب بـ « نعم » إلا ثلاثة فقط ، وقال سبعة منهم : إنهم لم يفكروا فى هذه المسألة أبداً ، أما العشرة الباقية فقد صرحوا أنهم معادون للمسيحية ، أنا أرى أن هذه النسبة بين من يؤمن بالمسيحية ويدين بها وبين من لا يؤمن فى هذه البلاد ليست شاذة ولا غريبة ، نعم إذا وجه هذا السؤال إلى مثل هذه الجماعة قبل خمسين سنة أو عشرين ، كانت الأجوبة مختلفة ، بناء على ذلك الذين يتفقون فى الرأى مع (Canon Barry) ويزعمون أن نهضة مسيحية كبيرة يمكن أن تنقذ العالم سيكونون قليلاً جداً ، فإنى لا أرى لرأيه هذا مؤيداً ومبرراً إلا أن يكون ذلك رغبته وهواه ، فإن الأهواء كثيراً ما تخلق الأفكار ، ولكنها لا تولد الشهادات والوثائق ، وإن الأحوال والآثار فى هذه البلاد لتدل على أن الكنيسة النصرانية ستموت فى القرن الآتى ، وإليك ما يؤيد هذا الرأى نقلاً من صحيفة يومية :

اخترع رجل فى السابعة والسبعين من عمره طريقة تحول بها نسخ الكتاب المقدس العتيقة إلى حشو البنادق والحرير الصناعى واللدائن وأوراق النقد الثمينة ، وإن آلته قد نصبت فى (Cardiff Factory) وفى ثمانية مصانع أخرى وتصنع بنسخ التوراة القديمة أسلحة حربية وقد استثمر المخترع بالآلة ثروة عظيمة بعد ما عاش فى ضنك من العيش .

ويختتم الأستاذ مقالته هذه بجملة من التوراة – ولا أجمل منها – لمخاطبة القسوس ورجال الدين أمثال (كينين بيرى) وغيره « فليسمع من له أذنان [1] » .

---

(١) Guide to Modern Wickedness P. 114-115.

ويقول هذا المؤلف فى كتابه الثانى (Philosophy for our Times)

« لم يزل سائداً على عقلية انكلترا منذ قرون شره المال والتملك ، وكانت رغبة نيل الثروة أقوى عامل في حياة البلاد وأكبر باعث على العمل ، لأن الثروة وسيلة للتملك ، وضخامته ووفرته مقياس لكفاءة الإنسان ، ولم يزل الناس يتلقون من طرق السياسة والأدب والتمثيل والسينما والإذاعة اللاسلكية ، وفى بعض الأحيان من منابر الكنائس فى ظل عام وشهر – التحريضات على جمع المال واقتنائه والإقناع بأن الأمة المتمدنة هى التى ارتقت فيها عاطفة الشره والتملك .

إن هذه العبادة للمال تناقض عقائدنا الدينية ، لأن الدين يمدح الفقر ويذم الغنى، ويقول : إن الفقير أقدر على الصلاح من الغنى ، ومع أن الحكمة والنعيم الدينى متفقان على أن الفقر أوفق لعبادة الله ودخول الجنة ، ولكن الناس لم يرغبوا إلى تصديق الدين فى ذلك والعمل بأحكامه ، ولم يزالوا يؤثرون الثروة الحاضرة على نعيم الجنة الموعود ، لعلهم يظنون أنهم إذا تابوا فى آخر عهدهم بالدنيا فإنهم يحرزون حسنى الآخرة ، كما ظفروا بحسنى الدنيا بأموالهم المودعة فى المصارف .

وقد أعرب عن فكرتهم هذه (Sammuel Butler) فى كتابه بقوله : « إن بعض المؤلفين يقولون : إنا لا نستطيع أن نجمع بين عبادة الله وعبادة المال ، وأنا أسلم أن الأمر ليس بميسور ، ولكن متى تكون المهمات فى الدنيا ميسورة سهلة ؟

فمهما اختلفنا فى المبادئ فإن الحقيقة الراهنة أن كلنا راسخ فى تقليد بتلر واتباعه ، فنحن مشغوفون بحب المال ، وعقيدتنا أن الثروة هى المقياس الصحيح لعظمة الفرد والحكومة، وكانت سبباً لظهور مبدأين لهام الأهمية التاريخية الكبرى.

أحدهما : مبدأ عدم التدخل الاقتصادى الذى كان سائداً على القرن التاسع عشر ، ويدعى أصحاب هذا المبدأ أن الإنسان يبنى عمله على أعظم نفع يجلبه ، وأن ليس الباعث على الأعمال الالتذاذ بالعواطف القلبية بل الالتذاذ بالثروة .

والمبدأ الثانى الذى يسود القرن العشرين : هو مبدأ التنظيم الاقتصادى المنسوب الى ماركس ، ويقوم هذا المبدأ على أن نظام الإنسان الاقتصادى إنما يتأسس على حوائج الإنسان المالية ، وهذا النظام هو الذى يخلق الأدب والأخلاق والدين والمنطق ونظام الحكومة ، ولم يكن هذان المبدآن لينالا القبول الذى نالاه لولا شغف الناس فى بلادنا بالمال والاهتمام الزائد به » .

ويقول في مكان آخر من هذا الكتاب :

« إن نظرية الحياة التى تسود على هذا العصر وتحكم عليه : هى النظر فى كل مسألة وشأن من ناحية المعدة والجيب . (stomach and pocket view of life)

وقد أجاد الصحفى الأمريكى المشهور (Jhon Gunther) تمثيل هذه النفسية فى كتابه فى « داخل أوربا » (Inside Europe) بقوله :

« إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجليترا (Bank of England) ستة أيام فى الأسبوع ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة » .

*** مظاهر الطبيعة المادية فى أوربا :**

إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بحياة أخرى ولا يعتقدون وراء اللذة والتمتع بالحياة والعلو فى الأرض غاية عليا ، ولا يذكرون الله إلا نادراً ، ولا يرجون له وقاراً ، كيف يرجى منهم أن يتضرعوا إلى الله إذا مسهم الضر ، ويخبتوا إليه وينيبوا إذا دهمهم الخطر كما ذكر الله عن المشركين الذين كانوا يؤمنون بالله: ﴿**وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين**﴾[1] ولكن هؤلاء – بإمعانهم فى المادية والتمسك بالأسباب الظاهرة والتعلل بها واستغنائهم عن الله – قد وصلوا من القسوة والغفلة إلى حيث صدق عليهم قول الله: ﴿**ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون**﴾[2] وقوله عزوجل : ﴿ **ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون** ﴾[3] فلا تكاد تشعر فى خطب الزعماء والوزراء في أوربا برقة قلب وانكساره وإخبات إلى الله فى أدهى ساعات الحرب وأمرها ، ولا تشاهد شيئاً من ذلك فى أخلاق الشعب وأعماله وأفراحه ، ويعد ذلك مفكرو الغرب وأدباؤه من باب التجلد وقوة القلب وإباء الضيم ، وقد افتخر أحد زعماء الإنجليز وكبار رجال السياسة فى البرلمان الإنجليزى بأن رجال الشعب الإنجليزى لم يستسلموا للحوادث والنوازل ، واستشهد على ذلك بأن المشتغلين بالرقص واللهو فى سنغافورة لم يتحولوا عن مكانهم ولم يؤخروا أدوار الرقص والغناء ، وطيارات اليابان تمطر المدينة شآبيب القنابل . ويحكى هندى عن سهرة شهدها قال : « بينما نحن فى الرقص إذ سمعنا الإنذار بالغارة الجوية فساد الهدوء في المكان ، ثم قال أحد أصحاب المجلس :

(١) آية ٣٢: لقمان . (٢) آية ٤٢: الأنعام . (٣) آية ٧٦: المؤمنون .

ماذا ترون ؟ هل يستمر الرقص أم يؤخر ؟ فأجابت فتاة : بل نستمر راقصين ، وهكذا كان ، ودوت الحارة فضلاً عن النادى الذى كنا فيه بالأغانى [1] » . ويقول : « من العادات اليومية أنه يعلن فى السينما : تبدأ الغارة الجوية ولكن يستمر هذا الفصل ومن أراد أن يذهب إلى المخبأ فطريقه أسفل إلى اليسار ، ولكن الناس يستمرون جلوساً ولا أحد يبرح من مكانه ويبدأ الفصل [2] » ويقول كاتب إنجليزى تعليقاً على صورة نشرت فى (Statesman) الصحيفة الإنجليزية اليومية الكبرى فى الهند فى ٢٤ من يناير ١٩٤٢م : « من الغريب أن أجمل التمثيليات إنما ظهرت أيام الحروب الكبرى فى التاريخ ، كذلك الشأن فى بريطانيا اليوم فالناظر يرى الملاهى والسينما والتمثيليات والصور ما لم يكن يرى أجمل وأبدع منها قبل الحرب ، والمتفرج يجد فى ملاهى لندن كل ما يسليه ويرضى ذوقه » ، وفى عدد آخر من هذه الجريدة الصادر فى ١٥ من ديسمبر ١٩٤٣م « إن صناعة الأفلام فى « لندن » و « لشبونة » و « موسكو » إلى تقدم وفى إزدهار » ، ولا تجد مثالاً لهذا التجلد والعكوف على اللذة واللهو فى أشد ساعات الحرج وفى آخر ساعات العمر إلا فى يونان وروما فى العهد القديم .

وقد روى مراسل روتر كيف استقبل المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية العام المقبل وودع العام الراحل وذلك فى يوم عصيب من أيام الحرب يلجأ فيه الإنسان الى الله ويفيق السكران ويخشع القاسى ، وإليك نص البرقية :

« واشنطن ، اليوم الأول من يناير (عام ١٩٤٢م) البارحة لما كان العام الجديد يلتقى بالعام المنصرم وكان المستر تشرشل رئيس الوزراء مسافراً من كندا إلى الولايات المتحدة فى قطار رسمى خرج رئيس الوزراء مستصحباً سير شارليس بورتل بغتة ودخل مطعم القطار والسيجار فى فمه وكأس شمبانية فى يده ، وتعجب ممثلو الصحف الذين كانوا سائرين معه ، تناول المستر تشرشل الكأس مبتسماً وقال: «باسم عام ١٩٤١م ذلك العام القائد إلى الاجتهاد والتعب والفتح » في ذلك الوقت لفظ العام الراحل نفسه الأخير ، وتنفس العام الجديد ، وأعلنت الساعة بوفوده . وهنا الصحفيون ورؤساء القطار المستمر تشرشل ، وأخذ رئيس الوزراء يد سير شاليس

---

(١) الغارات الجوية : أشرف الدهلوى ص ٧١.

(٢) أيضاً ص ٧٠.

بورتل بيد. وأخذ يد كاربورل هارنر بيده الأخرى ، وأخذ كل واحد بيد الآخر ، وبدأوا يغنون في رقصة وانطلق المستر تشرشل إلى الباب وقال :

ليهنكم جميعاً ورزقنا الله الفتح ، وجعلت الجماعة تغني في حدة وتصفيق ، وخط رئيس الوزراء حرف V وانصرف إلى عربته سعيداً مسروراً » .

قارن هذه الطبيعة المادية بالنفسية الدينية وتعاليم الدين وعمل المتدينين وسيرتهم في الحروب والأخطار ففي القرآن ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وفي سيرة ابن هشام في وقعة بدر الكبرى قال ابن اسحاق : ثم عدل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليس معه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد .

والمادية لأسباب حتمية طبيعية وتاريخية وعلمية قد أصبحت شعا ر الحضارة الغربية والحياة الغربية منذ عهد عريق في التاريخ ، ولم تزدها النشأة الجديدة والنهضة العلمية والسياسية في أوربا إلا حدة وقوة ، وقد لاحظ هذا الامتياز كثير من علماء الغرب والشرق ، فمن علماء الشرق الأستاذ الألمعي الرحالة ذو النظر الثاقب عبدالرحمن الكواكبي في مستهل هذا القرن فقد قال في كتاب « طبائع الاستبداد»:

« الغربي مادي الحياة ، قوي النفس شديد المعاملة ، حريص على الاستئثار حريص على الانتقام ، كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق ، فالجرماني مثلاً جاف الطبع يرى أن العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت ، ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال ، فهو يحب العلم ولكن لأجل المال ويحب المجد ولكن لأجل المال ، واللاتيني منه مطبوع على العجب والطيش ، يرى العقل في الانطلاق ، والحياة في خلع الحياء ، والشرف في الزينة واللباس ، والعز في التغلب على الناس » .

وهذا تصوير صادق للطبيعة الأوربية وتحليل صحيح للنفسية الغربية ، ولا نظن المرحوم الكواكبي قد تحامى الكلام على غير الجنسين الألماني واللاتيني إلا تفادياً من الوقوع في العنت ، فجعل الألماني واللاتيني مثلاً لسائر الأوربيين .

---

(١) آية ٤٥: الأنفال .　　(٢) ابن هشام ٢/٢٤٦.

* **الغايات المادية للحركات الروحية العلمية :**

وترى هذا الروح المادى فى جميع نظم أوربا السياسية والاجتماعية والخلقية التى ابتكرتها أو جددتها شعوبها لهذا العهد ، حتى إن الحركة الروحية التى شغلت الناس كثيراً فى أوربا فى الزمن الأخير إنما روحها المادية ، فقد أصبحت صناعة وفناً كسائر الصناعات والفنون فى أوربا ، غايتها مشاهدة عجائب إقليم الروح والاطلاع على أسرارها والتحدث إلى أرواح الموتى وترويح النفس والتلهى ، وليست من تزكية النفس وتصفية القلب والخشوع لله والعمل الصالح والاستعداد للموت والصبر على مكاره الحياة وهضم النفس فى شيئ ، خلافاً للحركة الروحية والتصوف فى الشرق الإسلامى .

كذلك الأعمال التى يضحى فيها الناس بنفوسهم وأرواحهم فى الغرب إنما ترجع فى الغالب إلى غايات مادية كحسن الأحدوثة وانتشار الصيت وخلود الذكر فى التاريخ والتبريز على الناس وأن يتمجد به شعبه ويفتخر ويتشرف به وطنه ويغتبط خلافاً للأعمال التى يبتغى بها وجه الله ، فالمسلم يخاف أن يشوب عمله شيء من الرياء والسمعة فيحبطه ويسمع قول الله تعالى : ﴿ **هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾(١) وقوله عزوجل : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً** ﴾(٢) وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل الذى يقاتل شجاعة ويقاتل رياء : أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »(٣). وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه : « اللهم اجعل عملى كله صالحاً واجعله كله لوجهك خالصاً ولا تجعل لغيرك فيه شيئاً » ، واجتهاد الصالحين من هذه الأمة فى إخفاء عبادتهم وصدقاتهم معروف فى كتب التاريخ والسير .

* **التصوف المادى الغربى ووحدة الوجود الاقتصادية :**

وقد بلغ النظر المادى والفكر المادى فى أوربا درجة الاستغراق فيه والفناء ونسيان ما سوى القيم المادية ، ولنضرب بذلك مثلاً بكارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣م مؤسس الفلسفة الشيوعية .

---

(١) آية ١٠٣ : الكهف. (٢) آية ٢٣ : الفرقان .

(٣) رواه البخاري - العلم رقم ١٢٣ ، ومسلم - الإمارة رقم ١٥٠ ، وابن ماجة - الجهاد رقم ٢٧٨٣ .

يرى كارل ماركس أن النظام الاقتصادى هو روح الاجتماع وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها عكس لهذا النظام الاقتصادى ، هو يقول : إن فى كل عصر وفى كل دور من أدوار التاريخ طريقة خاصة للإنتاج الصناعى وعلى وفقها تتعين العلاقات الاجتماعية ، ولكن بعد قليل لا تبقى هذه العلاقات الاجتماعية متوافقة متناسبة مع طرق الإنتاج ويجتهد بعض الناس لتشكيل هذه العلائق تشكيلاً جديداً ، وهذه هى التى تعرف فى التاريخ بالانقلابات والثورات ، والمؤرخ يجهل ماهيتها ولكن لا غرابة فى ذلك ، فإن الذين يشتركون فى هذه الثورات قد لا يشعرون أنفسهم بالغاية التى يقاتلون لأجلها ، ولكن يمكن لنا أن نحل هذه الألغاز ونعلم أن الارتقاء السياسى والتعديلات والتحسينات فى النظم السياسية وما يطرأ عليها من التغيير والتطور ليست إلا صوراً جديدة للعلائق الاجتماعية تظهر لتجعل هذه العلائق متناسبة متوافقة بطرق الإنتاج الجديدة من جديد ، ولما كان الاختلاف بين طرق الإنتاج الصناعى والعلائق الاجتماعية التى تقوم عليها مستمراً فيكون الجهد لتطبيقها مستمراً أيضاً ، وإذا تجاوز الاختلاف واشتد ظهر فى شكل ثورة ، ولكن لا ينبغى لنا – إذا لم تكن الاختلافات واضحة – أن ننفى وجودها وننكرها ، والاختلاف بين مناهج الإنتاج الصناعى والوشائج الاجتماعية يظهر فى حرب الطبقات ، لأن جميع طبقات الاجتماع إنما هى أجزاء النظام الاقتصادى ، ويستنتج من ذلك كارل ماركس أن التاريخ البشرى غير العهد الذى كانت الحياة البشرية فى طفولتها ليس إلا قصة حرب الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وهكذا جحد الرجل جميع نواحى البشرية غير الناحية الاقتصادية ولم يعر غيرها شيئاً من العناية ، ولم يقم للدين والأخلاق والروح والقلب وحتى العقل وزناً وقيمة ، ولم يعترف أن أحداً منها كان عاملاً من عوامل التاريخ ، وأن جميع الحروب والثورات في التاريخ لم يكن إلا ثأراً لبطن من بطن ، وجهاداً فى سبيل تنظيم جديد للنظام الاقتصادى وطرق الإنتاج الصناعى ، وحتى الحروب الدينية لم تكن عنده إلا حرب الطبقات الاقتصادية استأثرت إحداها بموارد الثروة ووسائلها وطرق الإنتاج ، واجتهدت الأخرى فى أن تنافسها وتتناول قسطها أو أن تنظمها من جديد فوقعت الحرب ، ويجب أن تكون كذلك فى رأيه « بدر » و « أحد » و « الأحزاب » و «القادسية» و « اليرموك » ، ووقائع ومعارك حفظها التاريخ .

فهذا هو – كما ترى – التصوف المادى الغربى ، وهذه هى فلسفة وحدة الوجود وحدة، وجود الاقتصاد ، ولما كان الشرقيون إنما يغلبهم الروح الدينى والتأله نفى المتألهون منهم والمغلوبون وجود كل شىء سوى الله ، وهتفوا فى سكرهم وغلبة الحال عليهم : لا موجود إلا الله ، ولما كان المفكرون الأوربيون إنما تغلبهم المادية نفوا وجود كل شىء سوى الناحية الاقتصادية وهتفوا : لا موجود إلا البطن والمعدة ، إن صوفية الشرق كانوا يرون الإنسان ظلاً ربانياً ، أما الماديون فى الغرب فلا يرونه إلا وجوداً بهيمياً حيوانياً .

*** نظرية دارون وتأثيرها فى الأفكار والحضارة :**

وساعدهم فى وجهة نظرهم هذه فى جميع مسائل الإنسان وزاد الطين بلة ، النظرية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر عن ارتقاء الإنسان ، وكونه حيواناً مترقياً عما دونه من الحيوانات ، لم يزل يجتاز بمرحلة بعد مرحلة فى رحلته النوعية التى استغرقت ألوفاً من السنين ولم يزل ينتقل من طور حيوان إلى طور آخر ، من أميبا (Amoeba)إلى قرد ومن قرد إلى إنسان حتى بلغ كماله النوعى ، وزعيم هذه النظرية وبطلها دارون الذي ظهر كتابه أصل الأنواع (Origin of species) سنة ١٨٥٩م فكان حديث النوادى والمجامع والمدارس وشغل الناس الشاغل ، وكانت هذه النظرية اتجاهاً جديداً لم يسبق فى المسائل البشرية وما يتعلق بها ، تقلب تيار الفكر وتصرف نظر الإنسان فى الاستعلام والاستهداء فى مسائله وفى تاريخه من الإنسان إلى الحيوان ، وتجعله يعتقد أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية ، وبغير ان تتداخل فيه قوة غير طبيعية ، وأن لا علة فى الكون سوى السنن الطبيعية ، وأن الموجودات ترتقى من مراتب الحياة الأولى إلى مراتبها العليا بعمل فطرى تدريجي عار من العقل والحكمة ، وأن الإنسان وسائر أنواع الحيوان ليس من صنع صانع حكيم بل هو نتيجة نواميس طبيعية انتهى بها التنازع للبقاء وناموس بقاء الأصلح والانتخاب الطبعى الذى هو سائر فى الكون إلى إنسان ناطق ذى شعور .

إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل فى المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارها العملية واضحة ، بل كان هذا ديناً جديداً يهدم الدين القديم من الأساس ويحل محله فلا غرابة إذاً إذا اضطرب لها رجال الدين وحسبوا لها كل حساب ، وخافوا على مصير الدين فى أوروبا .

يقول الأستاذ جود في كتابه :

« يصعب علينـا الآن أن ندرك تلك الدهشة والاستـغراب الذى فاجـأ أجدادنا عندما ظهر كتاب أصل الأنواع لدارون ، وعندما جاءت النتائج أن دارون أثبت – أو يظن أنه أثبت – أن عمل ارتقاء الحياة عـلى هذا الكوكب (الأرض) لم يزل مستمراً متوصلاً من ظهور الأميبا (Amoeba) وفرخ البحر (Jelly Fish) فى أشكـاله الأولى إلى أشكاله النهـائية العليـا وهى أرقى أشكال الحيـاة وأعلاها ، فلم يزل عـمل الارتقاء من الأميبا إلى طورنا متواصلاً غير منقطع » .

« بالعكس من ذلك إن الذين عاشوا فى عصـر فكتوريا إنما أرشدوا أن الإنسان خلق مـستـقل ، وهو فى الحقـيقـة نوع من ملك منحط ، أمـا إذا كان دارون مـصيـباً فالإنسان لم يكن إلا قـرداً راقياً ، فعز على أهل عصر فكتـوريا أن يكون الإنسان قرداً راقياً بدل أن يكون ملكاً منحطاً ، وما طابت لهم هذه النـظرية واجتهدوا أن يتخلصوا الإنسـان من هذه السبـة التى لحقتهم من هذه العـقيـدة فى الإنسان واقترحـوا لذلك اقتراحات [١] » .

*** إقبال الجمهور على نظرية الارتقاء :**

ولكن الجمهـور والدهماء من الناس تلقوا هذه النظرية بالقبول – رغم مـا فيها من ضـعف ونقص من الوجهـة العلمـية – فـهمـوها أو لم يفهـموها – كـأن الأذهان كـانت متـهيئة لمثل هذه النظرية ، وكـأن الناس وجـدوا فيـها منافـساً للدين ورجـاله وصعب على رجـال الدين أن يعارضوا هذا الـتيار الجارف مـن أفكار الناس وأذواقهم والسيل العرم من المنشورات والمحاضرات ، فوضعت الكنيسة أوزارها فى هذه الحرب حـتى إذا مـات دارون سنة ١٨٨٣م منحـته الكنـيسـة الإنجليـزية أكـبر شـرف تمنحـه لإنسان ، وذلك بأنها أذنت بدفنه فى ويست منسترايبى محل دفن الرجال الدينيين .

---

(١) Guide to Modern Wickedness p. 2,5-236.

وكان تأثير هذه النظرية بعيداً عميقاً فى الأفكار والحضـارة والأدب والسياسة تراه وتلمسه فى أخلاق الناس ، وفى نزعات الرجوع إلى الفطرة وإلى العهـد الذى كان الإنسان يعيش فيه على الفطرة عارياً حراً ، وفى تعيين المثل الكامل للإنسان وفى جميع الأعمال والأخلاق التى لا تصدر إلا على تسليم أن الإنسـان إنما هو حيوان راق ، وفى فساد الحياة المنزلية الذى يعبر عنه المستر شبرد أحد علماء الإنجليز بقوله : « لقد ظهر فى إنجلترا جيل من الناس يجهل الحياة المنزلية جهلاً باتاً ، ولا يعرف غير حياة القطعان والبهائم » .

* **من جنايات المادية :**

وكان من نتـائج هذه المادية الجارفة ، والتـربية اللادينيـة التى ليس فيهـا نصيب للأخلاق ومخافة الله عزوجل والإيمان بالآخرة أن أصحاب المراكز الكبيرة ، ورجال السياسـة والمسئولية يرتكبـون فى بعض الأحيان جنايات لا يتنزل إليهـا أكبر الآثمين ، وذلك لمصلحة سياسية وهمية لبلادهم وأمتهم أو لجاه شخـصى أو ربح مالى ، فمن أغرب ما روى فـى تاريخ البشر من القسـوة والظلم ، أن الإنجليز قد أوقعـوا فى بنغال (الهند) مجاعة مزورة غير طبيعية ، لأنهم منعوا استعمال القوارب التى يحصد الناس عليها مزارع الأرز – وهو غذاء بنغال – واحتكروا الحبوب فى مقدار عظيم للجند – ولم يمكنوا الناس منها حتى فسدت وضاعت ، ومات مئات الألوف من الناس جوعاً والحبوب وفيرة فى البلاد ، والمواصلات ميسورة ، والقطر غادية رائحة ، والهند بلاد مخصبة تستطيع أن تغـذى بلاداً أخرى ، وذلك كله لما توقعوه من إقبال الناس على التجنيد ، وليبرهنوا على فشل الحكم الذاتى فى إدارة البلاد .

وقد تغافل لورد ماونت بيتن حاكم الهند العام سنة ١٩٤٧ عما يدبر من الفتك بالمسلمين فى دلهى وبنجـاب الشرقيـة ، فقد اتصلت به أنبـاء المؤامرات والخطط التى كانت تبيت ضد العنصر الإسلامى فى هذه المنطقة ، وأنذره الخبراء بوقوع اضطراب طائفي هائل ، فنام على كل ذلـك انتقاماً من أن المسلمين لم ينتـخبـوه حاكـماً عـاماً لبـاكستان كـمـا فعل أهل الهـند ، ولتكون هذه الاضطرابات الطائفـية ، والحـروب الأهلية حجة على عـدم أهلية أهل البلاد للاستقلال ، وكونـهم عيالاً على الإنجليز فى الأمن والنظام ، فكان نتيجة ذلك ، تلك المجزرة البشرية الهائلة التى عقمت القرون أن تلد مثلها .

ومن ذلك أن « ريدكلف » الذى اختـاره الفـريقـان الهنديان حكـماً فـى مسـألة بعـض مدن بـنجـاب هل تنضم إلى هندوستان ، أو إلى باكستان حكم حكماً جائراً ، فكان نتيجة ذلك جلاء المسلمين من فيـرزوبور ، وكورداسـبور ، ومتـاعب عظيمة ، وخسائر كبيرة فى النفوس والأموال .

أما تأييد ترومان للصهيونية ، ودولة إسرائيل فى فلسطين ، ومـعارضـتـه للقضـيـة العربيـة التى لا غبـار عليهـا ، لأجل أن يكسب ود اليهود ويتمتع بنفـوذهم السياسى والمالى والصحافى ، وليكسب انتخابه ، وتعاميـه عن براهين الدول العربية الساطعة ، وسكوت أمـريكا على فظـائع فرنـسا فى الجـزائر ، ووقـوفـهـا بجوار هذه الدولة الجائرة فى قضية الجـزائر العربية الإسلامـية ، وتعاونها على الإثم والعدوان ، فقـضية تنبىء عن ضعف أخلاق العظماء فى أوربا وأمريكا ، ودوران الحياة السياسية على الفوائد لا المبادئ .



الفصل الثانى
الجنسية والوطنية في أوربا

*** انكسار الكنيسة اللاتينية سبب قوة العصبية والقومية والوطنية :**

قدمنا أن الوطنية والقومية والاعتداد الشديد بالشعب والموقع الجغرافى من خصائص الطبع الأوربى الذى سرى فى العنصر الأوربى مسرى الروح ، وجرى منه مجرى الدم وأصبح طبيعة ثانية له ، ولكن النصرانية قهرت هذه الطبيعة ، لأنها – على علاتها ، وبرغم ما طرأ عليها من التحريف والتبدل – لا يزال عليها مسحة من تعليم المسيح ، وفيها أثارة من علمه ، والدين السماوى مهما تحرف وتغير لا يعرف الفرق المصطنعة بين الإنسان والإنسان ، ولا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان ، فجمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين وجعلت من العالم النصرانى عشيرة واحدة ، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فغلبت العصبية القومية والنعرة الوطنية ،وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة ، ولكن لما قام لوثر سنة ١٤٨٣-١٥٢٦م بحركته الدينية الإصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية ، ورأى من مصلحة مهمته أن يستعين بالألمان جنسه ونجح فى عمله نجاحاً لا يستهان بقدره ، وانهزمت الكنيسة اللاتينية فى عاقبة الأمر فانفرط عقدها ، استقلت الأمم ، وأصبحت لا تربطها رابطة ، ولم تزل كل يوم تزداد استقلالاً فى شؤونها وتشتتاً ، حتى إذا اضمحلت النصرانية نفسها فى أوربا قويت العصبية القومية والوطنية ، وكان الدين والقومية ككفتى ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى ، ومعلوم أن كفة الدين لم تزل تخف كل يوم ، ولم تزل كفة منافسته راجحة ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الفاضل الإنجليزى المعروف لورد لوثين Lord Lothian السفير البريطانى السابق فى أمريكا فى خطبته التى ألقاها فى حفلة جامعة عليكرة فى يناير سنة ١٩٣٨م .

« لما قضت حركة لوثر التى تدعى حركة إصلاح الدين على وحدة أوربا الثقافية والدينية ، انقسمت هذه القارة فى إمارات شعبية مختلفة ، أصبحت منازعاتها ومنافساتها خطراً خالداً على أمن العالم » .

وكان نتيجة الانحطاط الدينى ، وانخفاض مبادئ الدين والأخلاق ، رجحان كفة الوطنية والجنسية ، يقول « لورد لوثين » فى نفس هذه الخطبة .

« إن الدين الذى هو المرشد الـلازم للإنسان والوسيلة الوحـيدة لحصـول الغاية الخلقية ، والشرف المعنوى للحياة البـشرية ، كان نتيجة الانحطاط فى سلطانه أن فتن العالم الغربى بمذاهب سياسية تقـوم على أساس اختلاف الأجناس والطبقات وآمن – بتأثيـر العلوم الطبيـعية – أن الرقى المادى هو الغـاية العليا ، والوطر الأكـبر ، ولا يزال يزيد هذا الأمر فى مشـاكل الحـياة وأثقالها وتكاليفهـا ، وكان من نتائج ذلك أيضاً أنه صعب على أوربا أن توفق بين روحها وحـياتها توفيقاً ينقذها من القـومية ، داهية هذا العصر الكبرى (١) » .

*** طوائف العصبية الجنسية فى أوربا :**

كان نتـيجة انحلال النـظام الدينى وانتعاش النعـرة القومية أولاً ، أن أصـبحت أوربا معسكراً واحـداً ضد الشرق كله ، وخطت خطاً فاصـلا بين الغرب والشرق أو بين أوربا وبين سواها من القارات والأقـاليم ، والجنس الآرى وبين ما عداه من أجناس البشـر ، يعد أن كل مـا دون هذا الخط له الفضل على كل مـا وراءه من نسل وشعب وثقـافة وحـضارة وعلـم وأدب ، وأن الأول خلق ليسـود ويحكـم ، والثـانى ليخـضع ويدين ، والأول ليبقى ويزدهر ، والثـانى ليموت ويضمـحل ، وهذا بعينـه ما امتاز به اليونان والروم فى عـهدهم ، فقد كانوا لا يعـدون مهذبين إلا أنفسـهم فقط ، وكانوا يسمـون كل شىء غـريباً ، خصوصاً كل مـا كان واقعاً فى شـرق المحيط الأطلانتيكى بربرياً .

وكان نتيجة هذه النفسية الجنسية والعصبية ضد كل ما جاء من الخارج ويعزى إلى أجنبى ، أن صـار بعض الشعـوب الأوربية ينظر إلى الدين المسـيحى وإلى المسيح كطارئ ونزيل يريـدون أن ينفـوه من بلادهم ويتـبـرأوا منه ، يمثل ذلك مـا قـال أحـد المعلمين فى ألمانية وهو البروفسور أترنى :

« لأى شىء يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية ، ولماذا يقص عليهم قصص إبراهيم وإسحق ؟ ينبغى أن يكون إلهنا أيضاً ألمانياً » .

---

(١) Convocation Adress of Lord Lothian at Muslim University Aligarh

ونشأت في ألمانيا طائفة تتبرأ من سيدنا المسيح عليه السلام لكونه من بنى إسرائيل ، والذين لا يزالون يدينون له بالحب والتعظيم يجتهدون أن يثبتوا أنه كان من سلالة آرية ، وظهرت فى ألمانية نزعة إلى إحياء الآلهة القومية القديمة التى كان يعبدها الشعب الألمانى فى عهده القديم .

وليست روسيا العالمية بأقل حماسة للعصبية الجنسية والوطنية من منافسها القديم ألمانيا .

فيعتقد الناس فى روسيا أن أغلب الاختراعات الكبرى فى العصر الحديث إنما يرجع الفضل فيها إلى الروس .

فليس « لافوازييه » هو واضع القانون الخاص بتركيب الأجسام ، بل هو مدين بما ينسب إليه للعالم الروسى « ميشيل لوموتوسوف » وليس « لأديسون» فضل فى استخدام الكهرباء فى الإضاءة فقد سبقه « لووجين » الروسى بست سنوات إلى غير ذلك ، ونشرت جريدة برافدا: أن العلماء الروسيين توصلوا إلى اختراع التلغراف قبل « مورس » وإلى تسيير القاطرة البخارية قبل « ستفنسن » إلى غير ذلك من تحديات للتاريخ ليس الباعث عليها إلا العصبية الجنسية وتقديس « روسيا» .

*** عدوى الجنسية فى الأقطار الإسلامية :**

ومما يدعو إلى الأسف والاضطراب ، أن هذه العدوى الجنسية قد سرت إلى بعض الأقطار الإسلامية التى كان يجب وكان من المترقب أن تكون زعيمة لدعوة الإسلام العالمية ، حاملة فى عصرها لرسالة الأمن والسلام ، وأن تكون جبهة قوية ضد الجنسية والوطنية ، وذلك بانحلال الدين فى هذه البلاد ، وبتأثير الآداب الأوربية والحضارة الغربية ، فترى فى الترك النزعة الطورانية والدعوة إلى إحياء جاهليتها القديمة وآدابها وثقافتها ، والنظرة إلى الدين الاسلامى الذى انتشر على أيدى العرب وشريعة الإسلام وثقافته ولغته نظرة شبه نظرة ألمانيا الجديدة إلى الأديان التى جاء بها الأنبياء من غير النسل الآرى والآداب السامية وثقافتها ، فاعتقد بعض المفكرين فى تركيا الفتاة أن الإسلام دين طارئ غريب لا يصلح للترك ، وأن الأولى بهم أن يرجعوا إلى وثنيتهم الأولى قبل أن اعتنق آباؤهم الدين الإسلامى ، تقول الكاتبة خالدة أديب هانم عن « ضياء كوك ألب » من كبار مؤسسي تركيا الجديدة أدباً وتهذيباً

« كان ضياء كوك ألب يريد أن ينشئ تركيا جديدة تكون صلة بين الأتراك العثمانيين وبين أسلافهم الطورانيين ، فقد كان يريد أن يقوم بإصلاح مدنى بواسطة المعلومات التى جمعها عن التنظيمات السياسية والمدنية فى عهد الأتراك قبل الإسلام، كان ضياء يعتقد ويؤمن بأن الإسلام الذى وضعه العرب لا يصلح لشأننا ، ولابد لنا من إصلاح دينى يوافق طبائعنا إذا لم نرجع إلى عهدنا الجاهلى [1] » .

ومما لا شك فيه أن هذه النزعة قد وجدت فى الترك وكذلك فى الإيرانيين فى الزمن الأخير :

قال المرحوم الأمير « شكيب أرسلان » وهو الخبير الثقة فيما يتعلق بالترك فضلاً عن العرب لطول مكثه فى تركيا وكان عضواً فى مجلس الأمة :

« وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية تخالف الفئة الأولى – أى الفئة التى تقول بالقومية العثمانية الإسلامية – فى كل هذه النظريات ، وأشهر دعاتها ضياء كوك ألب وأحمد أغائف ، ويوسف أقشورا اللذان قدما من روسيا ، وجلال ساهر ، ويحيى كمال ، وحمد الله صبحي رئيس وجاق « تورك بوردى » ، ومحمد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الأدباء والمفكرين ، وأكثر الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجداً ، وأسبقها إلى الحضارة ، وأنهم هم والجنس المغولى واحد في الأصل ، ويلزم أن يعودا واحداً ، ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ، ولم يتقصروا منها على الترك الذين فى سيبريا وتركستان الصين وفارس والقوقاس والأناضول والروملي ، بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول فى الصين ، وإلى المجر والفنلانديين فى أوربا ، وكل ما يقال إنه ينتمى إلى أصل طورانى ، وهم يقولون بخلاف ما يقول الأولون ، فهم ترك أولاً ومسلمون ثانياً ، وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية ، إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة فى الطورانية حتى قالوا : نحن أتراك فكعبتنا طوران ، وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الأناشيد للأحداث فى وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب بها ويرقوا

---

(١) محاضرات « خالدة أديب هانم » في الجامعة الملية بدلهى .

مستوى نفوسهم بزعمهم [1] » ...... وقال أيضاً :

« هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى اقتداء بالأمم الأوربية فى الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتد أكثر من ذى قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك ، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم وعن الذئب الأبيض الذى كانوا يعبدونه ، حتى صوروه فى بعض كتبهم الحديثة ، وقال لهم المرحوم (موسى كاظم) شيخ الإسلام – وهو الذى أخبرنى بذلك –: إن العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان ، ولكنهم اقتلعوها بالإسلام وافتخروا بأن الله لطف بهم وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات ، وأما أنتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالبارئ تعالى وتتذاكروا عبادة الذئب الأبيض ، فيا للأسف » .

« فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن أديانهم القديمة التى منها الكيومرتية (أى تعظيم النور) والتحرز من الظلمة . ومن هنا جاءتهم عبادة النار ، ومنها فرقة (زرادشت) الذى كان يدعو إلى وحدانية الله ، ويقول : إنه خالق النور والظلمة وإن الخير والشر إنما حصلا بامتزاجهما ، وإنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود العالم ، إلى غير ذلك من العقائد والأوابد والآثار التى كانت عند قدماء الفرس : كالوثنية ، والزردشتية ، والمانوية ، ومنهم من يبحث عن المزدكية التى كانت تدعو إلى الإلحاد والإباحية [2] » .

*** الديانة القومية الأوربية وأركانها :**

والخطوة الثانية فى هذا الطريق أن أصبحت الشعوب والدول فى أوربا ، الصغيرة منها والكبيرة ، عوالم مستقلة لا ترى العالم خارج الخطوط التى خطتها الطبيعة من جبال وأنهار ، أو خطتها بيدها من غاية سياسية واستعمار ، ولا تعترف

---

(١) من حواشى الأمير « شكيب أرسلان » على « حاضر العالم الإسلامي » الجزء الأول ص ١٥٨–١٥٩.
(٢)حواشى حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ١٦٤–١٦٥ .

بوجود الإنسان فى غير منطقـتها فلا تحترمه ولا تعرفه ، واتخـذت نفسهاإلها تدين له بكل مـا يدين به العبـاد المخلصـون من عـبـادة وتقـديس وأضـاح هى دمـاء الآخـرين ونفوسـهم وأموالهم وبلادهم ، وقـتال فى سبـيله ، وتفان فى طاعـته ، ومحـيا وممات لأجله ، وهذا الدين القومي يشتمل على شيئين : إيجابى وسلبى ، أما الإيجابى فهو الاعتقـاد بأن الشعب أو الأمة فـوق كل شىء ، وأفضل من كل شىء ، وأن الله - إذا كانت الأمـة تعترف به وتعـتقد أو ترى أن من المصلـحة أن تستغـل هذه الكلمة - لم يخلق أفـضل من هذه الأمة ، ولا أنجب مـنها ، ولا أذكى ولا أقـوى ولا أحق بالحكم والسيـادة والولاية على الأمم ، والرعاية للعـالم منها ، وأنها أمـينه ووكيله ووصـيه فى الأرض ، ولم يخلق بلاداً أحب إليـه من هذه البلاد ، ولا تربة أذكى من تربتـها وهذا هو الدين القومى الذى لا يسمح لإنسان ان يعيش فى بلاده حتى يؤمن به .

ولا تخـتلف شـعوب أوربا الحـاضـرة ودولها فـى هذه الديانة القـوميـة إلا فى الصراحـة والنفاق ، وأن بعضهـا تقول وتفعل ، وبعـضها تفعل ولا تقـول ، فإن بذرة القوميـة والوطنية إذا ألقيت فى أرض فـإنها لا تلبث أن تنشأ وتمد عروقـها فى الأرض ثم تصيـر شجـرة ، فدوحة تـظلل الأمة ، ولا يمكن لشـعب أن يؤمن بالقوميـة ، ثم لا يعتدى ولا يتطاول أو لا يريد أن يعتدى ويتطاول ولا يمقت الآخرين ، ولا يزدريهم ، كما لا يمكن أن يسرف الإنسان فى الخمر ، ثم لا يسكر ولا يهذى كما قال الشاعر:

ألقاه فى البحر مكتوفاً وقال له :

إيـــاك إيـــاك أن تبتل بالماء

خـصوصـاً إذا كان الـعلم والأدب والشعـر والفلسـفة والتـاريخ وحـتى العلوم الطبيعية مـتعاونة على إنشاء العاطفة القوميـة والنعرة الشعبية والخيلاء الجنسية والفخر بالآباء والتعظم بالماضى ، ولا يكون رادع من خلق ولا وازع من دين ، وتولى القيادة رجال لا يعـرفون غير القـومية والمجد القومى غاية مـرمى ، ومن مقومات هذه الحـياة القـوميـة التى لا تقـوم بغيـرها ، الكراهة والخـوف ، وذلك هو الجزء السلبى فى دين القـوميـة ، فإن الحـماسـة القومـيـة لا تظهر ولا تبـقى حتى يـكون للشعب مـا يكرهه ويخافه ، فلا يزال القائدون يثيرون الكامن من عواطفه ، ويذكـرون الخامد من حميته ويضربون علـى الوتر الحساس وهو الكراهـة والخوف ، فلولاهما لانقـشعت سـحابة القومية وتراجع سيلها .

وقد حلل ذلك الأستاذ « جود » تحليلاً فلسفياً نفسياً فقال :

« إن العواطف التى هى مشتركة والتى يمكن إثارتها بسهولة هى عواطف المقت والخوف التى تحرك جماعات كبيرة من الدهماء ، بدل الرحمة والجود والكرم والحب ، فالذين يريدون أن يحكموا على الشعب لغاية ما ، لا ينجحون حتى يلتمسوا له ما يكرهه ويوجدوا له من يخافه ، وإذا أردت أن أوحد الشعوب ينبغى أن اخترع لهم عدواً على كوكب آخر – على القمر مثلاً – تخافه هذه الشعوب ، فلم يعد من دواعى العجب أن الحكومات القومية فى هذا العصر فى معاملتها لجيرانها إنما تقاد بعواطف المقت والخوف ، فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونها ، وعلى تلك العواطف يقوى الاتحاد القومى [1] ».

*** الحل الإسلامى لمعضلة الحرب والمناقشات الشعوبية :**

إن هذا الحل الذى قدمه الأستاذ « جود » لمشلكة الأمم ومعضلة الحروب والمنافسات الشعوبية حل عادل وتوجيه معقول ، فلا تنصرف عداوة الشعوب والأمم بعضها لبعض حتى يكون لها عدو من غيرها تشترك فى عداوته وكرهه والمخافة منه . وتتعاون فى الحرب معه ، ولكن هذا لا يحتاج إلى اختراع وإبداع ، ولا يلزم أن يوجد لها عدو على كوكب آخر كالقمر والمريخ ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد؟ فالذين ينبه إلى أن هذا العدو للنوع الإنسانى ولذرية آدم يوجد على الأرض نفسها ، وحق على كل إنسان أن يعاديه ويحترس منه ويتعاون مع بنى نوعه فى معاداته ومحاربته يقول القرآن : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾[2] ويقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ [3].

وقد قسم الإسلام العالم البشرى إلى قسمين فقط ، أولياء الله وأولياء الشيطان وأنصار الحق وأنصار الباطل،ولم يشرع حرباً ولا جهاداً إلا ضد أنصار الباطل وأولياء

---

(١) Guide to Modern Wickedness. p. 150.

(٢) آية٦: فاطر .　　　(٣) آية ٢٠٨: البقرة .

الشيطان أينما كانوا ومن كانوا ، فقال ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفًا** ﴾(١) . وهذه الحروب التى لم يشهد التاريخ أيمن منها وأقل إراقة للدماء وذهاباً بالنفس ، ولا أعود منها على الإنسانية بالصالح العام والخير المشترك والسعادة جمعاء فلا يربو عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) فى جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التى ابتدأت من السنة الثانية للهجرة ، ودامت إلى السنة التاسعة على ألف وثمانية عشر نفساً [١٠١٨] المسلمون منهم [٢٥٩] والكفار [٧٥٩] (٢) أما المصابون فى حرب ١٩١٥-١٩١٨ الكونية فيبلغ عددهم على الأصح واحد وعشرين مليون نسمة (٣) [٢١٫٠٠٠٫٠٠٠] عدد المقتولين منهم سبعة ملايين [٧٫٠٠٠٫٠٠٠] وقدر المستر مكستن (Maxton) عضو البرلمان الإنجليزى أن المصابين فى الحرب الثانية الكبرى ١٩٣٩ .... لا يقل عددهم عن خمسين مليوناً ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ وقد كلف قتل رجل واحد فى الحرب الأولى عشرة آلاف جنيه ، أما مجموع نفقاتها فيبلغ ٣٧٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ أما نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات ١٫٠٠٠٫٠٠٠ (٤) .

ثم كانت الحروب الدينية الإسلامية حاقنة للدماء عاصمة للنفوس والأموال وفاتحة عهد السعادة والغبطة فى العالم ، أما حرب التنافس والحمية الجاهلية التى تدعى الحرب الكبرى فقد كانت مقدمة حروب متسلسلة ، وإليك ما قال المستر لويد جورج بطل الحرب الكبرى ورئيس الوزارة الإنجليزية حينئذ :

---

(١) آية ٧٦: النساء .

(٢) عولنا فى هذه الأعداد على إحصاء مؤلف السيرة النبوية الشهير القاضى محمد سليمان المنصورفورى فى المجلد الثانى من كتاب سيرة رحمة للعالمين ولم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، أما إحصاءات غيره من المؤلفين فإنها تمثل عدداً اقل من هذه الأعداد .

(٣) وقد حقق المستر . هـ . تاونسند E.H. Tawansend فى مقالة له نشرتها صحيفة هندو الإنكليزية اليومية (٣١ يناير ١٩٤٣م) أن عدد المصابين فى الحرب الكبرى لا يقل عن ٣٧٫٥١٣٫٨٨٦ المقتولون منهم ٨٫٥٤٣٫٥١٥ .

(٤) من مقالة لتاونسند فى صحيفة هندو .

« لو رجع سيدنا المسيح إلى العالم لما عاش إلا قليلاً ، إنه سيرى الإنسان لا يزال بعد ألفي سنة مشغوفاً بالشر والإفساد والقتل والفتك ببني نوعه ، والنهب والإغارة ، بل إن أكبر حرب في التاريخ قد استغرقت دم جسم الإنسانية وأهلكت الحرث والنسل حتى أصابت الناس مجاعة ، وماذا يرى السيد المسيح يا ترى ؟ هل يرى الناس يتصافحون كالإخوان والأصدقاء ؟ لا بل يراهم يتهيأون لحرب أشد هولاً من الأولى وأعظم فتكاً وتعذيباً ، يراهم يتسابقون في اختراع الآلات الجهنمية ويبتدعون وسائل التعذيب [1] ».

وليس اشتغال هذه الشعوب بالعداوة والحروب فيما بينها ، وما هذه القومية والوطنية إلخ إلا لانصراف هذه الشعوب عن عداوة عدوها الحقيقي ونسيانها له ، فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل ، وكما قال الشاعر الجاهلي :

وأحياناً على بكر أخينا		إذا لم نجد إلا أخانا

فإذا عرفت عدوها وعرفت ضرره على نفسها ، وعرفت خطره وقوته كان ذلك مشغلة لها عن كل حرب وعداوة وشح ومنافسة وأحقاد وهمية وترات مصطنعة ، وقد قالت العرب قديماً : « عند الحفيظة تذهب الأحقاد » وهكذا جعل محمد ﷺ من قبائل العرب المتعادية التي كانت سيوفهم تقطر من دمائهم كالأوس والخزرج في المدينة ، وبني عدنان وبني قحطان في الجزيرة ، والأجناس المتباينة في العالم ، أمة واحدة ومعسكراً واحداً إزاء الكفر الجاهلية ، إذ جعل لها في خارجها ما تكرهه وتعاديه ، وهو الباطل والطاغوت ووكلاؤه وأنصاره ، وشغلها بحربه وقرأ : ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا** ﴾[2] فنسيت أحقادها وتراتها ولم تتذكرها إلا لما انصرفت عن عدوها وتشاغلت عن قتاله ومعاداته فكانت حروب داخلية وفتن يعرفها الجميع .

---

(١) وقد صدقت فراسته ووقع تحت أعيننا ما تنبأ به وقد فاقت هذه الحرب الجارية الماضية فتكاً بالأرواح والعمران وتدميراً للبلدان ووقائع تشيب لهولها الولدان وغلاء في السلع وارتفاعاً في الأسعار وأصابت الناس مجاعات شديدة في كثير من الأقطار .

(٢) آية ٧٦: النساء.

*** دعاية القوميين وإضرارهم بالشعوب الصغيرة :**

ولا يزال القوميون فى داخل البلاد وخارجها يزينون للشعوب الصغيرة القومية ويطرون أدبها ولسانها وثقافتها وتهذيبها ، ويمجدون لها تاريخها حتى تصبح نشوانة بالعواطف القومية والخيلاء والكبرياء ، وتدل بنفسهـا وتظن أنها مانعتها حصونها وما أعدت للحرب ، وتنقطع عن العـالم وتتحرش أحياناً بالدول الكبيرة غـروراً بنفسها ، أو تهجـم عليها الـدول فلا تلبث إلا عـشية أو ضـحاها ، وتذهب ضـحيـة لقوميتـها وانحصارها فى دائرة ضيقة ، ولا يغنى أولئك المسئولون عنها شيئاً ﴿**كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك**﴾(الحشر:الآية١٦) كذلك وقع لبولندة وبلچيكا وهولاندة ويونان ودنمارك ، وهكذا وقع لإيران والعراق فى الحرب الثانية .

*** مطامع الدول الكبيرة :**

أما الدول الكبيرة فترى من واجب قوميتـها أن تبسط سيطرتها على أكبر رقعة من الأرض وترفرف أعـلامهـا على مسـاحات واسعـة وإن كانت قـفاراً أو صـحارى وتكون لها مستعمرات وممتلكات فى قارات مـختلفة ، وان كان ذلك يكلفها جيوشاً وأموالاً بغير فـائدة جدية تعود عليها ويصعب عليـها حراستها والقيـام بشئونها ، كل ذلك مما توجبـه عليهـا شريعة القـومية ، وليس لهـا غاية أخـلاقية وثمـرة أدبية غيـر ما تسميه « المجد القومى والشرق القومى » .

وقد شرح الأستاذ « جود » المجد القومى بقوله :

« إن المجد القومى إنما يعنى أن يكون الشعب يملك قوة يسلط بها رغـبته وهواه على آخرين إذا مـست الحاجة ، ويكفى لشناعـة ما يسمونـه (المثل الكامل للشعب) وهو المجد الـقومى إنه يناقض الصـفات الخلقـية والفضـيلة إذا كانت بـلاد لا تقول إلا صدقـاً ، وتفى بوعودها وتعامل الضـعفاء مـعاملة إنسانيـة فمسـتوى شرفـها عند الأمم منحط فـالشـرف - كمـا قال المستـر بلدون -: عـبارة عن قـوة تنال الأمـة بها المجـد والفـخار وتسـتلفت إليهـا الأنظار وتشغل الأفـكار ، ومعلوم أن هذه القـوة التى تنال الأمة بها هذه الدرجة من الشرف إنما تتوقف على قنابل نارية متفجرة ومشعلة للنيران وعلى وفـاء الشبـان وولائهم للوطن ، الذين يـحبـون إلقاء تـلك القنابل على المدن ، فـالشرف الـذى يمدح لأجله شعـب يناقض تلك الصـفات والأخـلاق التى يمدح بهـا الفرد ، فأرى أن الشعـب يجب أن يعد همجياً وغير مهـذب بالمقدار الذى يملكه من

الشـرف ، إذ ليس من الشرف أن ينال الإنسان أو الشعب الشـرف بالخديعة والمكر والظلم [١] » . ويقول في موضوع آخر :

« إن الكبر – أكثر من الطمع – هو الذى يحمل الطبقة الحاكمة في بريطانيا على اتباع خطط لا تتفق مع ما يتظاهرون به من حب الصلح والوئام ، دع رجلاً يقترح على ولاة الأمر في بريطانيا أن يهجروا قيراطاً من رمل من ممتلكاتها التى لا تغرب فيها الشمس ومن أشدها قحولة وجدباً ، تر المحافظين الأبطال في إنجلترا يقيمون العالم ويقعدونه سخطاً وحنقاً ، وترى الصحافة الإنجليزية المعتدلة تتميز غيظاً إذاً تعلم أن هؤلاء المحافظين ليسوا طماعين فقط بل هم مستكبرون معاندون [٢] ».

*** منافسة الشعوب في المستعمرات والأسواق :**

وقد سبقت إلى هذا الاستعمار والامتلاك أمم وتخلفت أخرى ، ثم نهضت الأخيرة تنافسها وتطالب بأسهامها وتبحث لها عن مستعمرات وأسواق لبضائعها وشرفات تغرز عليها علم المجد والفخار ، وتعد بفضلها من الإمبراطوريات الكبار ، وقامت الأولى تدفعها وتحول بينها وبين ما تشتهى ، وتزعم أنها إنما تغضب للأمم الصغيرة ونصرة المظلوم ، ولكن كثيراً من الناس ، من أنفسها ومن الأجانب ، يشكون في إخلاص هذه الأمم وفي صفاء طويتها وحسن نيتها .

يقول الأستاذ « جود » : « الانجليزى – جاهلاً أو متجاهلاً للمسائل التى أدت إلى قسمة ضيزى للعمران ، ضارباً صفحاً عن سخط الشعوب مثل اليابانيين – يعتقد أن الإنجليز أمة سلمية ويرمى اليابانيين بحب القتال والضراوة بالحروب والإنجليز لاشك أمة سليمة ولكن مسالمتهم مسالمة لص قد اعتزل حرفته القديمة ، وقد احرز شرفاً وجاهاً بفضل غنائمه السابقة ، وهو يبغض الذين يدخلون جديداً في حرفته القديمة ، عنده فضول أموال وغنائم لا يستهلكها . ولكنه يلقب الذين يريدون ان يساهموا في ذلك بهواة الحرب [٣] ».

---

(١) Guide to Modern Wickedness. p. 153.

(٢) Guide to Modern Wickedness. 180

(٣) Guide to Modern Wickedness. p.180.

وكثيراً ما تنشب الحرب بين هذه الأمم السابقة إلى السيادة والتملك وبين الأمم المتطلعة لها الطامحة إليها ، ولكن هذه الحرب لا يصح قياسها على حرب تشهر لردع الظالم والانتصار للمظلوم وإقامة القسط عملاً بقول الله عزوجل : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ (الحجرات:الآية٩) ، ولكن هذه الحرب حرب شح ومنافسة، وحرب غيرة وحسد ، ما كانت جمعية الأمم (الفقيدة) التى كانت هذه الحروب تشهر تحت إشرافها ، ولا خليفتها « الأمم المتحدة » إلا كما قال الأمير شكيب أرسلان : « مثل العروض بحراً بلا ماء ، ما وجدت إلا لتلبس الاعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم علي قوى متجاوز » أو فى لفظ فقيد الإسلام الدكتور محمد إقبال : « جمعية لصوص ونباشين تألفت لتقسيم الأكفان ».

قال الأستاذ (جود) الإنكليزى :

« إن حرباً تشهر تحت إشراف عصبة الأمم ليست للعدل بين الأمم يقوم بها شرطة العالم للأخذ على يد الظالم وعقاب المعتدى ، ليست هذه الحرب إلا كفاحاً بين الطوائف المتنافسة فى القوة . الواحدة منها حريصة على المحافظة على القسط الأكبر من ثروة العالم ومواردها ، والأخرى متهالكة على تحصيلها ، إن مثل هذه الحروب لا تختلف عن حروب نشبت بين الطوائف المتنافسة فى الماضى ، ولا عن حروب النمسا وبروسيا [1] ، وعن حروب السنوات السبع [2] وعن حروب نابليون ، وعن حرب ١٩١٤–١٩١٨ لا تختلف هذه الحرب عن هذه الحروب كلها إلا فى الاسم .

---

(١) حرب منافسة وطمع اشتركت فيها فرنسا وأسبانيا وإنجلترا وهولندة لتناول غنائم انتقصت فيها أطراف النمسا وممتلكاتها ونشبت على أثر وفاة فريدريك ملك النمسا وجلوس ابنته ماريا تيريزا على العرش بوصيته ورضا الدول سنة ١٧٤٠ ، وانتهت سنة ١٧٤٨ .

٢) حروب اشتركت فيها فرنسا وروسيا وسويدن وأكثر إمارات الدول الألمانية وبروسيا وإنجلترا حماية لبعضها واعتداء على بعضها ابتدأت سنة ١٧٥٦ وانتهت سنة ١٧٦٣.

أما التذرع بأن هذه الحروب إنما نصبت للدفاع عن الديمقراطية وعن عصبة الأمم ، وضد الفاشية والاعتداء فلا يغير من الموقف شيئاً [(١)] ».

*** الفرق بين حكم الجباية ، وحكم الهداية :**

روى أن عمر بن عبدالعزيز خليفة المسلمين قال لعامله مرة : « ويحك إن محمداً ﷺ بعث هادياً ولم يبعث جابياً » وهذه الجملة تعرب عن روح الحكومة الدينية التى تتأسس على منهاج النبوة ، وتسير على آثار الأنبياء وخطتها وسياستها ، فتكون عنايتها واهتمامها بالدين وبإصلاح أخلاق المحكومين وبما يعود عليهم بالنفع والضرر فى الآخرة أكثر من اهتمامها بالجباية والخراج وأنواع المحاصيل والإيراد ، وتنظر فى جميع مسائل السياسة والمالية من الوجهة الدينية وتقدم المبادئ الدينية والخلقية على المنافع والمصالح المادية ، فتمنع الخمر وتحرم الزنى وأنواع الخلاعة والفجور والعقود المالية الفاسدة النافعة للأفراد المضرة بالمجتمع ، فتحظر الربا والقمار وإن كان ذلك يرجع على الحكومة بالخسارة المالية الفادحة ، وتشرع مشاريع إصلاحية وتراقب الأخلاق وتعنى بتعذيب النفوس ، وإن كان ذلك يكلفها أموالاً طائلة وميزانية ضخمة ، ونتيجة هذا النوع من الحكومات إذا قامت فى بلاد مّا بينّها القرآن وتنبأ بها للمهاجرين الأولين : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[(٢)].

أما الحكومات التى تقوم للجباية لا للهداية ، وللانتفاع لا للنفع ، فطبيعى أن تكون عنايتها مصروفة إلى أنواع الخراج والمحاصيل والغلات ، وكثيراً ما يكون ذلك على حساب الأخلاق والفضائل والنظام المنزلى ، فتبيح أنواعاً كثيرة من الخلاعة والفجور بقيود تنظمها ولا تمنعها ، فتسمح بالبغاء الرسمى ، وقد ترابى بنفسها وتبيح القمار ، وكثيراً من الجنايات والجرائم الخلقية بتغيير الأسماء وتحديد بعض الأشياء تأميناً لمصالحها ، ولا تبيح الخمر فقط بل تبيعها وتتولى تجارتها وتنظيمها وتحاكم

(١) Guide to Modern Wickedness. p. 191.

(٢) آية ٤١ : الحج .

وتعاقب من يمنعها ويجاهد ضدها ، وقد تجبر أهل بعض البلاد على اشتراء المخدرات التى تصدرها ، كما فعل بعض الحكومات الأوربية فى آسيا مع أهل الصين ، فطبيعى كذلك أن تصاب هذه الشعوب المحكومة فى أخلاقها وترزأ فى روحها وقلبها ، بل إن أهل البلاد ينحط مستوى أخلاقهم لمجرد المخالطة بهذه الشعوب الحاكمة ومجاورتها ، ويلحقهم عدوى الأمراض الخلقية الفاشية فى الأقطار الأوربية التى ولدتها الحضارة المادية هنالك ، وذلك ما أقروا به أنفسهم وشكوا منه .

فالحكومات الأوربية تحمل معها مفاسد الحضارة الغربية وشرورها ، وكيف يرجى من هذه الحكومات أن تزدهر الفضيلة والأخلاق ويرقى مستوى أخلاق الشعب فى ظلها ودولتها ، ولم يكن ذلك فى بلادها وأوطانها ، وليس ذلك من رسالتها ومهمتها ، ولا مما تدين به وتعتقده « وكل إناء بالذى فيه ينضح » ولم تزل طريق الملوك والفاتحين غير طريق الأنبياء والهداة والمصلحين ، وإن الحقيقة التى ذكرها القرآن على لسان ملكة سبأ حقيقة راهنة لا تختلف فى الأزمنة والأمكنة :

﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾(١).

★ ★ ★

(١) آية ٣٤: النمل .

الفصل الثالث
أوربا إلى الانتحار

*** عصر الاكتشاف والاختراع :**

إذا عرفت عصور التاريخ بما يمزها عن غيرها ، وأضيفت إليه ، أمكننا أن نسمى هذا العصر عصر الاكتشاف والاختراع ، وعصر اللاسلكى والكهرباء ، وفضل الأوربيين وتقدمهم فى هذا الباب وعبقرية رجال الاكتشاف والاختراع وإبداعهم من القضايا التى لا تقبل المكابرة .

ولكن مهما بالغ المبالغون فى إطراء الصناعات والمخترعات الحديثة فى أوربا ، وبرغم إعجابنا بها والثناء على مكتشفيها ومخترعيها ، ينبغى ألا ننسى أن هذه الصناعات والمخترعات ليست غايات فى نفسها مقصودة بالذات ، بل هى وسائط ووسائل لغاية أخرى نحكم عليها بالخير والشر ، والنفع والضر ، بمقياس هذه الغاية وكونها خيراً أوشراً ، ونحكم عليها بالنجاح والخيبة بالقياس إلى مطابقتها للغاية التى وضعت لها ، والنظر فى النتائج التى حصلت منها ، والدور الذى لعبته فى حياة الناس ومجتمعهم وأخلاقهم وسياستهم .

*** الغاية من الصناعات والمخترعات ، وموقف الإسلام منها :**

أما الغاية فعلى ما أرى هى التغلب على العقبات والصعوبات فى سير الحياة التى سببها الجهل والضعف ، والانتفاع بقوى الطبيعة المودعة فى هذا الكون ، وخيراتها وخزائنها المبثوثة فيها ، واستخدامها لمقاصد صحيحة من غير علو فى الأرض ولا فساد .

كان الإنسان يسافر فى الزمن القديم ماشياً ، ثم ألهم أن يسخر لذلك الحيوان، فاتخذ العجلات واتخذ الجياد العتاق ، ثم لم يزل يتدرج فى السرعة والاختراع حتى وصل من المركبة إلى القطار ، ومنه إلى السيارة ، ومنها إلى الطيارة ، وكذلك من السفينة الشراعية الى البواخر ، فلا بأس ، بل يا حبذا إذا كان ذلك كله تابعاً لمقاصد صحيحة يسافر الإنسان بها من مكان الي مكان لغرض صحيح جدى مثمر ، ويحمل عليها أثقاله إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق النفس ، ويوفر الوقت والقوة

وينتفع بها في الخير ، وقس على ذلك سائر القوى الطبيعية والمخترعات الحديثة التي ينتفع بها الإنسان انتفاعاً مشروعاً ، ويستخدمها لمقاصد رشيدة نافعة .

إن موقف الإسلام في ذلك بين واضح ، فقد أخبر أن الإنسان خليفة الله في الأرض قد سخر الله العالم لأغراضه الصحيحة بتصرف منه وغير تصرف فقال : ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾ ، وقال : ﴿الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ (إبراهيم) ، وقال : ﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الإسراء) ليلاحظ القارئ الإطلاق في قوله : ﴿وحملناهم فى البر والبحر﴾ ، وقوله ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ ، وقال ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الي بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ، إن ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون﴾ ، (النحل) . قد من الله في هذه الآية على الإنسان بتمكينه لبلوغ غايته من غير شق النفس ،واستدل به على رأفته به ، ورحمته له ، وقال : ﴿الذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وانا إلى ربنا لمنقلبون﴾ (الزخرف) ، وما أجدر الإنسان أن يقول إذا استوى على سيارة أو طيارة : ﴿سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ ، فهو أبعد من أن يكون مقرناً لقطع من صفيح وحديد لا حياة فيها ولا حركة ، يسخرها له تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ولا ينس أنه راجع إلى الله ومحاسب علي ما أوتى من قوة وسعة ، فإن أساء استعمال هذه القدرة والتمكين عوقب على ذلك ، وكذلك لا ينس أنه عبد خاضع لله منقاد لحكمه لا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا يطغ ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .

وقال : ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم

الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله لقوى عزيز ﴾ (الحديد) . فالحديد فيه منافع للناس ومن أكبر منافعه أنه يستخدم لنصر الله ورسله ، ولذلك قدم عليه ذكر إرسال الرسل ، وإنزال الكتب.

فالمسلم ينتفع بكل ما خلق الله وأودع فى الكون من قوة فى سبيل الجهاد فى سبيل الله ، وفى نشر دينه ، وإظهاره على الدين كله وإعلاء كلمته ، وفيما أباح الله له ورغبه فيه من تجارة مشروعة وكسب حلال ، وسفر بر ، ومنافع مباحة .

*** إنما طائركم معكم :**

إن المصنوعات الجمادية لا ذنب عليها ، فإنها خاضعة لإرادة الإنسان وعقليته وأخلاقه ، فهى فى ذات نفسها ليست خيراً ولا شراً ، ولكن الإنسان هو الذى يجعلها باستعماله لها خيراً أوشراً ، وكثيراً ما تكون خيراً فى نفسها ، فيحولها الإنسان شراً بسوء استعماله وخبث سريرته ، وفساد تربيته ، فليس الشأن فى هذه الآلات والمخترعات ، إنما الشأن فيمن يستغلها وفى الغرض الذى يستعملها له ، وحقيق أن يقال- لمن أصبح يتطير فى أوربا من هذه الآلات ، ومن الطيارات التى تقذف القنابل ، وتدمر المنازل ،وتنسف القرى والمدن ، والغواصات التى تغرق بواخر الركاب المسالمين والتجار الآمنين ، واللاسلكية التى تذيع الكذب والزور ، وتنشر الخلاعة والمجون ويشكو منها ، ويوجه إليها الملام -: إنما طائركم معكم فإن العلوم الطبيعية تسخر للإنسان القوة المادية ، وليس من شأنها أن تعلمه أيضاً كيف يستعملها و فيم يضعها ، كالكبريت يعطيك ناراً ، ولك أن تحرق بها بيتاً على سكانه أو تطبخ طعاماً أو تستدفئ بالنار ، والذى يعلم كيف يستعمل الإنسان القوة وفميا يضعها هو الدين ، فالدين يرشد الإنسان كيف ينتفع بقوته انتفاعاً حقيقياً وكيف يشكر نعمة الله ، ويحظر على الإنسان أن يكون بقوته التى خوله الله إياها معيناً على الظلم والجريمة والإثم والعدوان ، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ **رب بما انعمت علىّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾ (القصص) : وقال سليمان : ﴿ **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾ .

*** التخليط بين الوسائط والغايات :**

أما الأوربيون فقد حرموا أنفسهم الدين ، فلم يبق لهم رادع من خلق أو وازع من دين ، أو مرشد من علم إلهي يرشدهم إلى الجادة ، ونسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم وقالوا : ﴿ **إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين**﴾ فاعتقدوا بطبيعة هذه العقيدة أن ليس للإنسان وراء اللذة والراحة والانتفاع المادى والعلو فى الأرض وبسط السيطرة عليها – كمملكة لا سيد لها ولا وارث – والتغلب على أهلها والاستئثار بخيراتها وخزائنها ، مقصد ولا غاية ، فاستعملوا هذه القوة والعلم فى حصول اللذات والتغلب على الناس وقهر المنافسين ، وتنافسوا فى اختراع الآلات التى ينالون بها وطرهم ويعجزون بها غيرهم ، ولم يزل بهم ذلك حتى اختلطت عليهم الوسائط بالغايات ، فاعتقدوا الوسائط غايات ، وافتتنوا بالمخترعات والمكتشفات كغاية فى نفسها لا لغيرها ، وعكفوا عليها وتشاغلوا بها كتشاغل الصبيان باللعب والدمى ، واعتقدوا أن الراحة هى الحضارة ثم تقدموا وصاروا يعتقدون أن السرعة هى الحضارة .

يقول الأستاذ جود :

« يقول دزرائيلى Disraeli إن المجتمع فى عصره يعتقد أن الحضارة هى الراحة أما نحن فنعتقد أن الحضارة عبارة عن السرعة ، فالسرعة هى إله الشباب العصرى ، وإنه يضحى على نُصبه بالهدوء والراحة والسلام والعطف على الآخرين من غير رحمة [(١)] ».

*** عدم تعادل القوة والأخلاق فى أوربا :**

إن الأوربيين قد فقدوا تعادل القوة والأخلاق والتوازن بين العلم – بظاهر من الحياة الدنيا – والدين منذ قرون ، فلم تزل القوة والعلم فى أوربا بعد النهضة الجديدة

---

(١) Guide to Modern Wickedness p. 241.

ينمـــوان على حســـاب الدين والأخـلاق ، ولـم يزل الأولان فى ارتفـاع وارتـقـاء ، والآخران فى انخفاض وانحطاط ، حـتى بعدت النسبة بينهما ونشأ جيل كأنه ميزان لصقت إحدى كـفتيه بالأرض وهى كفـة القوة والعلم ، وخفت الثانيـة — وهى كفة الأخلاق والدين — حـتى ارتفعت جداً ، وبينمـا يتراءى هذا الجيل للناظر فى خـوارقه الصناعية وعجـائبه الكونية وتسخيره للمـادة والقوى الطبيعية لمصالحـه وأغراضه كأنه فوق البشر إذا هو لا يتميز فى أخلاقه وأعماله ، فى شرهه وطمعه ، فى طيشه ونزقه ، وفى قسوته وظلمه عن البهائم والسباع ، وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة ، إذا هو لا يدرى كيف يعيش ! وبينما هو قد بـلغ الغايات ووراء الغايات فى الكمـاليات وفضول الحياة ، إذا هو لـم يعرف المبادئ الأولية والبـديهيات للحياة الإنسانية والمدنية والأخلاق ، فـتراه يصعـد إلى السماء ويريد أن ينـاطح الجوزاء ، وهو لم يتقن شـئون الأرض ولم يصلح مـا تحت قدميه ، وقـد خولتـه العلوم الطبيـعيـة قوة قـاهرة وهو لا يحسن استعمالها ، كطفل صغيـر أو سفيه أو مجنون يملك أزمة الأمور ويؤتى مفاتيح الخزائن ، فهو لا يزيد على أن يعبث بالجواهر الغالية والنفائس المخزونة ويعيث فى دماء الناس ونفوسهم.

*** قوة الآلهة ، وعقل الأطفال :**

يقول الأستاذ « جود » الإنجليزى : « إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش [١] ».

ويقول فى موضع آخر :

« إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشـة ، وطفولتنا الاجتماعية المخجلة ، نواجهـه على كل منعطف ومنعرج ، نستطيع أن نـتحدث من وراء القارات والبـحار ونرسل الصور بالبرق وننصب اللاسلكية في منازلنا ، ونسـتمع فى سيلان إلى دقات (Big Ben) — السـاعـة العظمى — تضـرب فى لنـدن ، ونركب فـوق الأرض

---

(١) Guide to Modern WickednessP. 261

والبحر وتحتهما ، والأطفال يتحدثون على الأسلاك البرقية ، والآلات الكاتبة صامتة ، وتملأ الأسنان من غير إيجاع ، والزروع تنمي بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (x-rays) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تتكلم وتغني ، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والغواصات تذهب إلى القطب الشمالي والطيارات تطير إلى القطب الجنوبي ، ومع ذلك كله لا نقدر في وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء في راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين (٢٠٠٠) ونجرح منهم تسعين ألفاً (٩٠٠٠٠) سنوياً . قال لي فيلسوف هندي في انتقاده اللاذع لإطرائي لعجائب حضارتنا : وكان بعض سواق السيارات قد نجح في قطع ثلاثمائة أو أربعمائة ميل في ساعة على رمال (Pendine) وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك في فترة قليلة من الزمن قال الفيلسوف : نعم ! إنكم تقدرون أن تطيروا في الهواء كالطير وتسبحوا في الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض (١) ».

*** ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم :**

وقد أصبحت هذه المخترعات والمكتشفات الجديدة – مما كانت تعود على النوع الإنساني بخير كبير لو كان مستعملها يعرف الخير ويقدر أن يتجه إليه – أصبحت وضررها أكبر من نفعها ، وكان كما قال القرآن عن السحر : ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾(٢) اسمع شاهداً من أهلها ينتقد هذه المخترعات ويبوح بالحقيقة وهو « جود » السابق الذكر :

« وقد استطعنا أن نسافر بسرعة زائدة من مكان إلى مكان ، ولكن الأمكنة التي نسافر إليها قلما تصلح للسفر ، وقد زويت الأرض للرحالين وتدانت الأمم ووطئ بعضها عتبة بعض ، ولكن نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بينها وأصبحت أسوأ مما كانت ، أما المرافق التي استطعنا بها أن نتعارف بجيراننا فقد عادت فحشرت

---

(١) Guide to Modern Wickedness P. 293

(٢) من آية ١٠٢ : البقرة .

العالم فى الحرب ، اخترعنا آلة الإذاعة وتحدثنا بها إلى الشعوب المجاورة والأمم الشقيقة ولكن كـان عـاقبتهـا أن كل شـعب يستنفـد مـوارد الهـواء لإيذاء الشعب المجـاور ومعاكسته ، إذ يجتهد أن يقنعه بفضل نظامه السياسى على نظامه [١] ».

« انظر إلى الطيـارة التى تحلق في السـمـاء يخيل إليـك أن صانعيـهـا كـانوا فى عملهم ولباقتهم وصناعتهم فـوق البشر ، والذين طاروا عليها أولاً لا شك أنهم كانوا فى علو همتهم وعـزمهم وجرأتهم أبطالاً مغاوير ، ولـكن انظر الآن إلى المقاصد التى استعملت لها الطيارة وتستعـمل لها فى المستقبل إنما هى قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء وإحراق الأجساد وإلقاء الغازات السامة ، وتقطيع المستضعفين الذين لا عـاصم لهـم من هذا الشـر إرباً إرباً ، وهذه إمـا مـقـاصـد الحـمـقى أو الشياطين[٢]» .

« وما عسى أن يقول المؤرخ غـداً كيف كنا نستعمل معـدن الذهب ؟ سيذكر أنا توصلنا إلى أن نخبر عن الذهب باللاسلكى ، وسيستعرض الصور التى تمثل اللياقة والمهـارة التى كان أصـحاب المـصارف يزنون بهـا الذهب ويعدونه ، وكيف تحدينا قانون الجاذبية فى نقله من عـاصمة إلى عاصمة ، وسيسجل أن أشباه الوحوش الذين كانوا ماهرين وجـرآء فى فتوحهم الصناعية كانوا عاجزين عـن التعاون الدولى الذى كـان يقتـضيـه ضبط الذهب والتقـسيم الصحيح ، وكـانوا لا يعنون إلا بأن يدفنوا المعادن بالسرعة الممكنة ، وكانوا يستخرجون الذهب والمعادن من بطون الأرض فى جنوب إفريقية ، ويدفنونها فى مصارف لندن ونيويورك وباريس [٣] ».

ويتناول هذا البحث – التفاوت بين العلم والصنـاعة وبين الأخلاق الإنسانية ، وإخفـاق الحضـارة الحديثـة فى أداء رسالتـهـا – مـفكرآخر يجـمع بين العلم بالفلسـفة والعلوم الطبيـعية فى تحليل أدق وأسلوب أعمق وهو الـدكتور (Alexis Carrel) فى كتابه – الانسان ، ذلك المجهول – (Man the Unknown) :

---

(١) Guide to Modern Wickedness P. 247
(٢) Guide to Modern Wickedness P. 262
(٣) Guide to Modern Wickedness P. 262

« يظهـر أن الحـضـارة العـصـريـة لا تسـتطيع أن تنتج رجـالاً يملـكون الابتكار والذكـاء والجـرأة . وفي كل قطر تقـريبـاً يرى الإنسان فـي الطبقـة التي تبـاشـر إدارة الأمور وتملك زمام البلاد انحطاطاً في الاستعداد الفكري والخلقي .

إننا نلاحظ أن الحـضارة العـصـرية لم تحقق الآمـال الكبـيرة التي عـقـدتها بهـا الإنسانية، وأنها أخـفقت في تنشئة الرجال الذين يملكون الذكـاء والإقدام الذي يسير بالحضارة على الشارع الخـطر الذي تتعثر عليه ، إن الأفراد والإنسانيـة لم تتقدم بتلك السرعـة التي تقدمت بها المؤسـسات التي نبعت من عقـولها ، إنها هي نقـائص القادة السياسيين الفكرية والخلقية وجهلهم الذي يعرض أمم العصر للخطر [١]».

« إن الوسط الذي أنشأه الـعلوم الطبيعـية وعلم الصناعات لـلإنسان لا يناسب الإنسان لأنه مـرتجل لم يقم على تصميم وتفكيـر سابق ، ولم يراع فيه الانسـجام مع شخصيـة الإنسان ، إن هذا الوسط الذي هو وليد ذكائنا واختراعـاتنا لا يطابق قاماتنا ولا أشكالنا ، نحن غـيـر مسـرورين ، نحن في انحطاط الأخـلاق وفي العقـول . ان الأمم التي ازدهرت فـيهـا الحضـارة الصناعيـة وبلغت أوجهـا هي أضعف مما كـانت ، وهي تسـير سيـراً حثيثـاً إلى الهمجـية ولكنهـا لا تدرك ذلك . إنه لا حارس لـهـا من المحيط الثـائر الذي أقامته الـعلوم الطبيعيـة حول هذه الأمم . الحق يقال إن حـضارتنا – كالحضـارات التي تقدمتهـا – قد فرضت شروطاً للبـقاء ستجـعل – لأسباب لا تزال مجهولة – الحياة محالاً ، إن علمنا بالحياة وكيف يجب أن يعيش الإنسان متأخر جداً عن علمنا بالماديات ، وهذا التأخر هو الذي جنى علينا [٢] ».

« لا يجنى نفع من الزيادة في عدد المخترعات الآلية ، لا فائدة في أن نعلق أهمية كبرى على اكتـشافات علوم الطبيعة والفلكيات وعلم الكيمـياء ، أي خير في الزيادة في الراحـة والشـرف ، والجمـال والمنظر وكـمـاليـات حضـارتنا إذا منع ضـعـفنا من الانتفاع بذلك وتوجيهه إلى صالحنا ، إنه لا خيـر في إحكام طريق للحياة يقـصى فيه

---

(١) (Man the Unknown)

(٢) المصدر السابق .

العنصر الخلقى وتبعد منه أشرف عناصر الأمم العظيمة ، إن الأليق بنا أن نعنى بأنفسنا أكثر من أن نعنى بصناعة بواخر أسرع وسيارات أريح ، وراديوات أرخص ، وتلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعد سحيق [١] ».

« ما هو التقدم الحقيقى الذي نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوربا أو إلى الصين فى ساعات قلائل ؟ هل من الضرورى أن نزيد الإنتاج بلا توقف حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر فأكثر من أشياء لا جدوى منها ؟ أليس هناك أى ظل من الشك فى أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الأخلاقى والصحة والتوازن العصبى والأمن والسلام [٢] ».

*** أوربا فى الانتحار :**

والحاصل أن الغربيين لما فقدوا الرغبة فى الخير والصلاح ، وضيعوا الأصول والمبادئ الصحيحة ، وزاغت قلوبهم وانحرفت ، وفسدت أذواقهم لم تزدهم العلوم والمخترعات إلا ضرراً ، كما أن الأغذية الصالحة تستحيل فى جسم الممعود والموبوء مرضاً وفساداً ، بل لم تزدهم هذه الآلات والمخترعات إلا قوة وسرعة فى الإهلاك واستعانة على الانتحار ، وقد أحسن المستر إيدن Eden رئيس وزراء بريطانيا السابق وصف ذلك فى بعض خطبه سنة ١٩٣٨م.

« إن أهل الأرض كادوا يرجعون فى أخريات هذا القرن إلى عهد الهمجية والوحشية ، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات ، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها ، ولكنها لا تنفق على ضبطها ، وإنى أتعجب فى بعض الأحيان وأقول : كيف لو زار العالم الجديد زائر من كوكب آخر وهبط إلينا فما عسى أن يشاهده ؟ سيجدنا نعد العدة لإهلاك بعضنا ، ونتبادل الأنباء عنها ويخبر بعضنا بعضاً كيف نستعمل هذه الآلات الجهنمية » .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

*** القنبلة الذرية وفظائعها :**

لعل المستر إيدن لما أفضى بهذا الحديث لم يدر بخلده أن العالم المتمدن وعلى رأسه أميركا رسول السلام وزعيم الحضارة والعالم الجديد سيتوصل أثناء الحرب إلى استعمال آلة تبز جميع الآلات والمخترعات فى التدمير والتقتيل ، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله فى الهول والفظاعة . قد كانت هذه الآلة هى القنبلة الذرية التى جربتها أمريكا مرة فى صحراء نيوميكسيكو ، وثانية على رؤوس البشر فى مدينة هيروشيما وبعدها فى نجازاكى المدينتين اليابانيتين . وقد أذاع رئيس بلدة (هيروشيما) في ٢٠ أغسطس آب ١٩٤٩م أن الذين هلكوا فى اليوم السادس من أغسطس آب ١٩٤٥م من اليابانيين يتراوح عددهم بين مائتى ألف وعشرة آلاف، ومائتى ألف وأربعين الفاً (ب – ت) .

يقول المستر استورت (Stuart Gilder) فى مقالة نشرتها صحيفة الهند الإنجليزية السيارة (Statesman) فى عددها الصادر فى ١٦ سبتمبر ١٩٤٥ .

يقول البروفسور (Plesh):

« لا يؤمن على الناس الذين كانوا يبعدون عن المنطقة التى انفجرت فيها القنبلة الذرية بمائة ميل أن يكونوا قد تأثروا بها ، فينبغى أن يفحص عنهم فحصاً طبياً ، ولا يستغرب أن يصبح الناس يوماً ويقرأوا فى الجرائد أن علامات الإصابة بطاعون القنبلة الذرية قد ظهرت فى الذين يسكنون على آلاف أميال من اليابان .

ويقول البروفسور (م.ى. أولى فنيت) معلم جامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية فى إعداد القنبلة الذرية :

« من الأمور الخرافية أن يعتقد إنسان أن بريطانيا أو دولة أخرى تستطيع أن تحافظ على سر القنبلة الذرية إن المبادىء التى قامت عليها صناعة القنبلة الذرية مكشوفة لكل دولة ، إن بريطانيا وأميركا استفادتا بتجارب السابقين وبلغتا إلى نهاية صناعة القنبلة الذرية ، ولكنها لا تدوم سراً حربياً إلا لأجل معدود ، لأن كل البلاد الصناعية تستطيع أن تعد القنبلة الذرية فى مدة خمس سنوات وإذا أفرغت جهودها ووجهت قواها إلى صناعتها فيمكن أن تبلغ إلى نهايتها فى سنتين » .

ويقول البروفسور المذكور :

« وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن فى قوة الانفجار ، وستليها قنابل قوتها مليون طن ، ولا ينفع فى التوقى منها دفاع أو احتياط ، وإن ست قنابل فقط من هذا القبيل تكفى فى تدمير إنجلترا على بكرة أبيها ، وإن العلماء الروسيين ينجحون فى إعداد القنابل فى مدة قصيرة جداً » .

وقد اخترعت أمريكا قنبلة أخرى تفوق القنبلة الذرية في القوة والفظاعة ، وهى (Hydrogen Bomb) وقد جرى اختبارها للمرة الثانية فى المحيط الهادئ يوم ٢٦ من مارس سنة ١٩٥٤ .

وقد ذكر المستر شارلس – ى – ولسن (Charles E. Wilson) سكرتير وزارة الدفاع أن النتائج كانت هائلة لا تكاد تصدق .

وقد ذكر المستر لويس استراس (Lewis Strauss) رئيس لجنة القوة الذرية فى أمريكا أن قنبلة هيدروجينية واحدة تستطيع أن تبيد مساحة مدينة نيويورك الواسعة .

وقال العالم الطبعى الشهير ونائب رئيس مجلس الأمن اللواء صاحب سنج فى دهلى الجديدة :

إن أربع قنابل هيدروجينية وزن كل واحدة منها مائة طن تستطيع أن تقتل كل نسمة على وجه الأرض ، وقد شاع أخيراً أن روسيا اكتشفت القنبلة النتروجينية (Nitrogen bomb) التى هى أدهى وأمر من القنبلة الهيدروجينية .

*** والذي خبث لا يخرج إلا نكداً :**

وقد تضعضع أساس المدنية الأوربية ، كما ذكرنا بتفصيل ، ولم يزل بناؤه متزعزعاً ، ولم تزده الأيام ولم يزده الارتفاع إلا زيغاً واختلالاً ، وفسدت بذرتها ، فلم تصلح شجرتها ولم تطب ثمرتها ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً** ﴾ (آية ٥٨ : الأعراف) .

وقد شرح ذلك فى إيجاز الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى فى أحد فصول كتابه « تنقيحات » بالأوردية قال :

« ظهرت الحضارة الغربية فى أمة لم يكن عندها معين صاف ولا نبع عذب للحكمة الإلهية ، لقد كان فيها قادة الدين ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم

ولا شريعة إلهية ، ولم يكن عندهم إلا شبح دينى لو حاول أن يسير بالنوع الإنسانى على صراط مستقيم فى طرق الفكر والعمل لما استطاع ، ولم يكن له إلا أن يكون حجر عثرة وسداً فى سبيل ارتقاء العلم والحكمة ، وهكذا كان ، وكان عاقبة ذلك أن الذين كانوا يريدون الرقى نبذوا الدين بالعراء ، واختاروا طريقاً لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة والاختبار والقياس والاستقراء ، ووثقوا بهذه الدلائل التى هى فى حاجة بنفسها إلى الهداية والنور ، وجاهدوا واجتهدوا باحتذائها في طرق الفكر والنظر والتحقيق والاكتشاف والبناء والتنظيم ، ولكن ضلت خطوتهم الأولى فى كل جهة وفى كل مجال ، وانصرفت فتوحهم في ميادين العلم والتحقيق ، ومحاولاتهم فى سبيل الفكر والنظر إلى غاية لم تكن صحيحة ، إنهم بدأوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية ، نظروا فى الكون على أنه ليس له إله ، نظروا فى الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس ، وليس وراء هذا الستار الظاهر شىء ، إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختبار والقياس ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها ، إنهم وجدوا الموجودات مسخرة واستخدموها لأغراضهم ، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومدبريها ، بل هم خلفاء سيدها الحق ، فلم يروا أنفسهم مسئولين عنها ، ولم يروا على أنفسهم عهدة وتبعة ، فاختل أساس مدنيتهم وتهذيبهم وانصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النفس ، واتخذوا إلههم هواهم ، وفتنتهم عبادة هذا الإله ، وسارت بهم هذه العبادة فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق زائغة خلابة رائعة ، ولكن مصيرها إلى الهلاك .

هذا هو الذى مسخ العلوم الطبيعية فصارت آلة لهلاك الإنسان ، وصاغ الأخلاق فى قالب الشهوات والرياء والخلاعة والإباحة وسلط على المعيشة شيطان الأثرة والشح والفتك ببنى النوع ، ودس فى عروق الاجتماع وشرايينه سموم عبادة النفس والأنانية والإخلاد إلى الراحة والتنعيم ، ولطخ السياسة بالجنسية والوطنية وفروق اللون والنسل وعبادة إله القوة ، فجعلها لعنة كبرى للإنسانية .

والحاصل أن الذرة الخبيثة التى ألقيت فى تربة أوربا فى نهضتها الثانية لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة ، ثمارها حلوة ولكنها سامة ، أزهارها جميلة ولكنها شائكة ، فروعها مخضرة ولكنها تنفث غازاً ساماً لا يرى ، ولكنه يسمم دم النوع البشرى .

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها ، وأصبحوا يتذمرون منها ، لأنها خلقت في كل ناحية من نواحى حياتهم مشاكل وعقداً لا يسعون لحلها إلا وظهرت مشاكل جديدة ، ولا يفصلون فرعاً من فروعها إلا وتطلع فروع كثيرة ذات شوك ، فهم فى معالجة أدوائهم وإصلاح شئونهم كمعالج الداء بالداء، وناقش الشوكة بالشوكة . إنهم حاربوا الرأسمالية فنجمت الشيوعية ، إنهم حاولوا أن يستأصلوا الديمقراطية فنبعت الدكتاتورية ، أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع فنبتت حركة تذكير النساء (Feminism) وحركة منع الولادة ، أرادوا أن يشترعوا قوانين لاستئصال المفاسد الخلقية فاشرأبت حركة العصيان والجناية ، فلا ينتهى شر إلا إلى شر ، ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر شروراً ومصائب ، حتى صارت الحياة الغربية جسداً مقروحاً ، يشكو من كل جزء أوجاعاً وآلاماً ، وأعيا الداء الأطباء ، واتسع الخرق على الراقع ، الأمم الغربية تتململ ألماً ، قلوبها مضطربة وأرواحها متعطشة الى ماء الحياة ولكنها لا تعلم أين معين الحياة. إن الأكثرية من رجالها لا تزال تتوهم أن منبع المصائب فى فروع هذه الشجرة ، فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ويضيعون أوقاتهم وجهودهم فى قطعها ، إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد فى أصل الشجرة ، ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد ، وفيهم جماعة قليلة من العقلاء أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد ولكنهم لما نشأوا قروناً فى ظل هذه الشجرة – وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم – كلت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلاً آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعاً وأوراقاً صالحة سليمة ، وكلا الفريقين فى النتيجة سواء ، إنهم يتطلبون شيئاً يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه[1] ».

★ ★ ★

(١) تنقيحات ، مقالة أمم العصر المريضة ص ٢٤-٢٥-٢٦ .

الفصل الرابع
رزايا الإنسانية المعنوية في عهد الاستعمار الأوربي

ليس من قصدنا الآن أن نبحث عن رزايا الأمم الشرقية الآسيوية فى السياسة والاقتصاد والتجارة والصناعة ، وخسارتها فى ممتلكاتها وانكسارها أمة بعد أمة وقطراً بعد قطر أمام قوة الغرب المادية ودهائه السياسى ، فلذلك حديث يطول ولا يسعه هذا المؤلف الصغير ، وقد طرق هذا الموضوع كثير من المؤلفين والمؤرخين فى الشرق والغرب ، وألفوا فيه مؤلفات بين صغير وكبير ومتوسط وأشبعوا فيه الكلام .

ولكن الذى يهمنا - ونحن نتكلم في هذا الكتاب عن خسارة العالم بانحطاط المسلمين واستيلاء الأوربيين بالتبع - رزيئة العالم الإنسانى وخطب المجتمع البشرى فى الروح والأخلاق والنفس ، ومعان أسمى من المادة وما يتصل بالجسم والأرض في عهد النفوذ الأوربى العام ، وسيل حضارته الجارف ، فتلك رزية لا تقبل العزاء ، وكسر لا ينجبر ، والذين أدركوه قليل ، والذين تحدثوا به أقل من أولئك القليل .

ولما كان نظام الحياة الإسلامى هو المنافس للنظام الجاهلى ، كان طبعاً رزء المسلمين فى عهد انتصار الحكم الجاهلى أكبر ، وقسطهم فى هذه المصيبة العالمية أوفر لأن الإسلام والجاهلية ككفتى ميزان ، كلما رجحت كفة طاشت الأخرى .

والآن نتحدث عن هذه الرزايا المعنوية رزيئة رزيئة .

*** بطلان الحاسة الدينية :**

ما هى غاية هذا العالم التى ينتهى إليها ، ومصيره الذى يصير إليه ؟ هل بعد هذه الحياة حياة أخرى ؟ وما هو وضعها إذا كانت ؟ وهل لهذه الحياة الآخرة تعليمات وإرشادات فى الحياة الدنيا ؟ ومن أى منبع تستقى هذه المعلومات ؟ وما هى الطرق والأسس التى إذا سار عليها الإنسان كانت حياته الآخرة راضية مرضية ؟ وما مصدر هذه الطرق ؟ وما هى الطريق المثلى للوصول بعد الموت إلى نعيم لا ينفد وقرة عين لا تنقطع ؟ ومن أين تستفاد هذه الطريق ؟.

تلك أسئلة ورثها الشرقى أباً عن جد ، وشغلت خاطره ، وأزعجت فكره طيلة قرون ولم يقدر أن يذهل عنها ويتناساها حتى فى لهوه وزهوه ، وكانت هذه الأسئلة حافز نفسه ، ونداء ضميره ، ولم يستطع أن يتصام عنه ويطوى دونه كشحاً ، بل أصغى إليه فى رغبة ونصيحة وإخلاص ، وأحل هذه الأسئلة من نفسه وحياته المحل الأول ، وما زال منذ آلاف من السنين فى أخذ ورد ونقض وإبرام فى هذا الموضوع ، وليس ما نسميه ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية ، والإشراق والرياضة النفسية ، والعلم والحكمة إلا محاولات ومغامرات في هذا الطريق الطويل المظلم ، وارتياداً إثر ارتياد فى مناطق مجهولة ، ينبئ عن اهتمام الشرق البليغ بهذا الموضوع ورغبته الملحة فيه .

هذه طبيعة الشرقى وطبيعة أكثر أفراد البشر فى الأقاليم المعتدلة قبل ظهور الغربيين ، وإن استعرنا لذلك لغة الفلاسفة وتعبيدهم قلنا : لم يزل فى قلوب الناس – عدا حواسهم الظاهرة الخمس – حاسة سادسة يسوغ أن نسميها بالحاسة الدينية ، وكما أن الحواس الظاهرة لها دوائر عمل تحصل فيها محسوساتها الخاصة بها فللعين مبصرات وللأذن مسموعات إلخ . كذلك هذه الحاسة الدينية لها ثمرات وتأثيرات هى من خواص هذه الحاسة التى لم تزل لأهل الشرق ضربة لازب ، وكما أن من فقد حاسة من الحواس الظاهرة بطلت محسوساتها الخاصة بها ، فلا تحصل له بحاسة أخرى إلا بطريق خرق العادة ، ولا تحل حاسة مهما كانت قوية وصحيحة محل الحاسة الأخرى ، كذلك من فقد الحاسة الدينية لطارئ مؤثر أو حرمها لنقص فى الفطرة بطلت نتائجها الخاصة بها ، وانعدمت فى حقه ، بحيث لا يستطيع أن يتصورها أو يصدقها ، شأن الأعمى لا يبصر الألوان والأجرام المرئية ، وقد يعاند ويكابر فى إنكارها ، وشأن الأصم الذى ليست الدنيا الصاخبة إلا مدينة الأموات عنده ، ليس بها داع ولا مجيب ، كذلك من حرم الحاسة الدينية جحد الغيب ، وكابر فيما هو وراء الطبيعة وعاند فى المعانى الدينية ، وقسا على الرقائق والقوارع التى تهز النفوس وترقق القلوب وتذرف العيون .

ما الجرح بميت إيلام

أشد العقبات التى واجهها الأنبياء والدعاة الدينيون ، واصطدمت بها خطبهم ومواعظهم ودعوتهم ، هم أولئك الذين حرموا الحاسة الدينية أوفقدوها بتاتاً ، والذين تحجرت قلوبهم وماتت نفوسهم في مسألة الدين ، والذين آلوا على أنفسهم أنهم لا يفكرون في أمر الدين وأمور الآخرة ،ولا يلقون السمع لهذا الموضوع أصلاً ، والذين لما سمعوا كلام النبي الذى تجيش له الصدور وتلين له الصخور ، ما زادوا أن قالوا فى صمم وإعراض : ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** ﴾[1] ولما انتهى النبى من كلامه السائغ المعقول الذى يفهمه الأطفال ، والذى كان بلغتهم الفصيحة قالوا : ﴿ **ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً** ﴾[2] ، ﴿ **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾[3].

لا شك أن هذه الأسئلة كانت موضوع دراسة العلماء والمفكرين فى فجر النهضة الأوربية الجديدة ، واستمروا يبحثون فيها ويؤلفون ويتناقشون ، ولكن كلما قطعت المدنية الأوربية شوطاً تخلفت هذه المباحث والأسئلة شوطاً ، ولما ظهرت خواص هذه المدنية الباطنة وتجلت هى فى مظهرها المادي خفت – فى ضجتها – هذا الصوت الذى كان ينبع من أعماق القلب، وقرارة الضمير الإنسانى الحى ، ولا ينكر أن هذه الأسئلة تدرس فى قسم الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة فى المدارس والمجامع العلمية والمكاتب العامة ، ويتباحث فيها العلماء المتخصصون وتظهر لهم فى هذا الموضوع تأليفات بين آونة وأخرى ، ولكن الذى لا شك فيه أنها فقدت سلطانها على القلوب والأفكار، وامحت علامة الاستفهام الواضحة النيرة التى كان يراها كل إنسان عاقل فيقف أمامها كما تقف القطر أمام الإشارات ، وأصبحت هذه الاستفسارات لا تحيك فى صدر الإنسان ولا تشغله كما كانت تشغل آباءه وتحيك فى صدورهم ، ولم يكن ذلك عن إيمان وانشراح صدر وطمأنينة قلب واقتناع بحل صحيح وارتياح إلى نتيجة حاسمة . كلا ! لم يكن ذلك إلا لأن هذه الأسئلة قد فقدت أهميتها وأخلت مكانها لأسئلة مادية أهم فى أعين أبناء القرنين التاسع عشر والعشرين منها ، ولأن رجل العصر قد لزم الحياد التام فى هذه المسائل وصرف النظر عنها ، فلا عليه إن كانت بعد هذه الحياة حياة ثانية وكانت الجنة والنار والثواب

---

(١) آية ٣٧: المؤمنون . (٢) آية ٩١: هود . (٣) آية ٥: فصلت .

والعقاب والنجاة والهلاك أو لم تكن ، فلا يهمه شيء من ذلك لا سلباً ولا إيجاباً ، لأن شيئاً من ذلك لا يمس مسائله اليومية أو فى آخر الشهر ، ولا يتصل بشخصه وعياله فى الساعة الحاضرة ، وهو رجل لا يعتقد فى النسيئة ولا يترك عاجلاً بآجل ، ولا يتكلف ما لا يعنيه فيترك هذه المباحث « الفارغة » يبحث فيها معلم الفلسفة فى الجامعة ويفضى فيها برأيه المؤلف فى هذا الموضوع . أما هو فهو رجل جد وعمل ، لا يعرف إلا حياة المصانع والإدارات و سير الماكينات ولا يهتم إلا بتسلية النفس وترويحها فى آخر النهار والنوم الهادئ فى آخر الليل والأجرة فى آخر الأسبوع أو الراتب فى أواخر الشهور وحساب الأرباح فى آخر السنة وإعادة الصحة والشباب فى آخر العمر وأما ما بعد الحياة فهو عنده مجهول ووهم من الأوهام : ﴿ **بل ادارك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون** ﴾ [(١)].

إن هذا الضرب من الناس لا يزال يزداد عدداً وأهمية فى كل أمة وبلاد بتأثير الحضارة الغربية ، ذلك الضرب من الناس لم يترك اشتغالهم بالحياة الدنيا والعكوف عليها فراغاً لدعوة دينية ، وإن الذى يدعوهم إلى الدين والحياة الأخروية ليتحير معهم كما يتحير السندباد البحرى – كما تروى لنا حكاية ألف ليلة وليلة – مع بيضة العنقاء ، ظنها السندباد البحرى بناء من رخام فدار حولها عدة مرات ليبحث عن باب يدخل منه فلم يجد ، كذلك الداعى الدينى يدور حول رؤوسهم فلا يجد منفذاً يدخل منه الى عقولهم ، ويدخل به دعوته الدينية إلى نفوسهم ، فقد أقفلت الحياة المادية ومسائلها جميع أبوابها وسدت جميع نوافذ فكرهم .

وكما أن رجلاً لم يحظ من الفطرة بالذوق الأدبى ، يسمع الألحان الجميلة والأبيات الرقيقة فلا يعدها إلا أصواتاً لا فن فيها ، كذلك الذى حرم الحاسة الدينية لا تؤثر فيه دعوة الأنبياء وخطب الوعاظ ، وحكمة العلماء وأمثال الصحف السماوية ، وتضيع فيه بلاغة البلغاء وإخلاص المخلصين ، ويصبح كل ذلك صيحة فى واد ونفخة فى رماد :

لقد أسمعت لو ناديت حياً
ولكن لا حياة لمن تنادى

والذى منى بهذا الضرب من الناس يفهم السر فى قوله تعالى : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة** ﴾[(٢)] ، ﴿ **أم تحسب أن**

---

(١) آية٦٦: النمل . (٢) آية ٧: البقرة .

أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾[1] وتظهر له حقيقة قوله : ﴿مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[2] ولم يلق فى شرحها وتعليلها ما لقيه المفسرون الذين لم يشاهدوا هذا النوع من صعوبة .

داء هذا العصر الذى لا ينجح فيه الدواء ولا يؤثر فيه العلاج هو الاستغناء التام عن الدين ، ولم يلق رجال الدعوة الدينية من العنت والشدة فى أحط أدوار الفسق والفجور وفى أحلك عهود المعصية والغفلة ، ما يلاقونه فى دعوة هؤلاء الذين لزموا الإعراض التام فى هذه المسائل (الكلامية) فلا تعنيهم سلباً ولا إيجاباً ﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ [3].

وقد فطن لهذا الفرق الجوهرى بين النفسية القديمة والجديدة أحد كبار معلمى الفلسفة وعلم النفس فى إحدى جامعات أوربا الكبرى وشرحه فى عبارة وجيزة . قال س م جود :

« ثارت فى قديم الزمان شكوك واعتراضات وأسئلة واستفسارات حول الدين، لم يطمئن بعض أصحابها ولم يرتاحوا إلى جواب مقنع ، ولكن مما يمتاز به هذا الجيل أنه لا تزعجه الأسئلة رأساً ، ولا تحيك فى صدره ولا تنشأ فى هذا العصر أصلا » .

*** زوال العاطفة الدينية :**

لما طغى بحر المادية فى العالم الإسلامى فى العهد الأخير وفاض ، كون رجال الدين جزراً صغيرة فى بحر المادية المحيط ، يلجأ إليها الفارون إلى الله والمتبرمون من الحياة المادية والغفلة ، كان فيها رجال هم كمنارات النور فى بحر الظلمات يربون الناس التربية الدينية والخلقية ، ويزكون أنفسهم ويصقلون قلوبهم .

وكنت ترى فى العالم الإسلامى حركة مستمرة إلى هذه الجزر ، فترى قوافل لرواد الروحانية ومنتجعى التربية الدينية غادية رائحة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن أقصى شمال العالم الإسلامى إلى اقصى جنوبه ، متخطية الثغور السياسية، مجتازة العقبات الجغرافية ، فترى هذه الجزر مستعمرات دينية ، قد أمحت فيها الفروق الجنسية والوطنية ، وترى متحفاً إنسانياً قد اجتمع فيه الشرقى مع الغربى والبخارى مع المغربى والأناضولى مع الأندنوسى ، قد فروا بدينهم من الفتن ورموا

(١) آية ٤٤ : الفرقان . (٢) آية ١٧١ : البقرة . (٣) آية٥٢ : الروم .

بأنفسهم على عتبة ربهم ، يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ويتلقون التربية الدينية ثم ينبثون فى أنحاء العالم دعاة مصلحين ومعلمين مرشدين ، يلتقطون نصيب الله من بين نصيب الشيطان ، ويحيون أرضاً مواتاً من القلوب ، ويبذرون فيها بذور الدين .

وكذلك لم تزل في جنب أقوى الدول وأوسعها دول روحية يفوق سلطانها الروحى سلطان الدولة المادى ، فيها رجال تأتيهم الدنيا راغمة ويأتيهم الملوك والأمراء صاغرين ، ولهم نظام كنظام الدول ينصبون ويقرون وينقلون ويستخلفون ، ولهم «قناصل وسفراء» فى كل دولة مادية وكأن خارطة العالم الإسلامى بين أيديهم ، فإذا خلا ثغر من ثغور الإسلام نصبوا فيه مرابطاً دينياً يحفظه من عادية الغفلة والمعصية ، ويحرسه من غاشية الجهل والطغيان (1) .

وكانت هذه الدول الروحية مستقلة فى إدارتها ونظامها الداخلى ، لا يتداخل فيها الملوك والأمراء ولا تؤثر فيها التقلبات السياسية والحوادث المحلية ، ولنضرب لذلك مثلاً بالمستعمرةالروحية المعروفة بغياث فور ، التى أنشأها الشيخ نظام الدين البداونى الهندى « م ٧٢٥ هـ » فى نفس عاصمة الهند وقد عاصر الشيخ ثمانية من الملوك الجبابرة « من غياث الدين بلبن ٦٦٤ - ٦٨٦إلى غياث الدين تغلق ٧٢٠ - ٧٢٥ » وحافظت على استقلالها التام من غير أن تمسها يد الملوك ، وكنت ترى فيها رجالاً من سنجر فى إيران إلى رجال من أوده فى شرق الهند .

وقد كان لهذه المراكز ولأصحابها الفقراء من المهابة والحشمة والاحترام الفائق ما قد يحسدهم عليه أكبر ملوك العالم ، وقد يكون هذا سبب الوحشة بينهم ، وماذاك إلا لإقبال الناس على رجال الدين واحتفائهم والخضوع للسلطان الروحى ، فكان السيد آدم البنورى الهندى (م ١٠٥٣ هـ) دفين البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل ، ويمشى فى ركابه ألوف الرجال ومئات من العلماء ، ولما دخل السيد

---

(1) حدث الشيخ الصالح السيد على الهجويرى دفين لاهور أن شيخه أمره بالرحلة إلى لاهور والإقامة فيها ، فاعتذر بأن هناك زميله الشيخ حسين الزنجانى فلا لزوم لذهابه ، فقال : لابد أن تذهب وتقيم بها : قال : فشددت رحلى وامتثلت أمر الشيخ ووصلت إلى لاهور فى الليل وقد غلقت أبوابها فبت ليلتى خارج السور ، ولما أصبحت وفتح باب السور إذا بالناس يحملون جنازة الشيخ حسين ، فعرفت سر أمر الشيخ ودخلت البلد ، وخلفته فى عمله دعاء الخلق إلى الله (كشف المحجوب للهجويرى) .

فى لاهور عام ١٠٥٣ كان فى معيته عشـرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم ، حتى توجس شاهجان ملك الهند منه خيـفة ، فأرسل إليه بمبلغ من المال ، ثم قال له : قد فـرض الله عليك الحج فعليك بالحـجاز ، فعـرف إيعاز الملك ، وسافـر إلى الحرمين حيث مات (١) .

وهذا الشيخ محمـد معصوم (م ١٠٧٩) ابن الشيخ الكبيـر أحمد السرهندى قد بايعه وتاب على يده تسعمائة ألف من الرجال ، واستخلف فى دعاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال (٢) .

وهذا ابنه الشـيخ سيف الدين السـرهندى (م ١٠٩٦) كان يأكل على مـائدته ألف وأربعمائة ، ويقترحون الأطعمة ويتخيرونها (٣) .

وهذا الشيخ محمد زبير السـرهندى (م ١١٥١) كان إذا خرج من بيته ألقى له الأغنياء الشيـلان والمناديل حتى لا يطأ الأرض ، وإذا خرج لعيـادة مريض أو لبعض شأنه خرج فى ركابه الأغنياء والأمراء فكان موكباً مثل مواكب الملوك (٤) .

وهذه أمـثلة قليلة لا يقصـد منهـا إلا الاستـدلال على ما كـان للدين من مكانة وشرف فى عيون الناس ، وعلى ما كان من احتفاء برجاله ومن يمثلونه ، وخضوعهم لسلطان الدين فوق سلطان القوة ، وتهافتهم على موارد الدين ومشارعه ، وهذه أمثلة التقطناها على عجل من تاريخ الهند الإسلامى ولمحات عابرة فيه ، ولو ذهبنا نستقصى أمثلته وشواهده من تاريخ الإسـلام العام ومن تراجم الرجل الدينيين وسيرهم فى بلاد الشـام ومصـر والمغرب الأقـصى والعراق لكان مـجلداً كـبيـراً - ونكتفى هنا بذكـر الشيخ خالد الكردى (م ١٢٤٢ هـ) الذى ازدحم الناس عليه فى بغداد يتوبون على يديه ويستـفيـدون منه ، وقد أخبـر شيـخه فى رسـالة كتبـهـا إليه أن مائة من العلماء الفحول قد تخرجوا عليه ، وأن خمسمائة من كبار العلماء قد دخلوا فى بيعته ، وأما

(١) التذكرة الآدمية (الفارسية)

(٢) نزهة الخواطر ، المجلد الخامس ، للشيخ عبدالحى الحسنى .

(٣) ذيل الرشحات (الفارسية) .

(٤) در المعرف (الفارسية) ، ونزهة الخواطر (العربية).

العوام والخواص فلا يأتى عليهم حصر (١) .

واستمر هذا الإقبال على الدين والهجرة فى طلب العلم النافع والعمل الصالح وتجشم الأسفـار والأخطار لتزكيـة النفس وتهذيب الخلق والتوصل إلى معـالم الرشد والاستعداد للآخرة إلى أول عهد الاستعمار الأوربى ، فترى فى كـل قطر إسلامى مراكـز دينيـة وملاجئ روحـية يأوى إليـها أهل الطلب من سـائر الآفاق ، وتخطبـهم الدنيا والمناصب العالية فى الحكومات فيأبون إلا فراراً ، ويلجأون إلى هذا المحيط الهاد إلى الروحى ، ويكبون على إصلاح باطنهم وسل حظ الشيطان منه .

وتتعدى فـى الحضـارة إلى أواسط القـرن الثـالث عشـر الهـجـرى وقد احتل الإنجليز الهند ،ولما تؤثر حضارتهم وفلسفة حياتهم فى مجتمع البلاد ، فنرى بقايا من الحيـاة الدينية الأولى ، ويحـدثنا مؤرخ (٢) عن زاوية الشـيـخ غـلام علـى الدهلوى ، (م١٢٤٠هـ) فيقول :

« رأيت بعينى فى هذه الزاوية رجـالاً من الروم والشام وبغداد ومصر والحبشة قد بايعـوا الشيـخ ، وعدوا المثـول بين يديه حسنة الدهر وسعـادة العمر . أمـا الوافدون من البلاد القريبة كـالهند وأفغانستان فكانوا كالجـراد ، ولا يقل عدد المقيمين فى هذه الزاوية عن خمسمائة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم (٣) ».

ويجيل الشيـخ رؤوف أحمد المجددى نظره فى رجال هذه الزاويـة اليوم الثامن والعـشرين من جـمادى الأولى عـام ١٢٣١ هـ فيجـد رجالاً من سـمرقند وبـخارى وتاشـقند وحـصـار وقندهار وكـابل وبشـاور وكـشمـيـر والملتـان ولاهور وسـرهند وأمروهه وسبنهل ورامبور وبريلى ولكهنؤ وجائس وبهرائج وكور كهبور وعظيم آباد ودهاكه ، وحيدر آباد ، وبونه وغيرها (٤) .

---

(١) در المعرف .

(٢) هو السير السيـد احمد خان صاحب الدعوة إلى التعليم الإنجليزى فى الهند ومؤسس الجامعة الشهيرة فى عليكرة .

(٣) آثار الصناديد (الأوردية)

(٤) در المعارف (الفارسية) .

وليعرف القارئ أن هذا كله في زمان لم تحدث فيه طرق النقل الحديثة فكان كله مشياً على الأقدام وسفراً في القوافل .

وتتجلى المناظر الأخيرة لهذا العهد الراحل في تاريخ مصلح الهند الكبير والمجاهد الشهير السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) فإذا قرأت تاريخه وجولاته في الهند لأجل بث دعوته إلى التوحيد واتباع السنة والجهاد رأيت ألوفاً يتوبون من الذنوب والآثام والشرك والمحدثات ، حتى تقفر الحانات وتغص المساجد ، ويتسابقون في دعوته هو ورفقته الذين يعدون بالمئات إلى بيوتهم وصنع الولائم لهم ، ويستهينون في سبيل ذلك بالأموال ، ويسترخصون كل عزيز وغال حتى يتقارعوا بينهم أيهم يبدأ وأيهم يتقدم .

وترى في المسلمين شهامة في سبيل الدين وعلو همة وسماحة نفس وأريحية لا تعهدها بعد ذلك ، فلما خرج السيد للحج عام ١٢٣٦ هـ ورفقته أكثر من سبعمائة رجل ضيف المسلمون هذا الركب في كل محل يمر به ، من راى بريلي مسقط رأسه إلى كلكته حيث ركبوا السفن ، ولما نزل بالله آباد ضيفه الشيخ غلام علي ، وأقام هذا الركب ضيفاً عليه خمسة عشر يوماً ، واجتمع الناس من القرى والضواحي وكلهم يأكلون على مائدة الشيخ الطعام الفاخر ، هذا عدا الهدايا التي أهداها إلى أهل الركب والكسوة والزاد الذي قدمه ، وفي أثناء الرجوع لما حلت القافلة قريباً من مدينة مرشد آباد في طريقها من كلكته إلى راى بريلي قام ديوان غلام مرتضى بضيافتهم وأعلن في السوق أن كل من يشتري من أهل القافلة أو يستأجر منهم أهل الصناعة فهو يؤدي الثمن من عنده ، وكلمه السيد في هذا فقال : حسبي من الفخر والشكر أني أقوم بخدمة الحجاج .

وترى في الناس رقة في القلوب وانقياداً للحق وخضوعاً للشرع ، فقد تشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين في هذا السفر ، وكان الناس ينهالون من كل صقع ويدخلون في الخير أفواجاً ، حتى إن المرضى في مستشفى مدينة بنارس أرسلوا إلى السيد يقولون : إنا رهائن الفراش وأحلاس الدار فلا نستطيع أن نحضر فلو رأى السيد أن يتفضل مرة حتى نتوب على يديه لفعل ، وذهب السيد وبايعهم .

وأقام في كلكته شهرين ، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً ، وتستمر البيعة إلى نصف الليل ، وكان من شدة

الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً فكان يمد سبعة أو ثمانية من العمائم والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون الله ، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثماني عشرة مرة .

وخطب السيد فى الناس في كلكته خمسة عشر أو عشرين يوماً ، وكان يحضر هذه المواعظ نحو ألفين من وجهاء البلد والعلماء والشيوخ فضلاً عن عامة الناس والدهماء ، وكذلك رفيقه الشيخ عبدالحى البرهانوى كان يذكر كل يوم جمعة ويوم الثلاثاء بعد صلاة الظهر إلى العصر ، والناس يتساقطون عليه كالفراش ، ويسلم كل يوم عشرة أو خمسة عشر رجلاً من الكفار .

وكان من تأثير هذه المواعظ ودخول الناس فى الدين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر فى كلكته وهى كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز ، وكسدت سوقها وأقفرت الحانات واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة متعللين بكساد السوق وتعطل تجارة الخمر .

ولما دعا السيد الإمام إلى الجهاد لبى الناس من كل طبقة دعوته فى نشاط وحماسة ولحقوا به ، وترك الفلاحون سِكَّتهم وأقفل التجار دكاكينهم وغادر الناس أوطانهم وتغربوا فى دين الله ولم يتلفتوا إلى ما وراءهم ولم يلووا على شىء حتى قتلوا فى سبيل الله فى وادى بالاكوت عام ١٢٤٦ هـ فى الثغور ، ورجع فلهم إلى قلل الجبال فاعتصموا بها وقضوا نحبهم فى الجهاد .

هذا كله والحضارة الإسلامية في الهند فى الاحتضار والحكومة الإسلامية فى انهيار ، ولكن لم يزل فى الناس بقية من الأنفة الإسلامية والحمية الدينية والإنابة الى الله والفرار إليه وسرعة الإجابة للداعى إلى الله ، والاستهانة بالحياة الدنيا وبذل النفوس والنفائس فى سبيل الله .

ورسخت قدم الإنجليز وأصبح نظامهم التعليمى – وهو من أكبر جنودهم – يؤتى أكله كل حين ، وتسربت فى الناس أفكارهم وميولهم ، فصارت تقلب نظام الحياة ونظام الفكر فى الهند رأساً على عقب من حيث لا يشعر أهلها فتقاصرت الهمم فى الدين وخمدت جذوة القلوب وانطفأت شعلة الحياة الدينية ، وانصرفت الرغبات والأهواء والتنافس الطبيعى – الذى هو الدافع الأكبر إلى التقدم والإبداع – من الدين والروحانية إلى المعاش والمادة ، وقلت مرغبات الجهد فى الدين والعلم وما

يتـصل بـالروح والقلب ، وتوافـرت المزهـدات والمثبطات عنه ، وكـثـرت الدواعى والحافـزات إلى ضده ، واتجه تيار الذكـاء والنبوغ والعبقـرية – الذى كان متجـهاً من قبل الـى الدين – من صنوف الديـن وأقـسـام العـلم الدينى والروحى ، إلـى الإنتـاج والإبداع فى أنواع علوم المعاش ومرافق الحياة .

وكان لا يزال بالعهد الراحل رمق وبقيـة من حياة تنازع الموت وتحاول البقاء ، فكان لا يزال فى الناس رجال يدعون إلى الدين وإصلاح النفوس وتـزكيتها وتهذيب الأخلاق وتصفيتها ، وهم تذكـار لسلفهم فى زهدهم فى الدنيا والإقبال على الآخرة والإخلاص واتبـاع السنة ، وكانت لا تزال لهم دعوة فى الناس ، والمسلمـون يعدون الاتصال بهؤلاء والتمسك بأهدابهم حقاً من حـقوق الدين وواجباً من واجبات الحياة وكان بعض الأغنيـاء والأمراء وأرباب الدنيا ، لهم اهتـمام زائد بحسن الخـاتمة وأمور الآخرة وصلاح القلب وعمارة الباطن ، ولكن كـان هذا كله أشبه بالتهـاب السراج قبل الانطفـاء ، فقد ذوى أصل الشجـرة الدينية ، وانقطعت عنها مادة الحـياة ، وهب عليها إعصار فيه نار .

سرى الشك وسوء الظن فى الأوساط الدينية والبيوت العريقة فى الدين والعلم بتأثير المحيط وبتأثير التعاليم الإفرنجية وضـعفت الثقة بالله وبصفاته وبمواعيده ، فأصبح الآباء يضنون بأولادهم على الدين ، ولا يخـاطرون بأوقاتهـم وقواهم فى سـبيل الدين وعلوم الدين ، وأصبـحوا يعلمـونهـم العلوم المعاشيـة واللغات الإفـرنجية ، لا رغبـة فى تحـصـيل المفـيد النافع ولا دفـاعـاً عن الإسـلام بل زاهداً فى الـدين وفـراراً من خطر المستقبل وخـوفاً على أفلاذ أكبادهـم من الضيـاع واستسلاماً للدهر المتقلب ، وتسلط عليهم خوف الفقر حتى أصبحوا من خوف الموت فى الموت .

وهكذا انقـرض هذا الجيل وطوى هـذا البـسـاط ، ولفظ هذا العـهـد الروحى نفسه الأخير ، وتلاه عهد المادة ، وأصبحت الدنيا سوقاً ليس فيها إلا البيع والشراء .

*** طغيان المادية والمعدة :**

رووا أن شاعرة جاهلية هى « كبشة بنت معد يكرب » عاتبت أخاها عمرو بن معد يكرب ، وعيرته بميله إلى قبول دية أخيه المقتول فقالت :

ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم

وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم ؟

ما تتصـور المرأة الجاهلية البسيطة أن بطن إنسان يتجاوز مقـدار شبر فكيف لو رأت معـدة الإنسان الحاضـر ابن القرن العشـرين ، تضخـمت وكبرت حتى وسعت الأرض وتجاوزت حتى أصبحت لا يملؤها إلا التراب .

نعم تضخـمت معدة الحرص فى الإنسان حتى صارت لا يشبعها مـقدار من المال ، وتولد فى الناس غـليل لا يَروى وأوار لا يُشفى ، وأصـبح كل واحـد فى قلبـه جهنم لا تزال تبـتلع وتستزيد ، ولا تزال تنادى هل من مـزيد ؟ هل من مزيد ؟ تسلط على الناس – أفـراداً وأمماً – شـيطـان الجشـع والحرص فـكأن بهم مـسـاً من الجنون ، وأصبح الإنسان نهـماً يلتهم الدنيا التـهاماً ، ويستنزف موارده حـلالاً وحراماً ، ثم لا يرى أنه قـضى لبـانته وشـفى نفسـه ، والعهـدة فى ذلك على وضع الحـيـاة الحاضـرة وطبيعتهـا وكونها مادية صرفة لا تؤمن بالآخرة ، وخليق بمن لا يعتـد إلا بحياته الدنيا ولا يرى وراءها عالما آخر وحيـاة ثانية أن تكون هذه الحياة بضاعتـه ورأس ماله وأكبر همه وغـاية رغبته ومبـلغ علمه ، وأن لا يؤخر من حظوظها وطيباتها ولذائذها شيئاً وأن لا يضـيع فـرصة من فـرصـها ، ولأى عـالم يدخـر وهو لا يؤمن بعـالم وراء هذا العالم ، ولا بحياة بعد هذه الحياة ؟

وقد عبـر عن هذه النفسية الجاهليـة الشاعر الجاهلى الشاب طرفـة بن العبد فى صراحة وبساطة فقال :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى

فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

كريم يروِّى نفسه فى حياتــــه

ستعلم إن متنا غداً أينا الصدى

وكل إنسـان متـمـدن اليو م – إلا مـن عصـمـه الله بالإيمان – يرى هذا الرأى ويذهب هذا المذهب فى الحياة ، إلا أنه قـد يجرؤ على أن يصرح به ، وقـد لا يملك ذلك اللسان البليغ الذى يعبر عن ضميره ، والسبب الثانى : هو الأدب العـصرى – بمعناه الواسـع – الذى لا يتـحـدث إلا عن المادة وأصـحـابهـا ، ويخنـع لأهل الثـراء

وأصحاب الاحتكار وأصحاب الإنتاج ، الخنوع الذى لا يليق بالأدب الشريف العالى ، فيكتب دقائق حياتهم فى تفصيل ، وينشر ألقابهم وأسماءهم بقلم عريض وكل نفس من أنفاس مدحه وتقريظه وكل فصل من فصول روايته ينتهى الى نتيجة مادية أو إلى بطل من أبطال المادة ، ويزين للقارئ المذهب الأبيقورى تارة بالتلميح وتارة بالتصريح ، ويحث الشباب على التهام الحياة وانتهاب المسرات نثراً وشعراً وفلسفة ورواية وتحليلاً وتصويراً ، فلا ينتهون منه إلا بالروح المادى والتقديس لرجال المادة .

وكذلك المجتمع الذى لا يقدر إلا الغنى الظريف متناسياً كل ما فيه من رذيلة ولؤم أصل وسوء خلق ، ويتجنى على الإنسان الذى لا يترجح فى ميزانه مهما كثرت مواهبه وطاب عنصره وسما جوهره ، ويلمح وقد يصرح بأن الفقير لا يستحق الحياة، ويعامله معاملة الدواب والحمير والكلاب ، فيرغم الإنسان - إذا لم يكن ثائراً على المجتمع - على أن يخضع لشريعة مجتمعه ، وأن يتجمل ويتظرف لمجتمعه ، فلا يلبس إلا لغيره ولا يتأنق إلا لغيره .

وهذا المجتمع لا تزال مقاييسه للشرف والظرافة تتغير ومعاييره للإنسانية تتبدل وتتحور ومطالبه تتنوع وتتكثر ، حتى يضيق الإنسان بها ذرعاً ويلجأ إلى طرق غير شريفة لتحصيل المال وإلى كدح وكد فى الحياة ، وهناك هموم تتوالى ولا تنتهى ومتاعب تتسلسل ولا تنقطع .

وزاد الطين بلة تنافس المصانع والمنتجين والصناع ، ففى كل صباح يتدفق على المدينة سيل جديد من أحدث المنتجات وأحدث طراز من السيارات والسجائر والأزياء والقبعات والأحذية والأدهان والأطلية وأسباب الزينة والزخارف والأجهزة ولا يجلب منها شىء قياماً بالواجب وسداً للعوز ، بل كله فى سبيل الاستغلال الصناعى والاحتكار التجارى ، ولا تلبث هذه المنتجات التى هى من فضول الحياة أن تدخل فى اصول المعاش ولوازم المدنية ، والذى لا يتحلى بها لا يعد من الأحياء.

ولهذه الأسباب ولغيرها ارتفعت قيمة المال فى عيون الناس ارتفاعاً لم تبلغه فى الزمن السابق ، وبلغ من الأهمية والمكانة مبلغاً لم يبلغه - على ما نعرف - فى دور من أدوار التاريخ المدون ، وأصبح المال هو الروح السارى فى جسم المجتمع البشرى والحافز الأكبر للناس على أعمالهم ونشاطهم المدنى ، وقد يدفع المخترع إلى الاختراع

والصانع إلى صناعته والسياسى إلى مقالته والمرشح إلى انتخابه والعالم إلى تأليفه ، حتى القادة إلى الحرب ، فهو القطب الذى تدور حوله رحى الحياة العصرية كما يقول الأستاذ « جود » معلم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن : « إن النظرية المهيمنة السائدة على هذا العصر هى النظرية الاقتصادية ، وأصبح البطن أو الجيب ميزاناً لكل مسألة فبمقدار اتصالها بالجيب وتأثيرها فيه يقبل الناس عليها ويعنون بها».

إذا حكمت على عصرك وطبائعه وأذواقه وأنت بمعزل عن الحياة ، وبنيت حكمك على مؤلفات ومقالات إنما تكتب في زاوية من زاوايا المكتب فإنك تغالط نفسك ، وقد تقرأ فى هذه الكتب الفلسفية أو المقالات العلمية التحليلية كأنك فى عصر متمدن زاق تتحكم فيه معايير الأخلاق وتسود فيه المثل العليا ويغشاه سحاب الفضيلة والنبل ، وتحلق عليه روح الديانة والعلم ، ولكن الواقع غير ذلك ، فإن هذه الكتب إنما ألفت فى عالم الخيال الذى يعيش فيه مؤلفوها ، وإن أهواءهم وأذواقهم هي التى خلقت لهم عالما خيالياً يصفونه ويصورونه فى كتبهم ، حتى يخيل الى القارئ أنه هو العالم المحيط به .. وللأهواء عجائب وخوارق .

ولكنك إذا اتصلت بالحياة عن كثب لا عن كتبٍ ، وخالطت الناس ودرست أحوالهم وأصغيت إلى حديثهم فى البيت وفي القطار والبستان وعلى المائدة وفى السمر ، رأيت (الذهب) حديث النوادى وشغل الألسنة وهوى القلوب والبداية والنهاية فى كل موضوع ، والقطب الذى تدور حوله رحى الحياة .

إن شاعراً عربياً يلعن الصعلوك الذى لا يتعدى نظره ولا يسمو فكره عن لباس وطعام ويقول :

لحا الله صعلوكـــاً منـــاه وهمه

من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً

فكيف إذا أشرف هذا الشاعر على هذه المدنية وهى تجرى بفلاسفتها وسياسييها ونوابغها وعلمائها وكتابها وأشرافها وأغنيائها وفقرائها وراء غاية لا تتعدى لبوساً ومطعماً مهما تنوعت أشكالها وتضخمت ألقابها ؟! فالحياة كلها جهاد فى سبيل اللباس والطعام .

*** التدهور فى الأخلاق والمجتمع :**

احتل الأجانب الشرق الإسلامى وقد أصاب المجتمع الشرقى الإسلامى انحطاط فى الأخلاق والاجتماع ، وسبقت إليه أدواء خلقية واجتماعية كانت أهم أسباب انهيار الدول الإسلامية وانهزام الأمم الشرقية .

ولكن مع ذلك لم يزل المجتمع الشرقى الإسلامى - على علاته - محتفظاً ببعض المبادئ الخلقية السامية والخصائص الاجتماعية الفاضلة التى لا يوجد لها مثيل فى الأمم ، وقد نضج واكتمل فن الأخلاق عند الشرقيين ووصل من الدقة والتفصيل واللطافة ورقة الحواشى ذروة لا يصل إليها ذهن العصر ، ولا يتصورها الغربى إلا فى الشعر والأدب .

يقرأ الإنسان أو يسمع روايات عن استحكام الروابط والأواصر بين أعضاء المجتمع العام وأفراد الأسرة ، وتغلغلها فى الأحشاء واستمرارها إلى الأحقاب والأجيال وخلوها من كل مصلحة ومتعة مادية ، ما لا يتصوره أبناء هذا العصر . وكذلك من حنو الآباء على الأبناء وبر الأبناء بالآباء ، وتوقير الصغير للكبير وحدب الكبير على الصغير ، وعن عفاف النساء ووفاء الحلائل وأمانة الخدم ووفائهم واستقامة الشبان وثباتهم على الأخلاق ومعاملة الأشراف بعضهم لبعض ، والمحافظة على الرواتب والعادات والاطراد فى مسألة اللباس والشعائر والعشرة ، والإيثار فى شأن الأصدقاء والنصح لهم ، يسمع منها غرائب لا يكاد يصدق بها .

كان بر الأبناء للآباء وطاعتهم إلى حد التفانى فى سبيلهم والاضمحلال فى وجودهم منتزعاً من قول النبى ﷺ : « أنت ومالك لأبيك ».

وكان حب الأبناء لآبائهم وبرهم وحرصهم على أداء حقوقهم غير مقتصر على حياة الأبوين ، بل كان يستمر إلى ما بعد وفاتهما بصلة أصدقائهما ، وأهل أنسهما والإهداء إليهم والتحبب إلى أولادهم وعشيرتهم ، وكان ذلك عملاً بقوله ﷺ : « إن من أبر البر بر الرجل بأهل ود أبيه بعد أن يولى » .

وكان الأبوان مثلاً للنصح والإخلاص فى حبهما للأولاد ، وكانا يضحيان بجميع أهوائهما وميولهما وراحتهما وبلذة الأمومة والأبوة فى سبيل تثقيفهم وتربيتهم وتعليمهم ، ويتحملان فى ذلك - حتى الرجل الأمى والمرأة الجاهلة - إجحاف المعلمين فى ذلك وعسفهم وإضرارهم فى بعض الأحيان بجسم الصغار،

---

(١) رواه أبو داود - البيوع رقم٣٥٣٠، وابن ماجة - التجارات رقم٢٢٩١و٢٢٩٢.

(٢) رواه مسلم - بر رقم ٢٥٥٢، والترمذي - البر رقم١٩٠٤، وأبو داود - الأدب رقم٥١٤٣.

ويجرعان المرائر ويصبران على الغصص فى سبيل الأولاد ونبوغهم ، وقد تواضع على ذلك أهل البيوتات والشرف حتى أهل الطبقات الوضيعة ، ويعدون من خالف ذلك رجلاً نذلاً لئيما ، والذى روى عن هارون الرشيد فى تنبيهه لولديه الأمين والمأمون ووصيته لهما بخدمة الكسائى معروف فى التاريخ ، ومن غرائب ما يروى فى هذا الباب ويمثل الطبيعة الشرقية أن « تاج الدين آلدز » أمير الأفغان بعد السلطان شهاب الدين الغورى أسلم ولده إلى معلم وضرب المعلم الولد حتى مات ، فلما علم بذلك « تاج الدين » أشار على المعلم بأن يهرب وقال : « لا آمن عليك من أم الولد فعسى أن ينالك منها مكروه ».

وكانت الرابطة بين الصغير والكبير فى المجتمع الإسلامى مؤسسة على تعاليم الشرع « من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا فليس منا » .

ومن خصائص الحضارة الشرقية الاطراد فى الحياة والمحافظة على لون واحد والتظاهر بمظهر واحد ، فكان الرجل إذا شرع فى أمر وتظاهر بمظهر واصله إلى غايته ، وإذا اتخذ عادة أو شارة فى اللباس أو عامل أحداً نوع معاملة واظب عليه إلى آخر أنفاسه ، لا تؤثر فى ذلك الحوادث ولا تغيره الفصول ولا انحراف الصحة ولا الكسل ولا المصالح .

ولم يكن العمدة في حياة الأسرة والقبائل ولم يكن الميزان فى التوقير والشرف هو كثرة المال فيختلف المستوى المالى فى أسرة اختلافاً كبيراً ، ويتفاوت الرجال فى قبيلة أو قوم تفاوتاً عظيماً فى المال والجاه ، فهذا ثرى مثر وذلك فقير معدم ، ولم يكن يستطيع أحد أن يفرق بينهم ويرفع بعضهم فوق بعض لأجل التفاوت الاقتصادى فى مجتمعات الأسر والبيوتات والمآتم (بمعناها اللغوى) فإذا شم أحد رائحة الفرق أو نظرة الازدراء ، ثار كالليث ، أو إذا بدرت بادرة من المضيف تنم عن هذا الفصل انسحبت الأسرة كلها من الضيافة وقاطعوا أهل الضيافة ، وكانوا يداً واحدة مع أخيهم المهضوم .

وكان الفقير الصعلوك فى قبيلة يواجه الأغنياء والملوك من تلك القبيلة بجرأة وهو معتز بنفسه معتد بشرفه لا يرى فى نفسه نقيصة لأجل فقر ، وكان الغنى أو الملك يكرمه ويحله المحل اللائق بشرفه ونسبه وفضيلته الذاتية ، بصرف النظر عن رثاثة هيئته وتبذله ، والأزمة الاقتصادية الطارئة على كرم عنصره وصفاء معدنه

وطيب منبته ومتانة دينه ووفور علمه .

وكان الفقير في ذلك يبالغ كثيراً فى إخفاء عسرته وضنك معيشته ويتحمل ويتجلد ، ويسوءه أن يفطن أحد إلى فاقته ورقة حاله .

وكان ضمير الحر عزيزاً محترماً كدينه وعرضه ، لا يساوم عليه ولا يباع بأى ثمن ، وكان الواحد يفضل الموت الأحمر على كذبة أو خيانة يخلص بها نفسه من الموت .

وقد روى لنا التاريخ الهندى طرائف فى هذا الباب لابد أن تكون أمثلتها متوافرة فى تاريخ جميع البلاد الإسلامية : منها أن الشيخ رضى الله البداونى اتهم بالاشتراك فى الثورة على الإنجليز عام ١٨٥٧ وحوكم أمام حاكم إنجليزى كان من تلاميذه ، فأوعز إليه الحاكم على لسان بعض الأصدقاء أن يجحد الاتهام فيطلقه ، ولكن الشيخ أبى وقال : قد اشتركت فى الخروج على الإنجليز فكيف أجحد ؟ واضطر الحاكم فحكم عليه بالإعدام ، ولما قدم للشنق بكى الحاكم وقال له : حتى فى هذه الساعة لو قلت مرة : إن القضية مكذوبة على ، وإنى برىء لاجتهدت فى تخليصك ، فغضب الأستاذ وقال : أتريد أن أحبط عملى بالكذب على نفسى ؟ لقد خسرت إذاً وضل عملى ، بل قد اشتركت فى الثورة فافعلوا ما بدا لكم وشنق الرجل!!

ولم يكن صدقهم واعترافهم بما يعملون ويعتقدون مقتصراً على ما يتصل بأنفسهم ، بل كانوا صادقين فيما يتصل بالأمة والشعب ، فلم يكونوا يعرفون العصبية الجنسية والوطنية والجنف القومى الذى أصبح اليوم من واجبات الجنسية والوطنية ، وكانوا يعدون الكذب وشهادة الزور لأجل الأمة والوطن والملة رذيلة وإثماً كبيراً .

وكانوا يعتقدون أن أحكام الشرع تعم الفرد والأمة والأمور الشخصية والاجتماعية وكانوا متمسكين بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين** ﴾[1] الآية ، وقوله : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله** ﴾[2] وقوله ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾[3] وقوله: ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾ [4].

(١) آية ١٣٥ : النساء . (٢) آية٨ : المائدة .

(٣) آية ٥٨ :النساء . (٤) آية ١٥٢ : الأنعام .

ومما يروى لنا الشيوخ من ذلك : أنه وقع نزاع بين الهنادك والمسلمين فى قرية كاندهلة من مديرية « مظفر نكر » فى الولايات المتحدة الهندية على أرض ، فادعى الهنادك أنها معبد لهم ، والمسلمون أنها لهم مسجد ، وتحاكمو إلى حاكم البلد الإنجليزى ، فسمع الحاكم القضية ودلائل الفريقين ولم يطمئن إلى نتيجة ، فسأل الهنادك : هل يوجد فى القرية مسلم تثقون بصدقه وأمانته أحكم على رأيه ؟ قالوا : نعم ، فلان ، وسموا شيخاً من علماء المسلمين وصالحيهم ، فأرسل إليه الحاكم وطلبه الى المحكمة فلما جاءه الرسول قال : قد حلفت أن لا أرى وجه إفرنجى ، ورجع الرسول فقال الحاكم : لا بأس ، ولكن احضر وأدل برأيك فى القضية ، فحضر الشيخ وولى دبره الى الحاكم وقال : الحق مع الهنادك فى هذه القضية ، والأرض لهم. وبذلك قضى الحاكم وخسر المسلمون القضية ، ولكن كسبوا قلوب الهنادك وأسلم منهم جماعة .

وكذلك كان الناس يعدون العلم عارية مقدسة ووديعة من الله لا يبيعونه كسلعة فى السوق ، ولا يتعاونون به على إثم آثم وعدوان معتد ، وكانوا لا يرضون أن يستعين به نظام جائر أو حكومة غير إسلامية .

ومما حكى لنا الثقات وقرأناه فى التاريخ أن الشيخ عبدالرحيم الرامبورى (م١٢٣٤ هـ) كان يعمل فى بلدة رامبور براتب زهيد يتقاضاه كل شهر من الإمارة الإسلامية لا يزيد على عشر روبيات (أقل من جنيه مصرى) ، فقدم إليه حاكم الولاية الإنجليزى المستر هاكنس وظيفة عالية فى كلية بريلى راتبها مائتان وخمسون روبية (تسعة عشر جنيهاً مصرياً) ، وذلك يساوى خمسين جنيها في هذا العهد ، ووعد بالزيادة فى الراتب بعد قليل ، فاعتذر الشيخ عن قبوله وقال : إنى أتقاضى عشر روبيات وإنها ستنقطع إذا تحولت إلى هذه الوظيفة ، فتعجب الإنجليزى وقال : ما رأيت كاليوم : أنا أقدم راتباً يزيد على راتبك الحالى بأضعاف أضعاف ، وتترك الأضعاف المضاعفة وتقنع بالنزر اليسير ! . فتعلل الشيخ بأن فى بيته شجرة سدر وهو مغرم بثمرها وأنه سيحرمها إذا أقام فى بريلى ، ولم يفطن الإنجليزى بعد إلى مقصود الشيخ . فقال : أنا زعيم بأن هذا الثمر يصل إليك من رامبور إلى بريلى ، فتشبث ثالثة بأن حوله طلبة وتلاميذ ويقرؤون عليه فى بلده فلو انتقل إلى هذه الوظيفة انقطعت دروسهم . ولم ييأس الإنجليزى المناقش من إقناعه فقال : أنا أجرى لهم

جرايات فى بريلى ويواصلون دروسهم هناك ، وهنا أطلق الشيخ آخر سهامه الذى أصمى رميته فقال : وماذا يكون جوابى غداً إذا سألنى ربى : كيف أخذت الأجرة على العلم ؟ وهنا بهت الإنجليزى وسقط فى يديه وعرف نفسية العالم المسلم ، وقضى الشيخ حياته على أقل من جنيه يأخذه كل شهر .

قارن هذه الروح السامية والنفس الكبيرة التى تربأ بالعلم ان يباع بيع السلع ، وتغار على العقيدة والكرامة أن تشترى بمال أو منفعة ، بهذا التبذل والإسفاف الذى وصل اليه اهل العلم والعقل والصناعة فى هذا الزمان ، فقد عرض كثير من علمهم وعقلهم وما يحسنونه كالسلع فى الأسواق ، يبيعونها بالمناداة (المزاد العلنى) ليشتريها من يزيد فى الثمن كائناً من كان ، فليس الشأن عندهم فى العقيدة ولا فى الغرض والنتيجة ولا فى الملاءمة والذوق ، إنما الشأن عندهم فى الثمن الذى يدفعه المشترى .

وكل يوم نطلع على مضحكات مبكيات فى هذا الباب ، فهذا الأستاذ كان أمس فى معهد إسلامى يدرس العلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامى ، وقدمت إليه الكلية الكاثوليكية الفلانية وظيفة تدريس براتب يزيد على راتبه السابق بخمسة جنيهات فانتقل إليها ، وهذا السيد فلان كان فى وزارة المعارف سابقاً ، وكان شاباً مثقفاً وعالماً له هوى فى التحقيق والدراسة ، تقرأ له مقالات علمية فى المجلات الراقية فإذا به ينتقل فجأة إلى مصلحة الطيران أو الإذاعة ، وسألناه : ماذا حدث له حتى غير طريقه وقلب تيار حياته ؟ فأخبرنا أن ذلك لأجل أن يربح فى مركزه الجديد عشرة جنيهات ، وهذا البحاثة الفلانى كتب مقالة عن التصوف الإسلامى ونال بها ثناء أهل العلم قد تحول إلى وزارة الخارجية أو أصبح ترجمان دولة أوربية ، وما هو إلا لأجل زيادة بمقدار بضعة جنيهات ، أو ليس هذا لأن الربح المالى قد أصبح كل شيء ولأن الذهب اللماع أصبح المتصرف الوحيد فى مناهج الحياة والمسيطر الوحيد على الأرواح والعقليات ؟! .

قرأنا فى التاريخ الإسلامى أن المنصور الخليفة العباسى المشهور طلب من ابن طاوس فى مجلس أن يناوله الدواة ليكتب شيئاً فامتنع ، فسأله الخليفة عن سبب امتناعه وعدم امتثاله أمر خليفة المسلمين ، فقال : أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها ومتعاوناً على الإثم والعدوان . إلى هذا الحد وصل بهم تمسكهم بقوله

تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾(الأنعام: ٢ المائدة) أما امتناعهم عن قبول منصب القضاء فى نظام لا يرضونه ولا يرتاحون إلى سيره وتفاصيله فرواياته بلغت حد التواتر، اطردت فى أدوار الحياة الإسلامية الأولى.

قارن هذا الاحتراس من التعاون على الإثم والعدوان ، وهذا التعفف عن المشاركة فى نظام غير صحيح ، والامتناع من أدنى مساعدة لهدف لا يتفق ومصالح الأمة الإسلامية أو يعود عليها بالضرر أو فيه غش وخديعة للأمة ، قارن كل ذلك بهذه المساعدة والتعضيد الذى تتمتع به الحكومات الأوربية من المسلمين ، وهذا الذكاء واللباقة والقلم البليغ واللسان الذلق الذى ينتفع به الأجانب منهم فى مصالحهم وإداراتهم .

فهنالك شبان مسلمون وكتاب بارعون يتولون تحرير الصحف والمجلات التى تصدرها الحكومات الأجنبية لنشر دعايتها فى بلاد المسلمين والتأثير فى عقليتهم ونفسيتهم وتمويه الحقائق بمقدرة المأجورين من المسلمين أنفسهم .

وهنالك جماعة من « الأفاضل » ينحدرون من أصول عربية صميمة ، وينتمون إلى بيوتات عريقة فى المجد والإخلاص والإسلام ، قد جاهد آباؤهم فى سبيل الحق ومحق الباطل ، وبقيت نسبتهم فى أسمائهم تروى لنا تاريخاً مجيداً عن آبائهم حافلاً بجلائل الأعمال ، وجرى دمهم فى عروقهم ، وظهر فى ملامح وجوههم وتقاطيعها ، يشتغلون اليوم فى الحكومات الأجنبية ، ويستعملون تلك اللغة المضرية الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم ، والتى تكلم بها رسل المسلمين فى مجالس ملوك فارس والروم ، فأدوا بها رسالة الإسلام ، وألقوا المهابة فى قلوبهم ، والتى ألقى بها القواد المسلمين خطب الجهاد ، بهذه اللغة الكريمة التى لا تليق إلا للبطولة الإسلامية ، وبتلك الكلمات الفصيحة الرائعة التى لا تجمل إلا فى مواضع الحق والجهاد ، ينشر هؤلاء دعاية الحكومات الأجنبية التى تعبث بالمسلمين عبث اللاعب بالكرة ، أو عبث الوليد بجانب القرطاس ، وقد رزأتهم فى سياستهم واستقلالهم وإيمانهم وعقلهم واقتصادهم ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون .

قد سمعنا منهم أن هذه الحكومات تقوم بجهود نبيلة لخير العروبة والإسلام ورفع شأنهما . وأنها « نور الحرية الوضاء فى عالم ساده الظلام الدامس » ، وقد

سـمعناهم يشـيدون « بالخدمات الجلى والمساعـدات العظيمـة التى تقدمـها الإذاعـة البريطانية فى سبيل نهضة الأقطار العربيـة وتوحيد تفكيرها وثقافـتها وتوثيق الروابط بينها ، ومـا تقوم به من نشر الثقـافة العربية الإسـلامية ، وتعريف المسلمين بتـاريخهم المجيد ومدنيتهم الزاهرة ، وإطلاع العالم العربى على حقائق الأمـور ، وسير الحوادث فى نزاهة وتجـرد وصـدق [١] » ولطالما سـمعناهم وقـرأنا لهم إشـادة بإيمان هذه الحكومات بالديمقراطية الصحيحة وجـهادها لتوطيد الأمن العام وسلام العالم وحرية الأمم المستضعـفة والبلاد المهضومة ، ورفعهـا لراية العدل والمساواة ، والأخذ للمظلوم من الظالم ، وقيامها للحق .. إلخ .

فإذا كـان هؤلاء المتحـدثون لايرضى ضميـرهم بما يقولون ، ويعـرفون أن هذه الكلمـات فى غيـر محلهـا ، وإنما هو كله لمصـالحهـم الماليـة ، فـيالانـحطاط النفس الشريفـة، ويالرخص السلعة الغـالية ، ويـاضيعة الكـلمات العامـرة بالمعانى ، ويـاشـقاء اللغـة العربيـة بأهلهـا !. وإذا كان ذلك عن اعـتقـاد وثقة وفـهم للـمعنى ، فيـا جـهلاً بالحقائق ، ويا إنكاراً للمحسوس ، ويا مسخاً للقلوب !.

وهذا عصـر التناقش فيكتب أديب أو صـحافى اليوم كـتاباً حمـاسياً فى سـيرة بطل من أبطال الجهـاد الإسلامى ، أو مجـدد من مجددى الإسـلام ، ولا يجف مداد مقالته أو كتابه ذلك حتى يكتب بقلمه تقريظاً أو ثناء على خائن من خونة الأمة ، أو صنيعة من صنائع الأجانب لمصلحة سياسية ومنفعة مالية ، ولا يرى فى ذلك تناقضاً .

طلب ملك من ملوك العرب من شاعر عـربى فرسه ، فـاعتذر أن يعطيـها بأى ثمن كان وقال :

أبيت اللعـن إن سكـاب علـق

نفيـس لا تـعـار ولا تـبـــاع

ولكن كـأن الضمـير عند هؤلاء الذين يشتغلون فى الحكومـات الأجنبـية ، أو يذيعـون من محطاتهـا ما لا يرضى به ضـميـرهـم ولا يصدقـه علمهـم ، أو يـصدرون صـحفـاً ، أو يؤلفـون كـتبـاً على جـعـالة أو راتب شهـرى ، أذل وأرخص من جـواد الجاهلى فهو يعار ويباع ، وذلك لم يكن ليعار ولا ليباع .

---

(١) الكلمات التى بين القوسين منقولة لفظا .

وكانت الروابط والأواصر في الشرق – في الغالب – قائمة على أساس غير مادى إما عقلي وإما روحي ووجداني ، وكان للأثرة والأنانية فيها نصيب ضئيل ، وكان نتيجة ذلك وجود روابط وأواصر لا يمكن تعليلها بالمادة وجر النفع إلى أصحابها ، وكانت هذه الروابط متغلغلة فى الأحشاء ، فمن ذلك أن علاقة التلميذ بأستاذه وإخلاصه وحبه له في العهد السابق ، يزرى بعلاقة الولد بوالده وحبه له فى هذا العصر .

اشتهر نبأ وفاة الأستاذ الشهير العلامة نظام الدين اللكهنوى (م ١١٦١هـ) صاحب منهاج الدرس النظامي الجارى تطبيقه في الهند وخراسان ، فلما أتى النعي تلميذه السيد كمال الدين العظيمابادى ، مات من شدة الحزن ، وعمى تلميذه الآخر « ظريف العظيمابادى » من كثرة البكاء ، وتحقق بعد ذلك أن الإشاعة كانت غير صحيحة [1] ، ولعل ذهن هذا العصر لا يسيغ هذه الرواية ، ولكن الذى عرف طبيعة الشرق ومدى اتصال التلميذ هنالك بأستاذه وحبه له لم يستغرب هذه الرواية ولم يكذبها .

يعلم المطلع على تاريخ الأخلاق وفلسفتها أنه قد ظهرت مدرسة فى أوربا قبل المسيح بأربعة قرون ، وكان لها أنصار من كبار الفلاسفة والأخلاقيين الى القرن التاسع عشر المسيحى ، تدين باللذة البدنية وتعتقد انها ميزان الأخلاق ومعيار الأعمال ، وتشير على أتباعها بأن يهتبلوا فرص التمتع بالحياة الدنيا ويغتنموا فلتات الدهر .

وافترق أصحاب هذه المدرسة فرقتين ، فمنهم (أولو الأثرة) الذين يقولون : ينبغى أن لا يحول بين الإنسان وشهواته حائل حتى لا يدع حاجة فى نفسه إلا قضاها ، فينال بذلك النصيب الأكبر من اللذة والهناءة وقالوا : السعادة هى إرضاء الشهوة وقضاء مآرب النفس واقتطاف المسرة واللذة باليدين .

---

(١) نزهة الخواطر للشيخ عبد الحي الحسني (الجلد السادس).

والفرقة الثانية هم (النفعيون) ويرى أهل هذا المذهب أن الواجب هو تحصيل المنفعة التى ينال بها أكبر عدد من أفراد البشر أوفر قسط من اللذة والهناء ، ولا وزن للأفعال الخلقية فى نظرهم إلا بما تأتى به المسرة لغالب بنى النوع ، ويرى هؤلاء أن السعادة هى أن تتوافر للناس بأعمالهم اللذات وتبعد عنهم الآلام .

ويرى القارئ ويلمس الروح المادى المتعشق للذة والهناء فى آراء هذا المذهب ونزعاته من أحطها وأكثرها إسفافاً إلى أرقاها وأكثرها تحليقاً ، وهذا يختلف عن طبائع الشرق وشرائع السماء اختلافاً بيناً ، وقد أثرت هذه النزعة المادية فى فلسفة الغرب وأخلاقه وأدبه وحضارته تأثيراً عميقاً ، ولا تزال مهيمنة على الحياة الغربية وآدابها حتى اليوم .

ثم نزعوا دائماً فى تشخيص المنفعة ووزنها إلى المادية لأنهم احتكموا فيها إلى أذهانهم وعقولهم ، وقد أصبحت مادية بحتة ، لأنها بحقيقة لا تأتى تحت الحس أو المساحة أو العد أو الوزن ، ولا تؤمن بمنفعة لا تجلب لذة وهناء ، حتى مؤسس هذا المذهب « أبيقور م ٢٧١ ق.م) صرح بأن مناط الحكم على الأعمال هى المنفعة ، وأن المنفعة لا قيمة لها إلا إذا اجتلبت لذة واغتباطاً ، فكيف وقد تدرجت العقول والطبائع الغربية ومردت على النزوع المادى على تعاقب الأجيال والعصور ؟!

فكان نتيجة ذلك أن الذهن الغربى والمنطق العصرى أصبحا عاجزين عن الاهتداء إلى منفعة غير محسوسة لا تجلب لذة واغتباطاً ، وأصبح العقل الأوربى محامياً عن المادية لا يحكم على الأخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع المادية ، وبحسب ما يكتسب المجتمع بواسطتها من اللذة والهناء ، والأفراد من الاغتباط والرخاء ، فأصبح الربح المادى هو الميزان للأخلاق والفارق بين الشر والخير وأصبحت الأخلاق التى لا وزن لها فى ميزان المادة ، ليس لها قيمة إلا القيمة الدينية أو الخلقية فى المصطلح القديم ينتقص كل يوم سلطانها على القلوب والعقول ، وتعدم أنصاراً وتصبح من شعائر القديم وذكريات العهد الماضى كحنان الأبوين وحبهما للأولاد ، ووفاء الأزواج وحفظهن للغيب ، وتحل محل هذه الأخلاق المقدرة الصناعية والاختراع والإنتاج والوطنية والجنسية ولا تزال ترتفع قيمتها ويرجح وزنها.

ولا يزال المجتمع العصرى يستغنى عن الروابط المنزلية والارحام الدموية والشرائع الخلقية بتنظيمات اجتماعية شعبية على الخطوط السياسية والصناعية والاقتصادية . ولا يهم المجتمع الآن كيف يعامل الولد والده أو الزوجة زوجها إذا كان هؤلاء الأفراد لا يزالون فى الدائرة المدنية التى اختلطها المجتمع حول أفراده ، ومادام لا يحدث عملهم هذا اضطراباً فى المجتمع وثورة على النظام ولا يعرقل سير المدنية فلا بأس إذا كان هنالك عقوق من ولد أو فرك من قرينة أو جفاء من زوج أو دعارة من امرأة أو فسق من رجل أو خيانة من زوجة .



الباب الخامس

قيادة الإسلام للعالم

الفصل الأول

نهضة العالم الإسلامي

*** اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية :**

لأسباب تاريخية عقلية ، طبيعية قاسرة ، ذكرناها فى البحوث السابقة ، تحولت أوربا النصرانية جاهلية مادية ، تجردت من كل ما خلفته النبوة من تعاليم روحية ، وفضائل خلقية ، ومبادئ إنسانية ، وأصبحت لا تؤمن فى الحياة الشخصية إلا باللذة والمنفعة المادية ، وفى الحياة السياسية إلا بالقوة والغلبة ، وفى الحياة الاجتماعية إلا بالوطنية المعتدية ، والجنسية الغاشمة ، وثارت على الطبيعة الإنسانية والمبادئ الخلقية ، وشغلت بالآلات ، واستهانت بالغايات ، ونسيت مقصد الحياة ، وبجهادها المتواصل فى سبيل الحياة وبسعيها الدائب فى الاكتشاف والاختبار مع استهانتها المستمرة بالتربية الخلقية وتغذية الروح وجحودها بما جاءت به الرسل ، وبإمعانها في المادية ، وبقوتها الهائلة مع فقدان الوازع الديني والحاجز الخلقى ، أصبحت فيلاً هائجاً ، يدوس الضعيف ، ويهلك الحرث والنسل ، وبانسحاب المسلمين من ميدان الحياة ، وتنازلهم عن قيادة العالم وإمامة الأمة ، وبتفريطهم فى الدين والدنيا ، وجنايتهم على أنفسهم وعلى بنى نوعهم ، أخذت أوربا بناصية الأمم ، وخلفتهم فى قيادة العالم ، وتسيير سفينة الحياة والمدنية التي اعتزل ربانها ، وبذلك اصبح العالم كله – بأممه وشعوبه ومدنياته – قطاراً سريعاً تسير به قاطرة الجاهلية والمادية الى غايتها ، وأصبح المسلمون – كغيرهم من الأمم – ركاباً لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وكلما تقدمت أوربا فى القوة والسرعة ، وكلما ازدادت وسائلها ووسائطها ، ازداد هذا القطار البشرى سرعة إلى الغاية الجاهلية حيث النار والدمار والاضطراب والتناحر والفوضى الاجتماعية والانحطاط الخلقى والقلق الاقتصادى والإفلاس الروحى ، وها هى أوربا تستبطئ الآن أسرع قطار ، وتريد أن تصل إلى غايتها بسرعة الطائرة بل بسرعة القوة الذرية .

*** استيلاء الفلسفة الأوربية على العالم :**

وليس على وجه الأرض اليوم أمة أو جماعة تخالف الأمم الغربية فى عقائدها ونظرياتها وتزاحمها فى سيرها، وتعارضها فى وجهتها، وتناقشها فى مبادئها وفلسفتها الجاهلية ، ونظام حياتها المادى لا فى أوربا ولا فى أمريكا ، ولا فى أفريقية وآسيا ، والذى نرى ونسمع من خلاف سياسى ونزاع بين الأمم فإنما هو تنافس فى القيادة ، وتنازع فيمن يكون هو القائد الى هذه الغاية المشتركة ، فدول المحور إنما كانت تكره ان يبقى الحلفاء مستبدين بالقيادة العالمية منذ زمن طويل ، مستأثرين بموارد الأرض وخيراتها وأسواقها ومستعمراتها ، وبشرف السيادة على العالم وحدهم مع انها لا تقل عنهم فى القوة والعلم والنظام والنبوغ والذكاء ، بل ربما تفوقهم ، أما إنها كانت تريد ان تسير الى غاية أخرى وأن تقوم بدعوة المسيح ، وتقيم فى الأرض القسط ، وان تقود الأمم الى الدين والتقوى وتنصرف بها وتتجه من المادية إلى الروحانية والأخلاق فهيهات هيهات .

أما روسيا الشيوعية فليست إلا ثمرة الحضارة الغربية ، قد أينعت وادركت ، ولا تمتاز عن الشعوب والدول الأوربية إلا أن روسية قد خلعت جلباب النفاق والزور ونفذت ما تزوره وتبطنه الأمم الغربية منذ زمن طويل ، وتعتقده منذ قرون فى الأخلاق والاجتماع ، وقد استبطأت روسية سير هاتيك الأمم والدول فى سبيل الإلحاد واللادينية والإباحة والمادية البهيمية ، فهى تريد أن تتولى قيادة العالم ، وتسير بالأمم الإنسانية سيراً حثيثاً إلى ما وصلت إليه .

*** الشعوب والدول الآسيوية :**

أما الشعوب والدول الآسيوية والأمم الشرقية فهى فى طريقها إلى الغاية التى وصلت إليها شعوب أوربا فى الحضارة والسياسة ، وتدين بما تدين به هذه الشعوب فى الأخلاق والآداب والاجتماع وتعتقد ما تعتقده عن الحياة والكون ، وتتحلى به من سيرة وخلق وتهذيب ، إلا أنها لا ترضى أن يتولى أمرها النزلاء الأجانب ويقيموا عليها الحجر كما يقام على السفيه ، وأن تكون للأوربيين عليها دول وإمبراطوريات ينعمون فى ظلها ويرتعون فى جنباتها ، ولا يكون لها مثلها فى الشرق وأفريقية وآسية ولا تستمتع حتى فى داخل بلادها بما استمتع به الأوربيون طويلاً حتى في خارج بلادهم . أما إنها تنكر على الأوربيين ماديتهم وتنقم منهم أخلاقهم وسيرتهم وتنعى

عليهم فلسفتهم ومبادئهم فلعل ذلك لا يخطر منها على بال ، بل قد زين لها كل ما تتصف به الأمم الأوربية فحلا فى عينها .

وكلما سنحت لهذه الأمم فرصة الاستقلال وملكت زمام أمورها تجلت أخلاقها ومبادئها وظهرت سيرتها الجاهلية فى صورتها الطبيعية الحقيقة ، فإذا هى أفظع صورة وأبشعها فى التاريخ ، قساوة قلب وضراوة بالدم الإنسانى وهتكاً للأعراض ونهباً للأموال وقتلاً وتدميراً ، وقد ظهرت من بعض هذه الشعوب الآسيوية على أثر استقلالها من الحكم الأجنبى فظائع ومنكرات تستبشعها الوحوش والسباع وتصتك منها الأسماع ، فقد عاملت بعض الشعوب المواطنة بعصبية دينية وسياسية ، معاملة عز نظيرها فى التاريخ ، رضعاء يقتلون ويقطعون إرباً إربًا ونساء تهتك أعراضهن ثم يقتلن من غير رحمة ولا حياء ، وآبار تسمم وبيوت تهدم ونيران تشعل وقنابل تقذف ، وإذا دخلوا قرية فاتحين منتشرين أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ووضعوا فيها السيف ، وعاث الوحوش فى الدماء والأعراض حتى أقفرت القرى وامتلأت الآبار بالسيدان اللاتى آثرن الموت على هتك الأعراض ، هذا عدا نساء قتلن بهمجية وطرق فظيعة لم تسبق فى التاريخ ، إلى غير ذلك من الأفاعيل التى يشك فيها الناس فى البلاد الإسلامية والمتحضرة .

هذا غير ذلك الاضطهاد الدينى والمقاطعة الاجتماعية التى تلقاها تلك الطوائف فى بلادها ، وما تلقى ثقافتها وديانتها من مطاردة ومهاجمة من تلقاء هذه الشعوب فتحرم الحرية الثقافية واللسانية وترغم على لغة مصطنعة دائرة ، ويحاول الأقوياء أن يمحوا كل أثر من آثار حضارتها وثقافتها ويختلقوا عليها الأكاذيب والجنايات ، ويمثلوا قصة الحمل والذئب كل يوم ، فيعزل رجالها من الوظائف وتسد فى وجوههم أبواب المعاش والتجارة والحرف ، وتقفل دكاكينهم ومحالهم التجارية وتصادر أملاكهم وأموالهم بعلل واهية مضحكة .

ثم إن هذه الأمم أفلست إفلاساً شائناً فى الدين والأخلاق ، وقد أشربت فى قلوبها حب المال والمادة ، وتسلط عليها شيطان الأثرة والجشع حتى ضجت منها الحكومات وتعبت ، فقد ارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً ، فلما التجأت الحكومة الى التسعير اختفت السلع والأموال ، وأصبح الناس لا يجدون كسوة ولا طعاماً ولا حاجة إلا بالسعر الذى يريده التاجر ، فنفقت السوق السوداء، وشاعت الجنايات

والخيانات والارتشاء والتهريب ، وأصبحت الحكومة والتجار كفرسى رهان أو قرنى ميدان ، كل يريد أن يغلب صاحبه وينتهز غرته ، وأصبح الناس حبة بين حجرى الرحى لا يدرون كيف يفعلون .

وقد حاول رجال الإصلاح والديانة أن ينفخوا فى هذه الأمم حياة جديدة ويبنوا فيها روح الأخلاق والفضيلة والأمانة والاقتصاد فأخفقوا إخفاقاً تاماً ، وعلموا أن خلق أمة بأسرها أهون من إصلاح هذه الأمم وتهذيبها وقد انقطعت مادتها وانقضى أجلها .

وهكذا أصبح العالم شرقاً وغرباً فى أزمة روحية وخلقية واجتماعية واقتصادية تطلب حلا سريعاً عاجلاً .

*** الحل الوحيد للأزمة العالمية :**

والحل الوحيد هو تحول القيادة العالمية وانتقال دفة الحياة من اليد الأثيمة الخرقاء التى أساءت استعمالها إلى يد أخرى بريئة حاذقة .

إن تحول القيادة من بريطانيا إلى أمريكا ومنهما جميعاً إلى روسيا لا يغنى غناء ولا يغير من الموقف شيئاً ، فإن هذا التحول ليس إلا نقل المجداف من اليمين إلى الشمال إذا تعبت الأولى أو بالعكس ، فما دام المجداف واحداً فلا فرق بين يمينه وشماله ، وليست بريطانيا وأمريكا وروسيا إلا أيدى رجل واحد تتداول دفة الحياة ، وتتناوب تجديف السفينة على خط واحد إلى جهة واحدة .

إن التحول المؤثر الواضح هو تحول القيادة من أوربا - بالمعنى الواسع الذى يشمل بريطانيا وأمريكا وروسيا ومن كان على شاكلتها من الأمم الآسيوية والشرقية - التى تقودها المادية والجاهلية ، إلى العالم الإسلامى الذى يقوده سيدنا ﷺ برسالته الخالدة ودينه الحكيم .

هذا هو التحول الذى يغير وجه التاريخ ، ويحول مجرى الأمور وينقذ العالم من الساعة الرهيبة التى ترقبه .

إن حقاً على العالم الإسلامى أن يمنى نفسه بهذا المنصب الخطير ، ويطمح إليه وإن حقا على كل بلد إسلامى وشعب إسلامى أن يشد حيازيمه لذلك ، وإن حقاً على كل مسلم أن يجاهد فى سبيله ويبذل ما فى وسعه ، فهذه هى المهمة الشريفة

التى نيطت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود ويوم طهرت نواتها فى جزيرة العرب .

*** العالم الإسلامى على أثر أوربا :**

من الغريب الواقع أن المسلمين قد أصبحوا فى الزمن الأخير فى كثير من نواحى الأرض حتى فى مراكز الإسلام وعواصمه حلفاء للجاهلية الأوربية وجنوداً متطوعين لها ، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلامية يرى في الشعوب الأوربية التى تزعمت حركة الجاهلية منذ قرون ونفخت فيها روحاً جديدة ، وركزت أعلامها على الشرق والغرب ، ناصراً للمسلمين ، حامياً لذمار الإسلام المستضعف ، حاملاً لراية العدل فى العالم قواماً بالقسط .

ورضي عامة المسلمين بأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامى ، وسرت فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوربية سريان الماء فى عروق الشجر والكهرباء فى الأسلاك ، فترى المادية الغربية فى البلاد الإسلامية فى كثير من مظاهرها وآثارها ، ترى تهافتاً على الشهوات ونهماً للحياة ، نهم من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة ، ولا يدخر من طيباتها شيئاً ، وترى تنافساً فى أسباب الجاه والفخار وتكالباً عليها فعل من يغلو فى تقويم هذه الحياة وأسبابها ، وترى إيثاراً للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ والأخلاق ، شأن من لا يؤمن بنبى ولا بكتاب ، ولا يرجو معاداً ، ولا يخشى حساباً وترى حباً للحياة وكراهة للموت ، دأب من يعد الحياة الدنيا رأس بضاعته و منتهى أمله ومبلغ علمه ، وترى افتتانا بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالأمم المادية التى ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حية ، وترى خضوعاً للإنسان ، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعبدة الأصنام .

*** المسلمون على علاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل :**

ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض ، التى تعد خصيم الأمم الغربية وغريمتها ومنافستها فى قيادة الأمم ، ومزاحمتها في وضع العالم ، والتى يعزم عليها دينها أن تراقب سير العالم وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها ، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى ، وإلى السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة ، وتحول بينها وبين جهنم بما استطاعت من

القوة والتى يحرم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها ان تتحول أمة جاهلية .

هذه هى الأمة التى يمكن أن تعود فى حين من الأحيان خطراً على النظام الجاهلى الذى بسطته أوربا فى الشرق والغرب وأن تحبط مساعيها .

وقد وصف هذا الخطر شاعر الإسلام الحكيم « محمد إقبال » فى قصيدته البديعة : (برلمان إبليس) على لسان إبليس ، ذكر فيها أن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا فى مجلس شورى ، وتباحثوا فى سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسى ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا فى فتن وأخطار قد أحدقت بهم و هددت نظامهم وجللوا خطبها وتناذروا شرها ، فذكر أحدهم الجمهورية وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثانى : لا يهولنك أمرها فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهورى ، إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها فألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك . إن الملوكية لا تنحصر فى وجود شخص ترتكز فيه الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالاً على غيره مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواء فى ذلك الشعب والفرد . أما رأيت نظام الغرب الجمهورى وجه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان؟

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدهماء التى أثارها هذا اليهودى الذى يدعى كارل ماركس ذلك الباقعة الذى ليس نبياً ولكنه يحمل عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السادة حتى تزعزعت مبانى الإمارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة ، إن سحرة أوربا ، وإن كانوا مريديك المخلصين ولكنى لم أعد أثق بفراستهم ، ها هو السامرى اليهودى الذى هو نسخة من مزدك (الزعيم الفارسى الاشتراكى) قد كاد يأتى على العالم بقواعده فاستنسر البغاث ، وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحاً) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية وها هى قد استفحلت وتفاقم شرها ، وها هى الأرض ترجف بهول فتنة الغد ، يا سيدى إن العالم الذى كنت تحكمه سينقض عليك ، إذ ينقلب نظام العالم ظهراً لبطن.

فتكلم رئيس المجلس (إبليس) وقال : إنى أملك زمام العالم وأتصرف به كيف أشاء ، وسيرى العالم عجباً إذا حرشت بين الأمم الأوربية فتهارشت تهارش الكلاب ، وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب ، وإذا همست فى آذان القادة السياسيين وأساقف الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية فكونوا على ثقة أن الخرق الذى أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطق المزدكى (الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفنى هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفاً فإنى أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة فى رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً ، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير أن ليل الشرق داج مكفهر ، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التى تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم ، ولكنى أخاف أن قوارع هذا العصر وهزته ستقض مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة (محمد ﷺ) إنى أحذركم وأنذركم من دين (محمد) حامى الذمار ، حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد يلغى كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكى المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافياً، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم [1] أمناء لله وكلاء على المال ، وأى ثورة أعظم وأى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين فى عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلاطين .

---

(١) إشارة إلى جزء من الآية ٧ : الحديد .

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ، وليهنكم أن

المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه ، فخير لنا أن يبقى مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على آذان المسلم فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطئ سحره ، اشغلوه يا إخوانى عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان فى العالم . خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه ، واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التى يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسّه [1].

*** رسالة العالم الإسلامى :**

لا ينهض العالم الإسلامى إلا برسالته التى وكلها إليه مؤسسه ﷺ والإيمان بها والاستماتة فى سبيلها ، وهى رسالة قوية واضحة مشرقة ، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أيمن للبشرية منها .

وهى الرسالة نفسها التى حملها المسلمون فى فتوحهم الأولى ، والتى لخصها أحد رسلهم فى مجلس يزدجرد ملك إيران بقوله : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » رسالة لا تحتاج إلى تغيير كلمة وزيادة حرف ، فهى منطبقة تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس المسيحى ، كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خرج المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية .

فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم – من أوثان منحوتة ومنجورة ومقبورة ومنصوبة – ولا تزال عبادة الله وحده مغلوبة غريبة ، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق ، ولا يزال إله الهوى يعبد ، ولا يزال الأحبار والرهبان والملوك والسلاطين وأصحاب القوة والثروة والزعماء والأحزاب السياسية أرباباً من دون الله تقرب لها القرابين وينصب لها الجبين .

وكذلك العالم اليوم رغم اتساعه وتوفر وسائل السفر والانتقال من مكان إلى مكان ، واتصال الشعوب والأمم بعضها ببعض أضيق بأهله منه بالأمس ، قد ضيقته المادية التى لا تنظر إلا إلى قدمها ولا تؤمن إلا بفائدة صاحبها ، ولا تعرف غير العكوف على الشهوات وعبادة الذات ، وقد خنقته الأثرة التى لا تسمح لاثنين

(١) روائع إقبال للمؤلف ص:١٢١ .

بالعيش فى إقليم واسع ، والوطنية الضيقة التى تنظر إلى كل أجنبى شزراً وتجحد له كل فضل وتحرمه كل حق .

ثم ضيق خناق هذه الحياة المادية المسيطرون السياسيون الذين يحتكرون وسائل الحياة والرزق والقوت ، يضيقون هذه الحياة لمن شاؤوا ويوسعونها لمن شاؤوا ويبسطون الرزق - زعموا - لمن شاؤوا ويقدرونه لمن شاؤوا ، فأصبحت المدن الواسعة اضيق من جحر ضب ، وأصبح الناس فى بلادهم فى شبه حَجْر كحَجْر السفيه واليتيم ، وضاقت على الناس الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وأصبح الناس فى أغلال وأصفاد من المدينة والمملكة مهددين فى كل وقت بمجاعات مصطنعة وحقيقية ، وحروب خارجية وداخلية ، وإضرابات واضطرابات أسبوعية ويومية .

نعم ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ! ولا تزال فى هذا العصر المتنور الواعى المثقف أديان تعبث بعقول الناس وتسخرهم كالحمير والبقر ، وتزين لأتباعها قتل مئات من البشر لأجل بقرة ذبحت فى عيد الأضحى ، أو شجرة مقدسة عضدت فى قرية من القرى .

وهنالك أديان بغير اسم الأديان لا تقل فى نفوذها وسلطانها ، ولا تقل فى جورها وعداونها وعبثها بعقول أتباعها وفى عجائبها عن الأديان القديمة ، وهى النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التى يؤمن بها الناس كدين ورسالة ، كالجنسية والوطنية ، والديموقراطية والاشتراكية ، والدكتاتورية والشيوعية ، وهى أقل مسامحة لمن لا يدين بها وأشد قسوة على منافسيها ، وأضيق عطفاً من الأديان الجاهلية ، والاضطهاد السياسى اليوم أفظع من الاضطهاد الدينى فى القرون المظلمة ، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية أو ساد مبدأ من المبادئ السياسية ، أو انتصر فريق على فريق فى الانتخاب ، سد فى وجه منافسه الأبواب وعذبه أشد العذاب ، وما حرب أسبانيا الأهلية التى دامت مدة طويلة ، وسفكت فيها دماء غزيرة ، وما حرب الصين التى قامت بين الجمهوريين والشيوعيين من أهل الصين ، وحرب «كوريا » التى قامت بين الجنوبيين والشماليين ، إلا نتيجة اختلاف فى العقيدة السياسية والنظريات الاقتصادية .

فرسالة العالم الإسلامى هى الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر ،

وجائزته الخروج من الظلمات الى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، والخروج من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الإسلام ، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها فى هذا العصر أكثر من كل عصر ، فقد افتضحت الجاهلية وبدت سوآتها للناس واشتد تذمر الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام ولونهض العالم الإسلامى ، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة ، ودان بها كالرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال .

* **الاستعداد الروحى :**

ولكن العالم الإسلامى لا يؤدى رسالته بالمظاهر المدنية التى جادت بها أوربا على العالم ، وبحذق لغاتها وتقليد أساليب الحياة التى ليست من نهضة الأمم فى شىء إنما يؤدى رسالته بالروح والقوة المعنوية التى تزداد أوربا كل يوم إفلاساً فيها ، وينتصر بالإيمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والشوق إلى الشهادة والحنين إلى الجنة ، والزهد فى حطام الدنيا وتحمل الأذى فى ذات الله صابراً محتسباً قال الله تعالى : ﴿ **ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون** ﴾(النساء: الآية١٠٤). فقوة المؤمن وسر انتصاره فى إيمانه بالآخرة ورجائه لثواب الله ، فإذا كان العالم الإسلامى لا يرمى إلا إلى ما تراه أوربا من العرض القريب ، ولا يطمح إلا فيما تطمح فيه أوربا من حطام الدنيا ، ولا يؤمن إلا بما تؤمن به أوربا من المحسوسات والماديات ، كانت أوربا بقوتها المادية أحق بالانتصار والسيادة من العالم الإسلامى الذى يتخلف عنها فى القوة المادية تخلفاً شائناً ولا يفوقها فى القوة المعنوية .

لقد أتى على العالم الإسلامى حين من الدهر وهو مستخف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها ، ولا يحتفظ بالبقية منها ، ولا يغذيها ، حتى نضب معينها فى قلبه ، فلما خاض العالم الإسلامى فى المعارك التى تحتاج إلى الإيمان ، والصبر والثبات ، وتحمل الشدائد والنكبات ، وزلزل بعض الزلزال ، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة فى نفوس المسلمين ، كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، هنالك عرف أنه قد جنى على نفسه جناية عظيمة بإهمال هذه القوة الروحية وتضييعها ، وبحث فى جعبته فلم يجد شيئاً يسد مكانها ويغنى غناءها .

وخاض العالم الإسلامى فى معارك حاسمة ، وهو يرى أن المسلمين تقوم

قيامتهم ، وسوف يهرعون للدفاع عن الإسلام وحماية بلادهم المقدسة ، ويغضبون لله ورسوله وحرماته ، وإن الأقطار الإسلامية تشتعل ناراً وتتوقد حمية وحماسة ، فإذا الحادث لم يؤثر فى العالم الإسلامى التأثير المنتظر ، وإذا النظر ضئيل والسخط خافت ، وإذا العالم الإسلامى كعادته - فى عدواته وروحاته - منهمك فى لذاته وشهواته ، كأن لم يحدث كبير شىء ، فعرف أن الحمية الدينية قد ضعفت فى العالم الإسلامى ، وأن شعلة الجهاد قد انطفأت أو كادت وهنالك عرف الناس ضعف العالم الإسلامى وخذلانه وهوانه على أنفسهم .

فالمهم الأهم لقادة العالم الإسلامى ، وجمعياته وهيئاته الدينية وللدول الإسلامية غرس الإيمان فى قلوب المسلمين وإشعال العاطفة الدينية ، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله ، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى ، لا تدخر فى ذلك وسعاً ، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة ، وطرق النشر والتعليم كتجوال الدعاة فى القرى والمدن ، وتنظيم الخطب والدروس ، ونشر الكتب والمقالات ، ومدارسة كتب السيرة ، وأخبار الصحابة ، وكتب المغازى والفتوح الإسلامية ، وأخبار أبطال الإسلام وشهدائه، ومذاكرة أبواب الجهاد ، وفضائل الشهداء ، وتستخدم لذلك الراديو والصحافة وكتب الأدب ، وجميع القوى والوسائل العصرية .

والقرآن وسيرة محمد ﷺ قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا فى العالم الإسلامى نار الحماسة والإيمان ، وتحدثا فى كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلى ، وتجعلا من أمة مستسلمة ، متخاذلة ناعسة ، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقاً على الجاهلية وسخطاً على النظم الجائرة .

إن علة علل العالم الإسلامى اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد فى الحياة ، فلا يقلقه فساد ، ولا يزعجه انحراف ، ولا يهيجه منكر ، ولا يهمه غير مسائل الطعام واللباس ،ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية - إن وجدا إلى القلب سبيلاً - يحدث صراع بين الإيمان والنفاق ، واليقين والشك ، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة ، وبين راحة الجسم ونعيم القلب ، وبين حياة البطالة وموت الشهادة ، صراع أحدثه كل نبى فى وقته، ولا يصلح العالم إلا به ، حينئذ يقوم فى كل ناحية بلد إسلامى ﴿ **فتية آمنوا بربهم**

وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططاً﴾ (من آية١٣و١٤ : الكهف) .

هنالك تتجدد ذكرى بلال ، وعمار ، وخباب ، وحبيب ، وخبيب ، ومصعب بن عمير ، وعثمان بن مظعون ، وأنس بن النضر ، هنالك تفوح رائحة الجنة ، وتهب نفحات القرن الأول ، ويولد للإسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم في شيء ...

*** الاستعداد الصناعي والحربي :**

ولكن مهمة العالم الإسلامي لا تنتهي هنا ، فإذا أراد أن يضطلع برسالة الإسلام ويملك قيادة العالم فعليه بالمقدرة الفائقة ، والاستعداد التام في العلوم والصناعة والتجارة وفن الحرب ، و يستغني عن الغرب في كل مرفق من مرافق الحياة، وفي كل حاجة من الحاجات ، يقوت ويكسو نفسه ، ويصنع سلاحه ، وينظم شؤون حياته ، ويستخرج كنوز أرضه وينتفع بها ويدير حكوماته برجاله وماله، ويمخر بحار المحيط به بسفنه وأساطيله ، ويحارب العدو ببوارجه ودباباته وأسلحة بلاده ، وتزيد صادراته على وارداته ، ولا يحتاج إلى الاستدانة من الغرب ، ولا يضطر إلى أن يلجأ الى راية من راياته وينضم إلى معسكر من معسكراته .

أما ما دام العالم الإسلامي خاضعاً للغرب في العلم والسياسة والصناعة والتجارة ، يمتص الغرب دمه ، ويحفر أرضه فيستخرج منها ماء الحياة ، وتغزو بضائعه أسواق العالم الإسلامي وبيوته وجيوبه كل يوم فتستخرج منها كل شيء ، وما دام العالم الإسلامي يستدين من الغرب الأموال ، ويستعير منه الرجال ، ليديروا حكومته ، ويشغلوا الوظائف الخطيرة ويدربوا جيوشه ويستورد منه البضائع ويجلب منه الصنائع ، وينظر إليه كأستاذ ومرب ، وسيد ورب ، لا يبرم أمراً إلا بإذنه ولا يصدر إلا عن رأيه ، فلا يستطيع أبداً أن يواجه الغرب فضلاً عن أن يناهضه ويغالبه .

هذه هي الناحية العلمية والصناعية التي أخل بها العالم الإسلامي في الماضي فعوقب بالعبودية الطويلة والحياة الذليلة ، وابتلى العالم الإسلامي بالسيادة الأوربية الجائرة التي ساقت العالم إلى النار والدمار والتناحر والانتحار ، فإن فرط العالم الإسلامي مرة ثانية في الاستعداد العلمي والصناعي والاستقلال في شئون حياته كتب الشقاء للعالم وطالت محنة الإنسانية وبلاؤها .

*** تبوء الزعامة فى العلم والتحقيق :**

وقد تنازل العالم الإسلامى – بما فيه العالم العربى – منذ زمن طويل عن مكانته فى القيادة العلمية والتوجيه ، والاستقلال الفكرى ، وأصبح عيالاً على الغرب متطفلاً على مائدته حتى فى اللغة العربية وآداب اللغة وعلومها ، وحتى فى علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه ، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين فى البحث والتحقيق ، والدراسة والتأليف ، وهم المنتهى والمرجع والحجة فى الأحكام والآراء الإسلامية والنظريات العلمية والتاريخية ، وهم الأسوة فى النقض والإبرام ، وعدد كبير منهم قسوس وإرساليون ويهود ومسيحيون متعصبون ، يضمرون للإسلام وصاحب رسالته – ﷺ – العداء والبغضاء ، وللحضارة الإسلامية السخرية والاستهزاء ، ويخونون فى النصوص والنقول ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ومنهم عدد لم يتقن اللغة العربية ولم يبرع فيها ، وهم يخطئون فى فهم النصوص وترجمتها أخطاء فاحشة ، وقد تغلغلت أفكارهم ودعاياتهم فى الأوساط العلمية الحديثة فى العالم الإسلامى وتجلت بصورة واضحة فى الدعوة إلى فصل الدين عن السياسة ، وأن الدين قضية شخصية لا شأن له بالمجتمع ، وأن الدين عقيدة وعبادة وخلق لا شأن له بالسياسة والحكم ، وفى الدعوة إلى تغيير مفهوم الدين وأحكام الشريعة الإسلامية على أساس الحضارة الغربية وفلسفتها .. إلى غير ذلك من الأفكار التى يدعو إليها تلاميذ المستشرقين والخاضعون لهم فى الشرق الإسلامى .

وقد عجز كتاب الشرق المسلمون والمفكرون الشرقيون عن مواجهة الحضارة الغربية وجهاً لوجه ونقد أسسها وقيمها نقداً حراً جريئاً ، فيه الابتكار ، وفيه الاستقلال ، وقد بلغ بعضهم من ضعف التفكير ، والإغراق فى التقليد منزلة رأى فيها أن الحضارة الغربية هى آخر ما وصل إليه العقل البشرى وأنه لا منزلة وراءها ، ومنهم من دعا إلى تطبيق الحضارة الغربية برمتها ، وعلى علاتها فى الشرق ، ودعا بعض الأقطار الإسلامية العربية إلى اعتبار نفسها جزءاً لا يتجزأ من القارة الأوربية وإذابتها فيها واختيار الثقافة اليونانية التى هى أصل الثقافات الأوربية .

وندر فى هذه الطبقة وجود « عملاق » يكفر بالحضارة الغربية وفلسفة حياتها وقيمها ويشرح الحضارة الغربية وأسسها التى قامت عليها فى ثقة واعتداد وعلم وبصيرة . ونستثنى من هذه الكلية بعض الأفراد الأفذاذ كالعلامة « محمد إقبال » من

المسلمين القدامى ، والاستاذ « محمد أسد » من الأوربيين المهدين بالإسلام .

ولابد – إذا أراد العالم الإسلامى أن يقوم على قدميه ويفكر بعقله – أن يقاوم هذا الخضوع ويكون فيه علماء عماليق وكتاب جهابذة يتناولون الحضارة الغربية بالنقد والتشريح ، وكتابات المستشرقين وآراءهم بالجرح والتعديل . ويتبحرون فى العلوم الإسلامية ويتعمقون فيها حتى يفيد منهم كبار المستشرقين فى أوربا وأمريكا ويصححون بهم آراءهم وأخطاءهم ، ويتوجه رواد العلم والتحقيق والدراسات العالية إلى عواصم العالم العربى وحواضر العالم الإسلامى ، كما اعتادوا أن يتوجهوا إلى عواصم أوربا وأمريكا ، فهذه المدن الإسلامية أولى بأن تكون مركزاً للثقافة الإسلامية والعلوم الدينية وآداب اللغة العربية من العواصم الأوربية وجامعات أوربا ، ومن سقوط الهمة والقناعة بالدون أن تتخلى هذه العواصم العريقة فى العلم والدين عن زعامتها العلمية ومكانتها الرئيسية .

*** التنظيم العلمى الجديد :**

ولابد للعالم الإسلامى من تنظيم العلم الجديد بما يوافق روحه ورسالته . وقد ساد العالم الإسلامى على العالم القديم بزعامته العلمية ، فتسرب بذلك فى عقلية العالم وثقافته ، وتغلغل فى أحشاء الأدب والفلسفة ، وظل العالم المتمدن قروناً يفكر بعقله ويكتب بقلمه ويؤلف بلغته ، فكان المؤلفون فى إيران وتركستان وأفغانستان والهند لا يؤلفون كتاباً له شأن إلا باللغة العربية ، وكان بعضهم يؤلف الأصل بالعربية ويلخصه بالفارسية كما فعل الغزالى فى : « كيمياء السعادة » .

وإن كانت هذه الحركة العلمية التى ظهرت فى صدر الدولة العباسية متأثرة باليونان والعجم ، وغير مؤسسة على الفكر الإسلامى النقى والروح الإسلامى ، وإن كانت فيها مواضع ضعف من الناحية العلمية والدينية ، ولكنها سادت على العالم بقوتها ونشاطها ، واضمحلت أمامها النظم العلمية القديمة .

وجاءت نهضة أوربا فنسخت هذا النظام القديم باختباراتها ونقدها العلمى ، ووضعت منهاجاً للعلم والدراسة كان نسخة صادقة لروحها وعقليتها ونفسيتها المادية ، فلا يخرج منه الطالب إلا وهو متشبع بهذه الروح ، وخضع العالم مرة ثانية لهذا النظام التعليمى ، وخضع له العالم الإسلامى بطبيعة الحال – إذ كان مصاباً بالانحطاط العلمى والشلل الفكرى من زمان ، وكان لا يجد المدد والغوث إلا فى

أوربا – فقبل هذا النظام التعليمى على علاته ، فهو النظام السائد اليوم فى أنحاء العالم الإسلامى .

وكانت نتيجة هذا النظام الطبيعية ، صراعاً بين النفسية الإسلامية – إن كانت لا تزال فى الشباب لم تقتلها البيئة – وبين النفسية الجديدة ، وبين وجهة الأخلاق الإسلامية ووجهة الأخلاقية الأوربية ، وبين الميزان القديم والجديد للأشياء وقيمتها ، وكانت نتيجة هذا النظام حديث الشك والنفاق فى الطبقة المثقفة ، وقلة الصبر ونهامة الحياة وترجيح العاجل على الآجل ، إلى غير ذلك مما هو من طبائع المدنية الأوربية .

فإذا أراد العالم الإسلامى أن يستأنف حياته ، ويتحرر من رق غيره وإذا كان يطمح إلى القيادة ، فلابد إذن من الاستقلال التعليمى ، بل لابد من الزعامة العلمية وما هى بالأمر الهين ، إنها تحتاج إلى تفكير عميق ، وحركة التدوين والتأليف الواسعة ، وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر مع التشبع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه ، إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولى القوة ، إنما هى من شأن الحكومات الإسلامية ، فتنظم لذلك جمعيات ، وتختار لها أساتذة بارعين فى كل فن فيضعون منهاجاً تعليمياً يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التى لا تتبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار ، ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامى على أساس الإسلام وبروح الإسلام وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد ، مما ينظمون به حياتهم ويحافظون به على كيانهم ويستغنون به عن الغرب ويستعدون للحرب ، ويستخرجون به كنوز أرضهم وينتفعون بخيرات بلادهم ، وينظمون مالية البلاد الإسلامية ، ويديرون حكوماتها على تعاليم الإسلام بحيث يظهر فضل النظام الإسلامى فى إدارة البلاد ، وتنظيم الشئون المالية على النظم الأوربية ، وتنحل مشاكل اقتصادية عجزت أوربا عن حلها .

وبالاستعداد الروحى والاستعداد الصناعى والحربى والاستقلال التعليمى ينهض العالم الإسلامى ، ويؤدى رسالته وينقذ العالم من الانهيار الذى يهدده . فليست القيادة بالهزل ، إنما هى جد الجد ، فتحتاج إلى جد واجتهاد ، وكفاح وجهاد ، واستعداد أي استعداد :

كل امرئ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

الفصل الثانى
زعامة العالم العربي

*** أهمية العالم العربى :**

إن العالم العربى له أهمية كبيرة فى خريطة العالم السياسية ، وذلك لأنه وطن أمم لعبت أكبر دور فى التاريخ الإنسانى ، ولأنه يحتضن منابع الثروة والقوة الكبرى : الذهب الأسود الذى هو دم الجسم الصناعى والحربى اليوم ، ولأنه صلة بين أوربا وأمريكا ، وبين الشرق الأقصى ، ولأنه قلب العالم الإسلامى النابض يتجه إليه روحياً ودينياً ويدين بحبه وولائه ، ولأنه عسى - لا قدر الله - أن يكون ميدان الحرب الثالثة ، ولأن فيه الأيدى العاملة ، والعقول المفكرة ، والأجسام المقاتلة ، والأسواق التجارية ، والأراضى الزراعية ، ولأن فيها مصر ذات النيل السعيد بنتاجها ومحصولها وخصبها وثروتها ورقيها ومدنيتها ، وفيه سورية وفلسطين وجاراتها ، باعتدال مناخها وجمال إقليمها وأهميتها الاستراتيجية ، وبلاد الرافدين بشكيمة أهلها ومنابع البترول فيها ، والجزيرة العربية بمركزها الروحى وسلطانها الدينى ، واجتماع الحج السنوى الذى لا مثيل له فى العالم وآبار البترول الغزيرة . كل ذلك قد جعل العالم العربى محط أنظار الغربيين ، وملتقى مطامعهم وميدان تنافس لقيادتهم ، وكان رد فعله أن نشأ في العالم العربى شعور عميق بالقومية العربية ، وكثر التغنى « بالوطن العربى » و « المجد العربى » .

*** محمد رسول الله روح العالم العربى :**

ولكن المسلم ينظر إلى العالم العربى بغير العين التى ينظر بها الأوربى ، وبغير العين التى ينظر بها الوطنى العربى ، ، إنه ينظر إليه كمهد الإسلام ومشرق نوره ومعقل الإنسانية ، وموضع القيادة العالمية ، ويعتقد أن سيدنا محمداً العربى هو روح العالم العربى وأساسه وعنوان مجده ، وأن العالم العربى - بما فيه من موارد الثروة والقوة وبما فيه من خيرات وحسنات - جسم بلا روح، وخط بلا وضوح إذا انفصل - لا سمح الله بذلك- عن سيدنا رسول الله ﷺ وقطع صلته عن تعاليمه ودينه ، وأن سيدنا رسول الله ﷺ هو الذى أبرز العالم العربى للوجود ، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة ، وقبائل متناحرة ، وشعوباً مستعبدة ، ومواهب ضائعة ، وبلاداً تتسكع فى الجهل والضلالات ، فكان العرب لا يحلمون بمناجزة الدولة الرومية

والفارسية ولا يخطر ذلك منهم على بال ، ولا يصدقون بذلك إذا قيل لهم فى حال من الأحوال ، وكانت سورية التى تكون جزءاً مهماً من العالم العربى مستعمرة رومية تعانى الملكية المطلقة والحكم الجائر المستبد ، لا تعرف معنى الحرية والعدل ، وكان العراق مطية لشهوات الدولة الكيانية مثقلة بالضرائب المجحفة والإتاوات الفادحة ، وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقة حلوباً ركوباً ، يجزون صوفها ويظلمونها فى علفها ، ثم إنها تعانى الاضطهاد الدينى مع الاستبداد السياسى ، فما لبث هذا العالم المفكك المنحل ، المظلوم المضطهد ، أن هبت عليه نفحة من نفحات الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ،أدرك رسول الله من هذا العالم وهو ضائع هالك وأخذ بيده وهو ساقط متهالك ، فأحياه بإذن الله وجعل له نوراً يمشى به فى الناس ، وعلمه الكتاب والحكمة وزكاه ، فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام ، ورسول الأمن والسلام ، ورائد العلم والحكمة ، ومشعل الثقافة والحضارة . كان غوثاً للأمم ، غيثاً للعالم ، هنالك كانت الشام وكان العراق ، وكانت مصر ، وكان العالم العربى الذى نتحدث عنه ، فلولا محمد ﷺ ، ولولا رسالته ، ولولا ملته ، لما كانت سورية ، ولا كان العراق ، ولا كانت مصر ، ولا كان العالم العربى ، بل ولا كانت الدنيا كما هى الآن حضارة وعقلاً ، وديانة وخلقاً ، فمن استغنى عن دين الإسلام من شعوب العالم العربى وحكوماته ، وولى وجهه شطر الغرب أو أيام العرب الأولى ، أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب ودساتيره أو أسس حياته على العنصرية أو العروبة التى لا شأن لها بالإسلام ، ولم يرض برسول الله قائداً ورائداً وإماماً وقدوة ، فليرد على محمد بن عبدالله ﷺ نعمته ويرجع إلى جاهليته الأولى ، حيث الحكم الرومانى والإيرانى ، وحيث الاستعباد والاستبداد ، وحيث الظلم والاضطهاد ، وحيث الجهل والضلالة ، وحيث الغفلة والبطالة ، وحيث العزلة عن العالم ، والخمول والجمود ، فإن هذا التاريخ المجيد ، وهذه الحضارة الزاهية ، وهذا الأدب الزاخر ، وهذه الدول العربية ، ليست إلا حسنة من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام .

*** الايمان هو قوة العالم العربى :**

فالإسلام هو قومية العالم العربى ، ومحمد ﷺ هو روح العالم العربى وإمامه وقائده، والإيمان هو قوة العالم العربى التى حارب بها العالم البشرى كله فانتصرعليه،

وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس ، به يقهر أعداءه ، ويحفظ كيانه ويؤدى رسالته ، إن العالم العربى لا يستطيع أن يحارب الصهيونية أو الشيوعية أو عدواً آخر بالمال الذى ترضخه بريطانيا أو تتصدق به أمريكا ، أو تعطيه مقابل ما تأخذ من أرضه من الذهب الأسود ، إنما يحارب عدوه بالإيمان والقوة المعنوية ، وبالروح التى حارب بها الدولة الرومية والإمبراطورية الفارسية فى ساعة واحدة فانتصر عليهما جميعاً .
إنه لا يستطيع أن يحارب أعداءه بقلب يحب الحياة ويكره الموت ، وبجسم يميل إلى الدعة والراحة ، وعقل يخامره الشك وتتنازع فيه الأفكار والأهواء ، أو بيد مضطربة وقلب متشكك ضعيف الإيمان وقوة متخاذلة فى الميدان ، فالمهم لأمراء العرب وزعمائهم وقادة الجامعة العربية أن يغرسوا الإيمان فى الشعوب العربية ، وجماهير الأمة وأولياء الأمور ، والجيوش العربية والفلاحين والتجار ، وفى كل طبقة من طبقات الجمهور ، ويشعلوا فيها شعلة الجهاد فى سبيل الله ، والتوق إلى الجنة ، ويبعثوا فيها الاستهانة بالمظاهر الجوفاء وزخارف الدنيا ، ويعلموهم كيف يتغلبون على شهوات النفس ومألوفات الحياة ، وكيف يتحملون الشدائد فى سبيل الله ، وكيف يستقبلون الموت بثغر باسم ، وكيف يتهافتون عليه تهافت الفراش على النور.

*** تضحية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية :**

بعث رسول الله ﷺ وقد بلغت شقاوة الإنسانية غاية ما وراءها غاية ، وكانت قضية الإنسانية أعظم من أن يقوم لها أفراد متنعمون لا يتعرضون لخطر ولا لخسارة ولا محنة ، لهم النعيم الحاضر والغد المضمون ، إنما تحتاج هذه القضية إلى أناس يضحون بإمكانياتهم ومستقبلهم فى سبيل خدمة الإنسانية وأداء رسالتهم المقدسة ، ويعرضون نفوسهم وأموالهم ومعائشهم وحظوظهم من الدنيا للخطر والضياع ، وتجاراتهم وحرفهم ومكاسبهم للتلف والكساد ، ويخيبون آمال آبائهم وأصدقائهم فيهم ، حتى يقولوا للواحد منهم كما قال قوم صالح : ﴿ **قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا** ﴾ (من الآية ٦٢ : هود) .

إنه لا بقاء للإنسانية ولا قيام لدعوة كريمة بغير هؤلاء المجاهدين ، وبشقاء هذه الحفنة من البشر فى الدنيا – كما يعتقد كثير من معاصريهم – تنعم الإنسانية وتسعد الأمم ، ويتحول تيار العالم من الشر إلى الخير ، ومن السعادة أن يشقى أفراد وتنعم أمم وتضيع أموال وتكسد تجارات لبعض الأفراد،وتنمو نفوس وأرواح لا يحصيها إلا الله

من عذاب الله ومن نار جهنم .

علم الله عند بعثه الرسول ﷺ أن الروم والفرس والأمم المتحضرة المتصرفة بزمام العالم المتمدن لا تستطيع بحكم حياتها المصطنعة المترفة أن تتعرض للخطر وتتحمل المتاعب والمصاعب فى سبيل الدعوة والجهاد وخدمة الإنسانية البائسة ، ولا تستطيع أن تضحى بشيء من دقائق مدنيتها فى الملبس والمأكل وأن تتنزل عن حظوظها ولذاتها وزخارفها فضلاً عن حاجاتها ، وأنه لا يوجد فيها أفراد يقوون على قهر شهواتهم ، والحد من طموحهم ، والزهد فى فضول الحياة ومطامع الدنيا ، والقناعة بالكفاف ، فاختار لرسالة الإسلام وصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام أمة تضطلع بأعباء الدعوة والجهاد وتقوى على التضحية والإيثار ، تلك هى الأمة العربية القوية السليمة التى لم تبتلعها المدنية ولم ينخرها البذخ والترف وأولئك أصحاب محمد ﷺ أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً .

قام الرسول بهذه الدعوة العظيمة فأدى حقوقها : من الجهاد فى سبيلها وإيثارها على كل ما يقف فى وجهها ، والعزوف عن الشهوات ومطامع الدنيا فكان فى ذلك أسوة وإماماً للعالم كله ، وفد قريش عرض عليه كل ما يغرى الشباب ويرضى الطامحين من رئاسة وشرف ومال عظيم وزواج كريم، فرفض كل ذلك فى صرامة وصراحة ، وكلمه عمه وحاول أن يحد من نشاطه فى سبيل الدعوة فقال : «يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ثم كان أسوة للناس في عصره وبعد عصره بقيامه بأكبر قسط من الجهاد والإيثار ، والزهد وشظف العيش وأقل قسط من العيش وأسباب الحياة ، فقد أوصد على نفسه الأبواب وسد فى وجهه الطرق وتعدى ذلك إلى أسرته وأهل بيته والمتصلين به ، فكان أكثر الناس اتصالاً به وأقربهم إليه أقلهم حظا فى الحياة ، وأعظمهم نصيبا في الجهاد والإيثار ، فإذا أراد أن يحرم شيئاً بدأ ذلك بعشيرته وبيته ، وإذا سن حقاً أو فتح باباً لمنفعة قدم الآخرين وربما حرمه على عشيرته الأقربين . أراد أن يحرم الربا فبدأ بربا عمه عباس بن عبدالمطلب فوضعه كله وأراد أن يهدر دماء الجاهلية فبدأ بدم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب فأبطله ، وسن الزكاة وهى منفعة مالية عظيمة مستمرة إلى يوم القيامة فحرمها على عشيرته بنى هاشم إلى آخر الأبد ، وكلمه على بن أبى طالب يوم الفتح أن يجمع لبنى هاشم

الحجابة مع السقاية فأبى وطلب عثمان بن طلحة وناوله مفتاح الكعبة وقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء ، وقال خذوها خالدة تالدة فيكم لا ينزعها منكم إلا ظالم ، وحمل أزواجه على الزهد والقناعة وشظف العيش وخيرهن بين عشرته مع الفقر وضيق العيش ، ومفارقته مع السعة والرخاء وتلا عليهن قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾ فاخترن الله والرسول ، وتأتيه فاطمة تشكو إليه ما تلقى فى يدها من الرحى وبلغها أنه جاءه رقيق فيوصيها بالتسبيح والتحميد والتكبير ويقول لها إنه خير لها من خادم .. وهكذا كان شأنه مع أهل بيته والمتصلين به فالأقرب ثم الأقرب .

وآمن به رجال من قريش فى مكة فاضطربت حياتهم الاقتصادية اضطراباً عظيماً ، وكسدت تجاراتهم وحرم بعضهم رأس ماله الذى جمعه في حياته ، وحرم بعضهم أسباب الترف والرخاء وأناقة اللباس التى كان فيها مضرب المثل ، وكسدت تجارة بعضهم لاشتغاله بالدعوة وانصراف الزبائن عنه وحرم بعضهم نصيبه فى ثروة أبيه .

ثم لما هاجر الرسول إلى المدينة وتبعه الأنصار تأثرت بذلك بساتينهم ومزارعهم فلما أرادوا أن يقبلوا عليها بعض الوقت ويصلحوها لم يسمح لهم بذلك وأنذرهم الله به فقال : ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ .

وهكذا كان شأن العرب والذين احتضنوا هذه الدعوة منهم فقد كان نصيبهم من متاعب الجهاد وخسائر النفوس والأموال أعظم من نصيب أى أمة فى العالم وقد خاطبهم الله بقوله : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ وقال : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم من نفسه ﴾ لأن سعادة البشرية إنما كانت تتوقف على ما يقدمونه من تضحية وإيثار ما يتحملون من خسائر ونكبات فقال ك ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس

والثمرات ﴾ وقال: ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟﴾[1] وكان إحجام العرب عن هذه المكرمة وترددهم فى ذلك امتداداً لشقاء الإنسانية واستمراراً للأوضاع السيئة فى العالم فقال : ﴿إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير﴾ [2].

وقد وقف العالم فى القرن السادس المسيحى على مفترق الطرق أما أن يتقدم العرب ويعرضوا نفوسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما يعز عليهم للخطر ويزهدوا فى مطامع الدنيا ويضحوا فى سبيل المصلحة الاجتماعية بأنانيتهم فيسعد العالم وتستقيم البشرية وتقوم سوق الجنة وتروج بضاعة الإيمان ، وإما أن يؤثروا شهواتهم ومطامعهم وحظوظهم الفردية على سعادة البشرية وصلاح العالم فيبقى العالم فى حمأ الضلالة والشقاء إلى ما شاء الله ، وقد أراد الله بالإنسانية خيراً وتشجع العرب – بما نفخ فيهم محمد ﷺ من روح الإيمان والإيثار وحبب اليهم الدار الآخرة وثوابها – فقدموا أنفسهم فداء للإنسانية كلها وزهدوا فى مطامع الدنيا طمعاً فى ثواب الله وسعادة النوع الإنسانى وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وضحوا بكل ما يحرص عليه الناس من مطامع وشهوات وآمال وأحلام وأخلصوا لله العمل والجهاد فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين .

وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الرسول ووقف العالم على مفترق الطرق مرة ثانية إما أن يتقدم العرب – وهم أمة الرسول وعشيرته – إلى الميدان ويغامروا بنفوسهم وإمكانياتهم ومطامحهم ويخاطروا فيما هم فيه من رخاء وثراء ودنيا واسعة وفرص متاحة للعيش وأسباب ميسورة فينهض العالم من عثاره وتتبدل الأرض غير الأرض ، وإما أن يستمروا فيما هم فيه من طمع وطموح وتنافس في الوظائف والمرتبات فى كثرة الدخل والإيراد وزيادة غلة الأملاك وربح التجارات والحصول على أسباب الترف والتنعم فيبقى العالم فى هذا المستنقع الذى يتردى فيه منذ قرون .

إن العالم لا يسعد وخيرة الشباب فى العواصم العربية عاكفون على شهواتهم تدور حياتهم حول المادة والمعدة لا يفكرون فى غيرهما ولا يترفعون عن الجهاد فى سبيلهما ولقدكان شباب بعض الأمم الجاهلية الذين ضحوا بمستقبلهم فى سبيل المبادئ التى اعتنقوها أكبر منهم نفساً ، وأوسع منهم فكراً ، بل كان الشاعر الجاهلى « امرؤ القيس » أعلى منهم همة ، إذ قال :

(١) آية٢ : العنكبوت . (٢) آية ٧٣ : الأنفال .

ولو ان ما أسعى لأدنى معيشة

كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل

وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

إن العالم لا يمكن أن يصل إلى السعادة إلا على قنطرة من جهاد ومتاعب يقدمها الشباب المسلم . إن الأرض لفى حاجة إلى سماد ، وسماد أرض البشرية الذى تصلح به وتنبت زرع الإسلام الكريم هى الشهوات والمطامع الفردية التى يضحى بها الشباب العربى فى سبيل علو الإسلام وبسط الأمن والسلام على العالم وانتقال الناس من الطريق المؤدية إلى جهنم إلى الطريق المؤدية إلى الجنة .

إنه لثمن قليل جداً لسلعة غالية جداً .

*** العناية بالفروسية والحياة العسكرية :**

من الحقائق المؤلمة أن الشعوب العربية قد فقدت كثيراً من خصائصها العسكرية ، ورزئت فى فروسيتها التى كانت معروفة بها فى العالم ، فكانت رزيئة كبيرة وخسارة فادحة ، وكانت سبباً من أسباب ضعفها وعجزها فى ميدان الجهاد، فقد اضمحلت الروح العسكرية ، وضعفت الأجسام ونشأ الناس على التنعم ، وقد حلت السيارات محل الجياد حتى كادت الخيل العربية تنقرض من الجزيرة العربية ، وهجر الناس المصارعة والمناضلة وسباق الخيل وأنواع الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية ، واستبدلوا بها ألعاباً لا تفيدهم شيئاً ، فالمهم لرجال التعليم والتربية قادة الشعوب العربية أن يربوا الشبيبة العربية على الفروسية والحياة العسكرية ، وعلى البساطة فى المعيشة وخشونة العيش والجلادة وتحمل المشاق والمتاعب والصبر على المكروه ! .

وقد كتب المربى الكبير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى بعض عماله العرب وهم فى بلاد العجم : « إياكم والتنعم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حمام

العرب ، وتمعددوا [١] ، واخشوشنوا [٢] ، واخشوشبوا [٣] ، واخلولقوا [٤] ، وأعطوا الركب أسنتها و انزوا نزوا ، وارموا الأغراض [٥] » .

وقد قال النبي ﷺ : « ارموا بني إسماعيل فإن آباكم كان رامياً [٦] » ، وقال : «ألا ان القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى [٧] ».

ومن واجب رجال التربية وولاة الأمر أن يحاربوا بكل قوتهم ما يضعف روح الرجولة والجلادة ويبعث على التخنث والعجز ، من عادات وأدب وصحافة وتعليم ، ويأخذوا على يد الصحافة الماجنة والأدب الخليع الملحد ، الذى ينشر في الشباب النفاق والدعارة والفسوق ، وعبادة اللذة والشهوات ، ولا يسمحوا لهؤلاء التجار الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا أن يدخلوا فى معسكر محمد ﷺ الذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، ويفسدوا على الناشئة الإسلامية قلبها وأخلاقها ، ويزينوا لها الفسوق والعصيان و حب الفحشاء بثمن بخس دراهم معدودة ، وقد شهد التاريخ بأن كل أمة أصيب رجالها فى رجولتهم وغيرتهم ، ونساؤها فى أنوثتهن وأمومتهن ، طغى فيهن التبرج ، ومزاحمة الرجل فى كل شىء ، والزهد فى الحياة المنزلية ، وحبب إليهن العقم ، أفل نجمها و كسفت شمسها ، فأصبحت أثراً بعد عين.

هذه كنت عاقبة اليونان والرومان والفرس ، وإن أوربا لفى طريقها إلى هذه العاقبة ، فليحذر العالم العربى من هذا المصير الهائل .

---

(١) تمعدد الغلام : شب وغلظ ، وقيل معناه : تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف .

(٢) اخشوشن : تخشن في المطعم والملبس .

(٣) اخشوشب : صار صلبا كالخشب فى أحواله وصبره على الجهد .

(٤) تبذلوا في الملابس .

(٥)رواه البغوى عن أبي عثمان النهدى .

(٦) رواه البخارى .

(٧) رواه مسلم .

*** محاربة التبذير والفرق الهائل بين الغنى والصعلوك :**

وقد اعتاد العرب لأسباب كثيرة وبتأثير الحضارة الغربية حياة الترف والدعة والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة والإسراف والتبذير ، والاستهانة بمال الله فى سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة .

وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة البذخ والتبذير ، جوع وعرى وفقر فاضح يرى الناظر مناظره الشائنة فى عواصم البلاد العربية فتدمع العين ويحزن القلب وينتكس الرأس حياء وخجلاً ، فبينا هنالك رجل عنده فضول الثياب وزائد الطعام والشراب لا يعرف كيف يستهلكه ، إذ ببدوى لا يجد قوت يومه وكسوة جسمه ، وبينما أمراء العرب وأغنياؤهم على سيارات تبارى الريح وتثير النقع ، إذا بفوج من النساء والأطفال عليه ثياب سوداء قد أصبحت خيوطاً من طول اللبس يعدو لأجل فلس أو قرص ، فما دامت المدن العربية تجمع بين القصور الشامخة والسيارات الفاخرة ، وبين الأكواخ الحقيرة والبيوت المتداعية الضيقة المظلمة ، وما دامت التخمة والجوع يزخران في مدينة واحدة ، فالباب مفتوح على مصراعيه للشيوعية والثورات والاضطراب والقلق لا تقفها دعاية ولا قوة ، وإذا لم يسد النظام الإسلامى فى بلاده بجماله واعتداله يحل محله نظام جائر بعسفه وقهره عقاباً من الله كرد فعل عنيف .

*** التخلص من أنواع الأثرة :**

لقد أتى على العالم العربى عهد في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد – وهو شخص الخليفة أو الملك – أو حول حفنة من الرجال – هم الوزراء وأبناء الملك – وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصياً لذلك الفرد السعيد والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد ، ويتحكم في أموالهم وأملاكهم ونفوسهم وأعراضهم ، ولم تكن الأمة التى كان يحكم عليها إلا ظلاً لشخصه، ولم تكن حياتها إلا امتداداً لحياته .

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها وشعرها وإنتاجها ، فإذا استعرض أحد تاريخ هذا العهد أو أدب تلك الفترة من الزمان ، وجد هذه الشخصية تسيطر على الأمة أو المجتمع ، كما تسيطر شجرة باسقة على الحشائش والشجيرات التى تنبت فى ظلها وتمنعها من الشمس والهواء ، كذلك تضمحل هذه الأمة في شخص هذا الفرد وتذوب فيه وتصبح أمة هزيلة لا شخصية

لها ولا إرادة ، ولا حرية لها ولا كرامة .

وكان هذا الفرد هو الذى تدور لأجله عجلة الحياة ، فلأجله يتعب الفلاح ويشتغل التاجر ويجتهد الصانع ويؤلف المؤلف وينظم الشاعر ، ولأجله تلد الأمهات وفى سبيله يموت الرجال وتقاتل الجيوش ، وبل ولأجله تلفظ الأرض خزائنها ويقذف البحر نفائسه وتستخرج كنوز الأرض خيراتها .

وكانت الأمة – وهى صاحبة الإنتاج وصاحبة الفضل فى هذه الرفاهية كلها – تعيش عيش الصعاليك ، أو الأرقاء المماليك ، وقد تسعد بفتات مائدة الملك وبما يفضل عن حاشيته فتشكر وقد تحرم ذلك أيضاً فتصبر ، وقد تموت فيها الإنسانية فلا تنكر شيئاً بل تتسابق فى التزلف وانتهاز الفرص .

هذا هو العهد الذى ازدهر فى الشرق طويلاً وترك رواسب فى حياة هذه الأمة ونفوسها وفى أدبها وشعرها ، وأخلاقها واجتماعاتها ، وخلف آثاراً باقية فى المكتبة العربية ، ومن هذه الآثار الناطقة كتاب « ألف ليلة وليلة » الذى يصور ذلك العهد تصويراً بارعاً ، يوم كان الخليفة فى بغداد أو الملك فى دمشق أو القاهرة ، هو كل شىء وبطل رواية الحياة ومركز الدائرة ، إن هذا العهد الذى يمثله كتاب « ألف ليلة وليلة » بأساطيره وقصصه ، وكتاب الأغانى بتاريخه وأدبه ، لم يكن عهداً إسلامياً ، ولا عهداً طبيعياً معقولاً ، فلا يرضاه الإسلام ولا يقره العقل ، بل إنما جاء الإسلام بهدمه والقضاء عليه ، فقد كان هذا هو العهد الذى بعث فيه محمد ﷺ فسماه الجاهلية ونعى عليه وأنكر على ملوكه – ككسرى وقيصر – وعلى أثرتهم وترفهم أشد الإنكار .

إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار فى أى مكان وفى أى زمان ولا سبيل إليه إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مصابة فى عقلها أو فاقدة الوعى والشعور أو ميتة النفس والروح .

إن هذا الوضع لا يقره عقل ، ومن الذى يسوغ أن يتخم فرد أو بضعة أفراد بأنواع الطعام والشراب ويموت آلاف جوعاً ومسغبة ، ومن الذي يسوغ أن يعبث ملك او ابناء ملك بالمال عبث المجانين ، والناس لا يجدون من القوت ما يقيم صلبهم ومن الكسوة ما يستر جسمهم ، ومن الذى يسوغ أن يكون حظ طبقة – وهى الكثرة – الإنتاج وحده والكدح فى الحياة والعمل المضنى الذى لا نهاية له ، وحظ

طبقة – وهى لا تجاوز عدد الأصابع – إلا التلهى بثمرات تعب الطبقة الأولى من غير شكر وتقدير وفى غير عقل ووعى ، ومن الذى يسوغ أن يشقى أهل الصناعة وأهل الذكاء وأهل الاجتهاد وأهل المواهب وأهل الصلاح ، وينعم رجال لا يحسنون غير التبذير ولا يعرفون صناعة غير صناعة الفجور وشرب الخمور ؟ ومن الذى يسوغ أن تُجفى أهل الكفاية وأهل النبوغ وأهل الأمانة ويقصوا كالمنبوذين ويجتمع حول ملك أو أمير فوج من خساس النفوس وسخفاء العقول وفاقدى الضمائر ممن لا هم لهم إلا ابتزاز الأموال وإرضاء الشهوات ، ولا يحسنون فنًا من فنون الدنيا غير التملق والإطراء والمؤامرة ضد الأبرياء ، ولا يتصفون بشيء غير فقدان الشعور وقلة الحياء .

إنه وضع شاذ لا ينبغى أا يبقى يوماً فضلاً عن أن يبقى أعواماً .

إنه إن سبق في عهد من عهود التاريخ وبقى مدة طويلة فقد كان ذلك على غفلة من الأمة أو على الرغم منها ، وبسبب ضعف الإسلام وقوة الجاهلية و لكنه خليق بأن ينهار ويتداعى كلما أشرقت شمس الإسلام واستيقظ الوعى وهبت الأمة تحاسب نفسها وأفرادها .

فالذين لا يزالوان يعيشون فى عالم « ألف ليلة وليلة » إنما يعيشون في عالم الأحلام ، إنما يعيشون فى بيت أوهن من بيت العنكبوت ، إنما يعيشون فى بيت مهدد بالأخطار لا يدرون متى يكبس ، ولا يدرون متى تعمل فيه معاول الهدم ، وإن سلموا من كل هذا فلا يدرون متى يخر عليهم السقف من فوقهم فإنه بيت قائم على غير أساس متين وعلى غير دعائم قوية .

ألا إن عهد ألف ليلة وليلة قد مضى فلا يخدعن أقوام أنفسهم ولا يربطوا نفوسهم بعجلة قد تكسرت وتحطمت ، إن الملوكية مصباح – إن جاز هذا التعبير – قد نفد زيته واحترقت فتيلته ، فهو إلى انطفاء عاجل ولو لم تهب عاصفة .

أنه لا محل فى الإسلام لأى نوع من أنواع الأثرة ، إنه لا محل فيه للأثرة الفردية أو العائلية التى نراها فى بعض الأمم الشرقية والأقطار الإسلامية ولا محل فيه للأثرة المنظمة التى نراها فى أوربا وأمريكا وفى روسيا ، فهى فى أوربا أثرة حزب من الأحزاب ، وفى أمريكا أثرة الرأسماليين ، وفى روسيا قلة آمنت بالشيوعية المتطرفة وفرضت نفسها على الكثرة وهى تعامل العمال والمعتقلين بقسوة نادرة ووحشية ربما

لا يوجد لها نظير في تاريخ السخرة الظالمة (١)

إن الأثرة بجيمع أنواعها ستنتهى وإن الإنسانية ستثور عليها وتنتقم منها انتقاماً شديداً ، إنه لا مستقبل في العالم إلا للإسلام السمح العادل الوسط وإن طال أجل هذه « الأثرات » وأرخى لها العنان وتمادت في غيها وطغيانها مدة من الزمان .

إن الأثرة – فردية كانت أو عائلية أو حزبية أو طبقية – غير طبيعية فى حياة الأمة وإنها تتخلص منها فى أول فرصة ، إنه لا محل لها فى الإسلام ولا محل لها فى مجتمع واع بلغ الرشد ولا أمل فى استمرارها ، فخير للمسلمين وخير للعرب وخير لقادتهم وولاة أمورهم أن يخلصوا أنفسهم منها ويقطعوا صلتهم بها قبل أن تغرق فيغرقوا معها .

*** إيجاد الوعى فى الأمة :**

إن أخوف ما يخاف على أمة ويعرضها لكل خطر ويجعلها فريسة للمنافقين ولعبة للعابثين هو فقدان الوعى فى هذه الأمة ، وافتتانها بكل دعوة واندفاعها الى كل موجة وخضوعها لكل متسلط وسكونها على كل فظيعة وتحملها لكل ضيم ، وأن لا تعقل الأمور ولا تضعها فى مواضعها ولا تميز بين الصديق والعدو وبين الناصح والغاش وأن تلدغ من جحر مرة بعد مرة ولا تنصحها الحوادث ، ولا تروعها التجارب ، ولا تنتفع بالكوارث ، ولا تزال تولى قيادها من جربت عليه الغش والخديعة والخيانة والأثرة والأنانية ، ولا تزال تضع ثقتها فيه وتمكنه من نفسها وأموالها وإعراضها ومفاتيح ملكها وتنسى سريعاً ما لاقت على يده الخسائر والنكبات فيجترئ بذلك السياسيون المحترفون ، والقادة الخائنون ويأمنون سخط الأمة ومحاسبتها ويتمادون فى غيهم ويسترسلون فى خياناتهم وعبثهم ثقة ببلاهة الأمة وسذاجة الشعب وفقدان الوعى .

---

(١) اقرأ فى ذلك كتاب : Forced Labour in Russia
لمؤلفه : Professor Ernest Tallgren

إن الشـعوب الإسلامـية والبلاد العربيـة – مع الأسف – ضعيفـة الوعى ، إذا تحـرجنا آن نقـول : فـاقـدة الوعى – فـهى لا تعـرف صـديقـهـا من عـدوها ولا تزال تعاملهـما مـعاملة سواء أو تعـامل العدو أحـسن مما تعامل الصديق النـاصح وقد يكون الصديق فى تعب وجهاد معها طول حـياته بخلاف العدو ، ولا تزال تلدغ من جحر واحد ألف مرة ولا تعتبر بالحوادث والتجارب ، وهي ضعيفة الذاكرة سريعة النسيان تنسى ماضى الزعـماء والقادة ، وتنسى الحـوادث القريبة والبعيدة ، وهى ضعيـفة فى الوعى الدينى والوعى الاجتماعى وأضعف في الوعى السـياسى ، وذلك ما جر عليها ويلاً عظيماً وشقاء كبيراً وسلط عليها القيادة الزائفة وفضحها فى كل معركة .

إن الأمم الأوربية – برغم إفلاسـها فى الروح والأخلاق وبرغم عيوبهـا الكثيرة التى بحثنا عنها فى هذا الكتاب – قوية الوعى – الوعى المدنى والسياسى – قد بلغت سن الرشـد فى السـياسة ، وأصبـحت تعرف نفـعهـا من ضررها ، وتميـز بين الناصح والخادع ، وبين المخلص والمنافق ، وبين الـكفؤ والعاجز ، فـلا تولى قيادها إلا الأكـفاء الأقوياء الأمناء ، ثم لا توليهم أمورها إلا على حذر ، فـاذا رأت منهم عجزاً أو خيانة أو رأت أنهم مثلوا دورهم وانتهوا من أمرهم استغنت عنهم وأبدلت بهم رجالاً أقوى منهم وأعظم كفـاءة وأجدر بالموقف ، ولم يمنعهـا من إقالتهم أو إقـصائهم من الحكم مـاضيـهم الرائع وأعمـالهم الجليلة وانتـصارهم فـى حرب ، او نجـاحهم فى قـضيـة ، وبذلك أمنت السياسيين المحترفين ،والقيادة الضـعيفة أو الخائنة ، وخوف ذلك الزعماء ورجال الحكم وكـانوا حذرين سـاهرين يخافـون رقابة الأمـة وعقابهـا وبطش الرأى العام .

فـمن أعظم مـا تـخـدم به هذه الأمـة وتؤمن من المهـازل والمآسـي التى لا تكاد تنتهى هو إيجـاد الوعى فى طبقاتها ودهمـائها وتربية الجمـاهير التربية العقلـية والمدنية والسـياسية ، ولا يخـفى أن الوعى غيـر فشـو التعليم وزوال الأمـية وإن كـانت هذه الأخيرة من أنجح وسـائلهـا ،وليعرف الزعماء السياسيـون والقادة أن الأمة التى يعوزها الوعى غير جديرة بالثقة ولا تبعث حالـتها على الارتياح وإن أطرت الزعامة والزعماء وقدسـتهم فإنهـا – ما دامت ضـعيفـة الوعى – عرضة لكل دعـاية وتهريج وسـخرية كريشة فى فلاة تلعب بها الرياح ولا تستقر في مكان .

*** استقلال البلاد العربية في تجارتها وماليتها :**

وكذلك لابد للعالم العربى - كالعالم الإسلامى - من الاستقلال فى تجارته وماليته وصناعته وتعليمه ، لا تلبس شعوبه وجماهيره إلا ما تنبته أرضه وتنسجه يده ، وتستغنى عن الغرب في جميع شئون حياتها ، وفى كل ما تحتاج إليه من كسوة وطعام ، وبضائع و مصنوعات ، وأسلحة وجهاز حربى ، وآلات وماكينات ، وأدوية فلا تكون كلاً على الغرب وعيالاً عليه فى معيشتها ومتطفلة على مائدته .

إن العالم العربى لا يستطيع أن يحارب الغرب - إذا احتاج إلى ذلك ودعت إليه الظروف - وهو مدين له في ماله ، عيال عليه فى لباسه وبضائعه ، لا يجد قلماً يوقع به على ميثاق مع الغرب إلا القلم الذى صنع فى الغرب ، ولا يجد ما يقاتل به الغرب ، إلا الرصاص الذى أفرغ فى الغرب ، إن عاراً على الأمة العربية أن تعجز عن الانتفاع بمنابع ثروتها وقوتها ، وأن يجرى ماء الحياة فى عروقها وشرايينها إلى أجسام غيرها وأن يدرب جيوشها وكلاء الغرب وضباطه ، ويدير بعض مصالح حكومتها رجاله ، فلابد للعالم العربى ان يقوم هو نفسه بحاجاته : تنظيم التجارة والمالية ، وحركة التوريد والتصدير والصناعة الوطنية ، وتدرب الجيش ، وصنع الآلات والماكينات وتربية الرجال الذين يضطلعون بجميع مهمات الدولة ووظائف الحكومة فى خبرة ومهارة فنية ، وأمانة ونصيحة .

*** تقدم مصر في ميدان التجارة والصناعة والعلم :**

ولابد هنا من الاعتراف بأن مصر قد أثبتت كفايتها واستعدادها الكبير فى ميدان العلم والصناعة ، وتربية الرجال ، ونشر الثقافة ، ونقل العلوم العصرية الى اللغة العربية ، وبواسطتها إلى الأمة العربية ، وعنايتها بالصناعة الوطنية ، وتنظيم شئون دولتها وماليتها على أساس العلم العصرى ، أما فضلها على اللغة العربية وإحياؤها للكتب العربية ، وتقدم الصحافة والطباعة وحركة النشر فيها فمن المآثر والمفاخر التى سيسجلها التاريخ ، ويردد صداها المستقبل ، ويدين بفضلها العرب جميعاً .

*** رجاء العالم الإسلامي من العالم العربي :**

والعالم العربى بمواهبه وخصائصه وحسن موقعه الجغرافى وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام ، ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامى، ويزاحم أوربا بعد الاستعداد الكامل ، وينتصر عليها بإيمانه وقوة رسالته ونصر من الله

ويحول العالم من الشر إلى الخير ومن النار والدمار إلى الهدوء والسلام .

*** إلى قمة القبلة العالمية :**

ما أعظم التطور الذى حدث فى تاريخ العرب على إثر بعثة محمد ﷺ ونادت به سورة الإسراء وقصة المعراج فى لغة صريحة بليغة وفى أسلوب مبين مشرق (١) وما أعظم النعمة التى أسبغها الله على العرب . نقلهم من جزيرتهم التى يتناحرون فيها إلى العالم الفسيح الذى يقودونه بناصيته ، ومن الحياة القبلية المحدودة التى ضاقوا بها إلى الإنسانية الواسعة التى يشرفون عليها ويوجهونها ، وأصبحوا بفضل هذا التطور العظيم الذى فاجأ العرب وفاجأ العالم يقولون بكل وضوح وشجاعة لإمبراطور المملكة الفارسية العظيمة وأركان دولته : « الله ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

نعم لقد خرجوا من ضيق الدنيا أولاً إلى سعتها ثم أخرجوا الأمم من ضيق الدنيا إلى سعتها آخراً ، وهل أضيق من الحياة القبلية والجنسية ، وأوسع من الحياة الإنسانية الآفاق ؟ وهل أضيق من الحياة التى لا يفكر فيها إلا فى المادة الزائلة والحياة الفانية ولا يجاهد إلا فى سبيلها من الحياة الإيمانية الروحانية التى لا نهاية لها ولا تحديد . ! ؟

لقد خرجوا من ضيق جزيرة العرب ، ومن ضيق الحياة فيها ، ومن ضيق التفكير فى مسائلها ومصالحها و من ضيق التناحر على سيادتها ، ومن ضيق التكالب على حطامها القليل وملكها الضئيل وعيشها الذليل ، إلى عالم جديد من السيادة الروحية والخلقية والعلمية والسياسية ، ليس الدانوب الفائض والنيل السعيد والفرات العذب والسند الطويل إلا سواقى حقيرة وترعا صغيرة فيه ، وليست جبال الألب والبرانس وعقاب لبنان وقمم همالايا إلا تلالا متواضعة وسدوداً صغيرة ، وليست

---

(١) تضم سورة الإسراء وقصة المعراج إعلانات بأن محمداً ﷺ هو نبى القبلتين وإمام المشرقين والمغربين ووارث الأنبياء قبله وإمام الأجيال بعده .

البلاد الواسعة كالهند والصين وتركستان إلا أحياء ضيقة وحارات صغيرة ، ونقطاً مغمورة فى هذا العالم ، وليست هذه الأرض كلها إذا نظر إليها من ارتقى إلى قمة هذه السيادة – إلا خريطة صغيرة ملونة يراها الطائر المحلق في السماء ، وليست الأمم الكبيرة – مع ثقافتها وحضاراتها وآدابها – إلا أسراً صغيرة فى أمة كبيرة .

لقد قام العالم الكبير على أساس العقيدة الواحدة ، والإيمان العميق والصلة الروحية القوية ، وكان أوسع عالم عرفه التاريخ ، وكانت الشعوب التى تكون هذا العالم أقوى أسرة عرفها التاريخ .تنصهر فيها الثقافات المختلفة ،والعبقريات المختلفة ، فتكون منها ثقافة واحدة هى الثقافة الإسلامية ، التى لم تزل تظهر فى نوابغ الإسلام الذين لا يحصيهم عدد وفى المآثر الإسلامية – بين علمية وعملية – التى لا يستقصيها التاريخ .

لقد كانت – ولا تزال – قيادة هذا العالم بجدارة واستحقاق أشرف قيادة وأعظمها وأقواها فى تاريخ الزعامة والقيادة وقد أكرم الله بها العرب لما اخلصوا لهذه الدعوة الإسلامية وتفانوا فى سبيلها ، فأحبهم الناس فى العالم حباً لم يعرف له نظير ، وقلدوهم فى كل شيء تقليداً لم يعرف له نظير ، وخضعت للغتهم اللغات ، ولثقافتهم الثقافات ، ولحضارتهم الحضارات ، فكانت لغتهم هى لغة العلم والتأليف فى العالم المتمدن من أقصاه إلى أقصاه ، وهى اللغة المقدسة الحبيبة التى يؤثرها الناس على لغاتهم التى نشأوا عليها ، ويؤلفون فيها أعظم مؤلفاتهم وأحب مؤلفاتهم ، ويتقنونها كأبنائها وأحسن ، وينبغ فيها أدباء ومؤلفون يخضع لهم المثقفون فى العالم العربى ، ويقر بفضلهم وإمامتهم أدباء العرب ونقادهم .

وكانت حضارتهم هى الحضارة المثلى التى يتمجد الناس ويتظرفون بتقليدها ، ويحث علماء الدين على تفضيلها على الحضارات الأخرى ويطلقون على كل ما يخالفها من الحضارات – اسم « الجاهلية » و « العجمية » و ينهون عن اتخاذ شعائرها ومظاهرها

وبقيت هذه القيادة الشاملة الكاملة مدة طويلة والناس لا يفكرون فى ثورة عليها ، وفى التخلص منها ، كما هى عادة المفتوحين والأمم المغلوبة على أمرها فى كل عهد ، لأن صلتهم بهذه القيادة ليست صلة المفتوح بالفاتح أو المحكوم بالحاكم أو الرقيق بالسيد القاهر ، إنما هى صلة المتدين بالمتدين ، وصلة المؤمن بالمؤمن ، وعلى

الأكثر إنما هى صلة التابع بالمتبوع الذى سبقه بمعرفة الحق والإيمان بالدعوة والتفانى فى سبيلها ، فلا محل للثورة ، ولا محل للتذمر ، ولا محل لنكران الجميل ، إنما اللائق أن يعترفوا لهم بالفضل ، وتلهج ألسنتهم بالشكر والدعاء ، وأن يقولوا : ﴿ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾(الحشر : الآية ١٠) .

وهكذا كان ، فقد ظلت هذه الأمم المفتوحة تعتبر العرب المنقذ من الجاهلية والوثنية ، والداعى الى دار السلام ، والقائد إلى الجنة ، والمعلم للحضارة ، والأستاذ فى الأدب .

هذه هى القيادة العالمية التى هيأتها البعثة المحمدية ، وهى القيادة التى يجب ان يحرص عليها العرب أشد الحرص ،ويعضوا عليها بالنواجذ ، ويسعوا إليها بكل ما أوتوا من مواهب ويتواصى بها الآباء والأبناء ، ولا يجوز لهم – فى شريعة العقل والدين والغيرة – أن يتخلوا عنها فى زمن من الأزمان ، ففيها عوض عن كل قيادة مع زيادة ، وليس فى غيرها عوض عنها وكفاية ، وهى القيادة التى تشتمل جميع أنواع القيادة والسيادة ، وهى تسيطر على القلوب والأرواح ، أكثر من سيطرتها على الأجسام والأشباح .

إن الطريق إلى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب ، وهى الطريق التى جربوها فى عهدهم الأول « الإخلاص للدعوة الإسلامية واحتضانها وتبنيها والتفانى فى سبيلها وتفضيل منهج الحياة الإسلامى على جميع مناهج الحياة » .

وبذلك – من غير قصد وإرادة لنيل هذه القيادة وتبوئها – تخضع لهم الأمم الإسلامية فى أنحاء العالم ، وتتهالك على حبهم وإجلالهم وتقليدهم ، وبذلك تنفتح لهم ابواب جديدة وميادين جديدة فى مشارق الأرض ومغاربها ، الميادين التى استعصت على غزاة الغرب ومستعمريه وثارت عليه ، وتدخل أمم جديدة فى الإسلام أمم فتية فى مواهبها وقواها وذخائرها ، أمم تستطيع أن تعارض أوربا في مدنيتها وعلومها إذا وجدت إيمانا جديداً ، وديناً جديداً ، وروحاً جديداً ، ورسالة جديدة .

إلى متى أيها لعرب تصرفون قواكم الجبارة التى فتحتم بها العالم القديم فى ميادين ضيقة محدودة ؟ وإلى متى ينحصر هذا السيل العرم – الذى جرف بالأمس بالمدنيات والحكومات – فى حدود هذا الوادى الضيق . تصطرع أمواجه ويلتهم

بعضها بعضا ؟ إليكم هذا العالم الإنساني الفسيح الذى اختاركم الله لقيادته واجتباكم لهدايته ، وكانت البعثة المحمدية فاتحة هذا العهد الجديد فى تاريخ أمتكم وفى تاريخ العالم جميعاً، وفى مصيركم ومصير العالم جميعاً فاحتضنوا هذه الدعوة الإسلامية من جديد وتفانوا في سبيلها وجاهدوا فيها

﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم
فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم
المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول
شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على
الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة
واعتصموا بالله هو مولاكم
فنعم المولى
ونعم النصير﴾

(الحج : الآية٧٨)

★ ★ ★

فهرست

صفحة